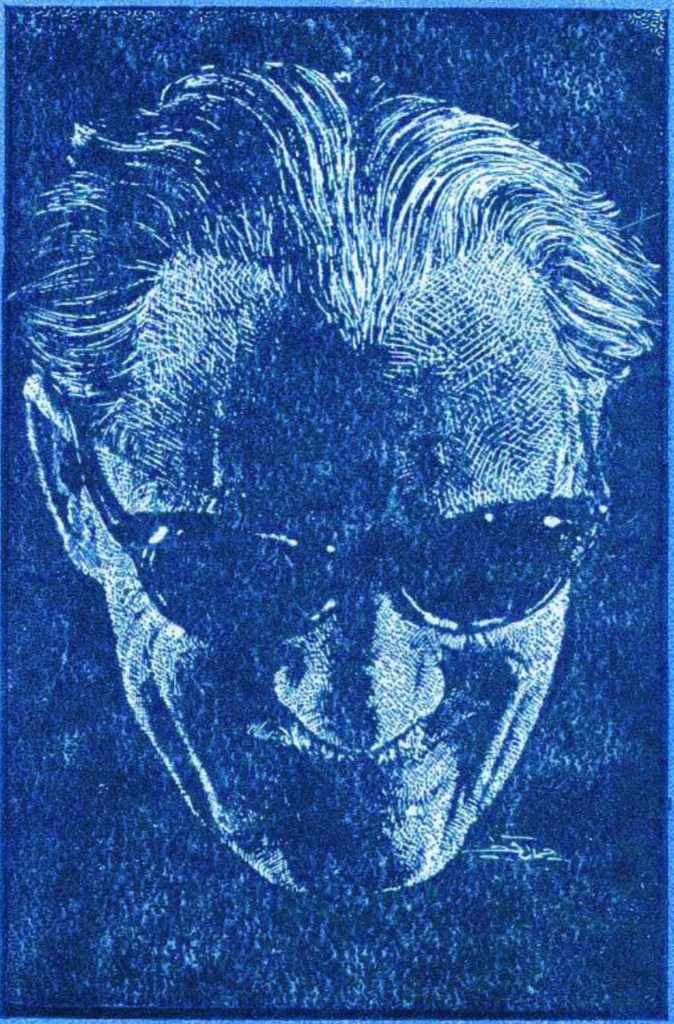
خصام ونقد

طه حسين



دار العلم للملايين

خصام ونقد

طه حسين

خصام ونقد

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون، ٩٦١٠٢٧-٢٢٤٥٠٢

الطبعة التاسعة
آذار (مارس) ١٩٧٩

محنة الأدب

حياتنا الادبيـــة فيما يظهر من امرها راكدة خامدة ما في ذلك شك ، فقد اصبحت الكتب القيمة نادرة يمر العام دون ان يظهر منها كتاب واحد فضلاً عن كتابين او ثلاثة كتب . والصحف اليومية والاسبوعية لا تكاد تحفل بالادب ؛ وقد تمر الاسابيع وقد تمر الشهور دون ان نقرأ في صحيفة يومية او اسبوعية فصلاً ادبياً ذا بال . والمجلات الشهرية تعنى بلون من الادب يسير لا يكلف كاتبه عناء طويلاً ولا يكلف قارئه جهداً ثقيلاً . ويُستحب فيما تنشر المجلات الشهرية من فصول هذا الادب ان تكون هذه الفصول قصاراً ، وان تكون لغتها يسيرة سهلة ، وان تكون موضوعاتهـــا أيسر وأسهل من لغتها ، فنحن قوم مترفون لا نريد ان

نشق على انفسنا حين نكتب ، ولا نريد ان نشق على انفسنا حين نقرأ ، وأحب شيء الينا ان نقرأ المقال ثم ننساه . والموضوع الذي يحتاج كاتبه الى ان يدرس فيطيل الدرس ، ويبحث فينعم البحث عسير على الكاتب والقارىء جميعاً . وتخير الالفاظ والتأنق فيها يكلف الكاتب والقارىء ما لا يحبان ان يتكلفا . فقد دخل علينا السأم وأصبحنا نؤثر ان نمر بالأشياء مراً سريعاً . وكثيراً ما نقرأ لنقطع الوقت لا لنغذو العقل والذوق والقلب . وكثيراً ما نقرأ لندعو النوم لا لنذوده عن انفسنا . ورحم الله اياماً كنا نرى الوقت فيها قصيراً سريع الحركة ، وكنا نتمنى لو زيد في ساعات الليل والنهار نصفها او مثلها لنقرأ فنطيل القراءة ، ولندرس فنحسن الدرس . ورحم الله اياماً كانت الصحف اليومية والاسبوعية فيها تتنافس ايهـا يكون اشد عناية بالادب واكثر تتبعاً للموضوعات التي يفرغ لها القراء في آخر النهار واول الليل ، فيخلون اليها ويستمتعون بها ، وينكرون منها ويعرفون ، ويكتبون الى الصحف بما ينكرون وما يعرفون . ورحم الله اياماً كنا نُشغل فيها بهذه الكتب الكثيرة التي تعرض للأدب والنقد ولفنون الحياة على اختلافها فيشغل بها الكتّاب ناقدين ومقرظين . ويشتد الخلاف بينهم حول هذا الرأي او ذاك فتشترك صحف كثيرة في درس موضوع واحد اثاره كاتب من الكتّاب فأنكر عليه كاتب آخر بعض ما قال او كل ما قال ،

واسرع الى هذا الكاتب وذاك انصارهما فاختصموا واطالوا الاختصام ، وانتفع القراء والكتاب جميعاً بهذه الخصومات .

رحم الله تلك الايام ، فقد مضت ومضى عهدها حتى كأن اصحابها قد مضوا معها وهم مع ذلك احياء يلقى بعضهم بعضاً بين حين وحين ولكنهم لا يكتبون او لا يكادون يكتبون ، ولا يختصمون في الادب والنقد وانما يختصمون في السياسة والمنافع العاجلة .

رحم الله تلك الأيام ، فقد مضت وانقضى عهدها وما زال كثير من اصحابها احياء لا ينظرون اليها الا ملتفتين الى وراء ، ولا ينظرون اليها الا لأنها قد بنت لهم مجداً وجعلتهم من قادة الرأي وإن تخلوا الآن عن قيادة الرأي .

ولا اريد ان اعتقد ان حياتنا الأدبية كانت تقوم على هؤلاء الشيوخ وحدهم ، فويل لهؤلاء الشيوخ ان لم يكن لهم من الشباب جيل يقفو آثارهم ويريد ان يتفوق عليهم وان ينتج من الأدب الرفيع ما لم ينتجوا ، ويؤلف من الكتب خيراً مما ألفوا وينشر من الفصول في الأدب والنقد اروع مما نشروا . ولا اريد ان اعتقد ان ادب هؤلاء الشيوخ كان جدباً عقيماً ، وانما اريد ان اعتقد انه كان خصباً كل الخصب وان اجيالاً من الشباب قد انتفعت به واضافت اليه ، ولكني ابحث عن آثار هذه الأجيال فلا اكاد اجد منها شيئاً .

أما اذا تعرض لون من ألوان انتاجنا الزراعي او

الصناعي لآفة من الآفات فإن حياتنا تضطرب اشد الاضطراب وصحفنا تقعد وتقوم وتملأ الدنيا ضجيجاً وعجيجاً ، لأن آفة من الآفات توشك ان تأتي على القطن او لأن علة من العلل الاقتصادية توشك ان تبور لها تجارة القطن . ولست اكره ان نهتم للقطن والقمح والشعير ولكني احب ان نهتم للادب والعلم والفن بعض اهتمامنا للقطن والقمح والشعير ، وقد وجلت مصر حتى كان الوجل يقض مضاجع ابنائها حين جاءها النذير بغارة الجراد ، ولكن مصر لم تحس وجلاً ولا فرقاً حين اجدبت الحياة الأدبية ، ولعلها لم تشعر بهذا الجدب ، بل اكبر الظن انها لم تشعر به ولم تفطن له . وما يعنيها ان يجدب الأدب او يخصب ما دامت لا تخاف الجوع ولا تشفق من الظمأ :

ألا إلاّ تكن إبلٌ فمعزى
كأن قرون جلّتها العِصي
فتملأ بيتنا أقِطاً وسمنا
وحسبك من غِنى شبعٌ وريّ

عفا الله عن مصر ما اشدّ اهمالها للعقل والقلب والذوق وما اشد تقصيرها في ذات الأدب والفن والعلم .

ولست اكتب اليوم لأشكو إجداب القرائح وكلال الأذهان ، وانما اكتب لأبحث عن اسباب هذا الاجداب وهذا الكلال . واريد ان اقف اليوم عند اسباب ثلاثة ما اشك في ان لها رابعاً وخامساً وسادساً ايضاً وما شئت

من الاعداد ، ولكني لن اتحدث اليوم الا عن هذه الاسباب الثلاثة واجياً ان يفكر فيها المثقفون وان يتجاوزوا التفكير الى العمل لعلهم ان يجدوا منها مخرجاً . واول هـــذه الاسباب يأتي من ظروف السياسة . وما احب ان يغضب الرقيب الخاص او العام ولا ان تغضب الحكومة القائمة ، فلست اتحدث عنها هي وحدها ولا عن الظروف المحيطة بنا اليوم وغـــداً ، وانما اتحدث عمـــا هو اعم من ذلك وأشمل .

فقد أعلنت الاحكام العرفية في مصر حين أعلنت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ، ثم رفعت بعد ست سنين ، ولكنها لم تلبث ان أعيدت حين أعلنت حرب فلسطين ، ثم رفعت بعد ثلاث سنين ، ولكنها لم تلبث ان أظلتنا منذ شهور . فقد استمتعنا اذن بالحرية الكاملة ثلاث سنين اثناء ثلاثة عشر عاماً . ومن قبل الاحكام العرفية الاولى كانت انقلابات سياسية لم يكن خطرها على حرية التفكير والتعبير اقـــل من خطر الاحكام العرفية بحيث نستطيع ان نقول غير مسرفين اننا حرمنا الحرية الحرة اكثر من خمس عشرة سنة في أقل من ربع قرن ، والحرية قوام الحياة الادبية الخصبة ، فاذا ذهبت اجدب الادب وعقم التفكير ما في ذلك شك . وقد قال نابليون ذات يوم : « ليس لنا ادب جيد ، وتبعة ذلك على وزير الداخلية » . فقد احس نابليون اذن ان رقابة وزير الداخلية على الكتاب قد ذهبت برونق

الأدب واضطرته الى العقم والجدب . كان ذلك منذ قرن ونصف قرن ، وما ارى ان حياة الناس قد تغيرت ، وما أرى انها تتغير من هذه الناحية مهما تختلف العصور . ذلك ان الأدب في حياتنا الحديثة يعيش على الاذاعة والنشر لا على إحسان المحسنين وعطف اصحاب الثراء والسلطان على الأدباء ، فالأديب يكتب ليقرأ الناس ، والناس لا يقرأونه إلا اذا نشر كتابه او مقاله ، والكتاب والمقال لا ينشران حين يتحكم في نشرهما الرقيب ، والرقيب يحظر على الناس ان ينشروا كتبهم وفصولهم حين تخوض هذه الكتب وهذه الفصول فيما لا تحب الحكومة ان تخوض فيه . وأخص ما يمتاز به الأدب انه حر بطبعه لا يقبل لحريته قيداً ولو كان من الذهب الخالص المرصع بالجوهر الكريم .

فما ينبغي اذن ان نلوم الكتّاب من الشيوخ والشباب لأنهم لا يكتبون ، وانما ينبغي ان نحمد لهم ما انفقوا من جهد واحتملوا من مشقة لينشروا هذا القليل الذي نتعلل به على رغم ما احاط بهم من الظروف . ولقد كان كثير من الكتّاب الفرنسيين في القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر ينشرون كتبهم في هولندة حتى لا يمنع السلطان نشرها في باريس . وكنا نظن ان هذا عهد قد انقضى ولكنا رأينا كتباً مصرية تحظر في مصر فتنشر في لبنان .

هذا اول الاسباب الثلاثة . اما السبب الثاني فيُسأل عنه الادباء الشيوخ انفسهم ويسأل عنه الناشرون معهم . ذلك

ان كثيراً من الشباب يكتبون ثم لا يعرفون كيف يُظهرون الناس على ما يكتبون : لا يجدون من شيوخ الأدب تشجيعاً ولا تأييداً ، ولا يجدون من الناشرين إقبالاً على نشر ما يقلمون اليهم من الكتب لأن الناشرين لا ينفقون مالهم إلا حين يعلمون انه سيعود عليهم ببعض الربح ، فهم يؤثرون الكاتب المعروف على الكاتب الذي لا يعرفه احد . وقد يتكلف الكاتب الشاب طبع كتابه على نفقته الخاصة ، يحتمل في ذلك من الجهد والمشقة ما يطيق وما لا يطيق ، ولكنه لا يجد لكتابه ناقداً معروفاً يقدمه الى الناس ليقرأوه ، ولا يجد صحيفة تنبيء الناس عن كتابه إلا اذا أدى ثمناً لهذا النبأ فيضيع عليه جهده العقلي والفني ويضيع عليه ما انفق من مال ، وتقع في قلبه حسرة ممضة لعلها ان تصرفه عن الأدب والفن . فيقنع من الحياة بالشبع والري ان اتيح له الشبع والري . وللجيل الناشيء على الجيل الذي سبقه شيء من الحق ، فليفكر شيوخ الأدباء في ذلك ليتحملوا تبعاتهم ، وليعلموا انهم لا يرضون الأدب بما يكتبون فحسب وانما يرضونه حين يكتبون وحين يمكنون الشباب من ان يكتبوا ويقرأهم الناس ويخلفوهم على مكانتهم بعد وقت يقصر او يطول .

وليس السبب الثالث بأقل خطراً من السببين السابقين . ولعله ان يكون اشد منهما امعاناً في الشر واساءة في الأدب . ذلك هو ضعف التعليم الأدبي في مصر . ففي مصر مدارس

ومعاهد وجامعات يدرّس فيها الأدب ولكنه يدرّس على نحو يحزن اكثر مما يسر . وليقل اساتذة الأدب في مصر ما يشاءون وليعللوا ضعف انتاجهم بما يشاءون ، فانتاجهم ضعيف لا يشك في ذلك من عرف الذين يتخرجون في الجامعات . وهل يصدقني أساتذة الجامعات ان قلت لهم اني عرفت طلاباً ظفروا باجازة الليسانس من اقسام اللغة العربية ولم يعرفوا كيف يبحثون في كتاب الاغاني لأنهم لم يسمعوا بفهرست الاغاني الذي وضعه جويدي ؟ فهم اذا ارادوا البحث في هـذا الكتاب الضخم عـن شاعر او كاتب او وزير ضلوا بين صفحاته التي لا تكاد تحصى ، وهم يستظهرون كلاماً يُملى عليهم ويعيدونه في الامتحان ، ويظفرون بالاجازات الدراسية وليس لهم من فهم مـا يقرأون حظ ذو خطر . واذا قصّر الشاب عن الفهم فهو أقدر ان يقصّر عن الإفهام . وكان ارسطوطاليس يقول : « يجب قبل كل شيء ان نتكلم اليونانية » . واظن ان احداً لا يجادلني في ان اول ما يجب على الكاتب المصري إنما هـو ان يحسن العربية . واحسان العربيـة يفرض على الكاتب الشاب والشيـخ ألا يذكّر المؤنث ولا يؤنث المذكر ، وان يحسن استعمال الافعال والحروف ، وان يضع الألفاظ في مواضعها ويدل بها على معانيها ، فان فعل غير ذلك فليس من الأدب في شيء . واني ليحزنني ان اقول ان كثيراً من كتابنـا يرون انفسهم كباراً يتورطون من

هذا كله في شر عظيم . ولو شئت لضربت لذلك امثالاً يخجل لها اصحابها من الشيوخ والشباب جميعاً ولكننا في شهر يحسن الا نسلط فيه الخجل على الناس .

ظروف سياسية اذن تحد حرية الأديب ، وظروف مالية تحول بين الشباب وبين العلم باللغة التي هي المادة الأولى للادب ، فكيف تريد بعد هذا كله ان تكون الحياة الأدبية المصرية خصبة مشرقة ؟!

هذا باب افتحه للكتّاب والباحثين ، وارجو ان يتعمقوه وان يتعرفوا الى هذه الأسباب اسباباً اخرى ، وان نتعاون جميعاً على حماية الحياة الأدبية من آفاتها وإبرائها من عللها ، وعلى ان نرد الى الأدب شبابه القارح فأن الأدب الذي يفقد شبابه لا خير فيه .

مرآة الغربة

●

ذكر الشاعر العربي القديم ذو الرمّة في بيت من شعره اخشى ان أرويه فيراه القراء غريباً مسرفاً في الغرابة وان كنت لا ارى فيه من الغرابة شيئاً. ولكن المثقفين في هذه الأيام قد ألفوا اليسر وآثروا السهولة وقرب المأخذ في كل ما يقرأون ويكتبون . واكثرهم يقرأون الصحف الجادّة والهازلة ، وهي تحدثهم بأيسر الالفاظ نطقاً واقربها معنىً ، وقليل منهم يقرأون الكتب ــ وايّ كتب ؟ ــ الكتب التي تتحدث اليهم بلغة الصحف ولا تكاد تعنى بالتحرير ولا بالتخير ولا بالتجويد ولا بالابعاد في لفظ او معنى . قد ألفوا ذلك واحبوه واصبح من اعسر العسر تحويلهم عنه ، فكيف اذا رويت لهم بيتاً من شعر ذلك الشاعر الذي

عاش في القرن الأول ومات في اوائل القرن الثاني للهجرة ، وكان مع ذلك بدوي الحياة بدوي التفكير والتعبير . وهو يصف في هذا البيت ناقته بأن لها خداً واضحاً ناصعاً سهلاً كأنه مرآة الفتاة الغريبة قد ألمت بقوم لا يحفلون بها ولا يلتفتون اليها ولا ينصحون لها في جمالها ورونقها . فهي لا تعتمد عليهم ولا تطمئن اليهم ولا تستشيرهم فيما تتخذ من زينة او ما تكون عليه من هيئة ، وانما تعتمد على مرآتها فهي تجلوها دائماً وتزيل عنها كل مـا يعلق بها من صدأ او غبـار . فمرآتها مجلوة ابداً ناصعة ابداً تريها صورتها كأدق ما تكون ، فهي مرآة صادقة ناصعة لا تخفي على صاحبتها شيئاً من قبح او جمال ، ومما ينفّر العين او يدعوها .

وقراؤنا والحمد لله حراص عـلى السهولة واليسر ، يكرهون التكلف ويشفقون من كل ما يُجهد او يكد ، وهم جديرون ان يسألوني عن هذه المرآة البدوية الغريبة ما خطبها وما شأنها ، واي صلة بينهم وبينها ، ومالي احدثهم عنها ، وأثقل عليهم بذكرها ، واستقصي لهم اخبارها ؟

ولكني قد عوّدت القراء ان اكون معهم عندما احب انا لا عندما يحبون هم . ولست اكره لهم أن يتعبوا شيئاً وان يفكروا قليلاً . فقد احب ان لا تشعر مصر في هذا العالم الذي تعيش فيه وتقضي بين اهله من حياتها الخالدة الخصبة هذه الأيام الشداد بأنها غريبة بين الامم لا ناصح

لها في امرها فهي خليقة الا تعتمد على ما يقال لها او يقال عنها في شرق الارض وغربها ، لأن هذا العالم لا يحفل بها إلا من حيث انها تستطيع ان تنفعه او تضره ، فهو لا يحفل بها لنفسها ، وهو من اجل ذلك ان قال لها الحق يوماً فقد يقول لها غير الحق اياماً ، فهي في حاجة الى ان تتخذ مرآة كهذه المرآة البدوية التي ذكرها ذلك الشاعر القديم ، وان تجلوها دائماً وتزيل عنها ما قد يصل اليهـــا من صدأ او غبار . وتنظر فيها حين تصبح وحين تمسي وتنظر فيها بين ذلك لترى نفسها وترى ما يختلف عليهـــا من الاطوار ، فتصلح من امرهـــا بالزيادة والنقص وبالتغيير والتبديل ، وبالتقويم والتعديل . واي شيء يمكن ان تكون هذه المرآة غير ما تنشر الصحف من احاديث ، وما يذيع المؤلفون من كتب ، وما يحدث من اصحاب الفن من آثار ؟ فهل تستطيع مصر في هذه الايام ان تقول ان بيدها هذه المرآة النقية الصافية الصادقة التي ترى فيها نفسها كما هي والتي تحدثها عن امرها كله بالحق الذي لا شك فيه ؟

أحق ان الصحافة المصرية هي مرآة الغربية التي تنظر فيها مصر حين يسفر الصبح وحين يقبل المساء ؟ هيهات تحول بينها وبين ذلك نوائب وخطوب ، فهي تصور من حياة مصر ظاهراً ولكنه ظاهر رقيق جداً لا عمق له ، وهو في الوقت نفسه كثيف جداً لا يكشف مما وراءه عن قليل او كثير ، اما ان الصحافة تنقل الينا انباء الشرق والغرب ، واما انها

تنقل الينا انباء الحكام حين يغدون ويروحون وأنبـاء ما يصـدرون من امر ويشرعون من قانون ، وأنباء الساسة والقادة حين يقيمون وحين يظعنون ، فهذا حق . وأما أن هذا كله يظهرنا على حقائق أنفسنا ودقائق ضمائرنا ويصور لنا ما تدور به احاديثنـا حين يلقى بعضنا بعضـاً وما يخطر لنا حين نقرأ ما يذاع فينا من الأنباء وما تضطرب به نفوسنا حين نفكر ، فهذا هو الـذي أشك فيه الشك كله . ما اكثر الصدأ وما اكثف الغبار الذي يغشى مرآة الصحافة . اني لأقرأ صحفـاً كثيرة في اول النهار وآخره وفي اول الاسبوع وآخره وفيـما يكون بين يوم الأحـد ويـوم السبت من ايام . فلا احس حيـاة مصر ولا اجد روحها ولا حرارتها ، وانمـا هي عنوانات أمرّ بها سريعاً وموضوعات ألمّ بها الماماً قصيراً ثم اتجاوزها الى ما وراءها ثم أتركها وأفزع منها الى كتاب قديم او حديث فأنسى فيه حياتنا الحاضرة ، وما أحب ان انساها ، فهي خليقة ان نقف عندهـا فنطيل الوقوف وان نفكر فيها فنطيـل التفكير ، وان نعتبر بأحداثها فنحسن الاعتبار .

وهل تستطيع مصر ان تقول إن مـا يصدر ابناؤها في هذه الأيام من الكتب والأسفار هي هـذه المرآة ، مرآة الغريبة التي ذكرها الشاعر العربـي القديم . هيهات ، اني لألتمس هذه الكتب والأسفار فلا اجدها ، وأكاد اعتقد ان المصريين المعاصرين من الشيوخ والشباب قد صُرفوا عن

التأليف والكتابة صرفاً ، أتراهم شغلوا عن الكتابة والتأليف بأحداث الحياة وخطوبها فهم مشغولون بما ينوب ، معنيون بما يلم ، لا يكادون يفرغون لأنفسهم ، ولا يكادون ، يخلون الى فنهم ؟ ام تراهم قد صدئت نفوسهم كما صدئت المرآة التي ينظرون فيها لا يجدون ما يكتبون كما انهم لا يجدون ما يقرأون ؟ ام تراهم يلقون من المصاعب في نشر الكتب واذاعتها ما يصدهم عن الكتابة والتأليف ؟ أم تراهم يكتبون ويؤلفون ولكنهم يدخرون ما يكتبون ويؤلفون وينتظرون به اياماً خيراً من هذه الايام يتاح فيها النشر وتتاح فيها القراءة ؟ لا ادري ولكني استطيع ان اقول : ان الكتب المصرية الحديثة التي يمكن ان نقف عندها وننظر فيها فنرى حياة مصر المعاصرة من قريب او من بعيد اقل من ان تحصى . والمطابع مع ذلك تعمل في الليل والنهار وتخرج كتباً كثيرة منها القديم الذي ينشر لأول مرة ، والقديم الذي يعاد نشره ، والحديث الذي يترجم عن هذه اللغة الأجنبية او تلك . فأما الذي يعرب عن النفس المصرية المعاصرة ويصور شعورها بالحياة وردّها على احداث الحياة ويصور آمالها وآلامها فهي اقل من ان تحصى . وهذا الاقل ضعيف لا شك في ضعفه فاتر لا شك في فتوره لا تكاد تقبل عليه حتى تنصرف عنه ، ولا تكاد تنظر فيه حتى تفزع منه الى كتاب قديم او حديث . وأريد بالكتب الحديثة هذه التي يحملها الينا البريد او تحملها الينا التجارة

من اوروبا وامريكا لا من مصر ولا من الشرق العربي .

مصر اذن غريبة في هذا العالم المعاصر ترى نفسها في مرايا غريبة ليست صادقة ولا ناصحة ، فهي تعيش في نور اشبه شيء بالظلمة لا تكاد تعرف من امر نفسها شيئاً . فأي غرابة في ان تأتي من الاعمال ما لا يلائم منفعتها ولا طبيعتها ولا مكانتها ولا ما ينبغي ان يكون للعالم فيها من رأي ؟ وأي غرابة في ان ترى الاشياء ، فلا تحسن العلم بها ولا الحكم عليها ولا الرأي فيها ؟ صحافة تسيطر عليها الظروف ولا تسيطر هي على الظروف ، بل لا تكاد توجه نفسها فضلاً ان توجه قراءها . وقرائح مجدبة او موهوبة قد حيل بينها وبين الانتاج ، وهي لا تعرف ما يحول بينها وبين الانتاج . وشعب يصبح ويمسي فيقرأ كلاماً لا يغذو عقلاً ولا قلباً ولا خيالاً ولا يجلو ذوقاً ولا طبعاً ولا يرهف حساً ولا شعوراً ، وانما هو اشبه شيء بهذا الكلام الذي شبهه ابو العلاء برحى تطحن قروناً. واذا طحنت الرحى قروناً فهيهات ان تنتج طحناً يغني عن الجائع الذي يكاد يهلكه الجوع .

سيقول قائلون اني متشائم مسرف في التشاؤم ، وعلم الله ما تشاءمت قط وما كنت الا متفائلاً . ولكني رجعت الى الأدب فأردت ان اقرأ فلم أر امامي الا كتب القدماء وكتب المحدثين من الامريكيين والأوروبيين ، وأردت ان اقرأ كتباً مصرية فأعدت قراءة كتاب لأديب

معاصر نشر منذ سنين ، وأردت ان اقرأ في المجلات فأشفقت من اضاعة الوقت والتمست الروح والراحة والغذاء عند قدماء العرب وعند الكتاب الاجانب . اردت ان اعرف مصر المعاصرة . اردت ان اعرف نفسها التي تحس وتشعر وتعقل وتفكر فلم اجد اليها سبيلاً . اني لأعلم كما يعلم الناس جميعاً ان في مصر شعباً يضطرب في شؤون الحياة وأن له حكومة قائمة وعمالاً يدبرون مرافقه ، وان له صحفاً تقرأ وجامعات ومدارس يختلف اليها الطلاب والتلاميذ ، ويوشكون ان يهجروها لقرب الامتحانات ، وان هذا الشعب يختلف عليه الليل والنهار كما تختلف عليه الفصول وتحدث فيه الأحداث وتلم به الخطوب . اعرف هذا كله كما يعرفه الناس جميعاً ، ولكني اريد ان اعرف الأثر الأدبي والفني والعقلي لهذا كله في نفس هذا الشعب فلا أجد الى معرفته سبيلاً .

ما اسعد الشعب الذي يملك مرآة الغربية ، هذه المرآة الصادقة الصافية التي ينظر فيها فيرى نفسه كما هي . يراها ثابتة ويراها متجددة . يرى شخصيته الخالدة ويرى ما يختلف عليها من الصور والأشكال . لقد كنت اعيب على ادبائنا منذ اكثر من عشرين سنة انهم يطيلون النظر الى نفوسهم في المرآة فيتحدثون عنها ويكثرون الحديث . فأصبحت الآن لا استطيع ان اعيب عليهم حتى نظرهم في مرآتهم الخاصة .

انهم لا ينظرون في ادبهم ولا يتحدثون عنه كأنهم قد هجروه هجراً غير جميل . واذا لم ينظر الأدباء في مرآة انفسهم ولم ينظروا في مرآة وطنهم ولم يصنعوا لوطنهم هذه المرآة ، فماذا يصنعون ؟

لقد شقي الشعب الذي ليست له المرآة ، مرآة الغريبة التي ذكرها ذلك الشاعر العربي القديم لا لشيء الا لأن ادباءه قد قنعوا من العيش بأنهم يعيشون !

من مشكلات ادبنا الحديث

●

الأدباء قلقون ما في ذلك شك ، لا يكاد احدهم يلقى صاحبه حتى يتحدث اليه عما يجد في نفسه من هذا الاشفاق الذي كان غامضاً اول الأمر ، ثم اخذ يظهر شيئاً فشيئاً حتى اصبح واضحاً كل الوضوح ، وانتهى بأصحابه الى شيء من التشاؤم ، كأن العهد قد بعد به حيناً من الدهر. فكثير من الأدباء لا يجدون الوسيلة الى الاعراب عن ذات انفسهم ، يخطر لهم الخاطر فيملأ عليهم نفوسهم ، ويستغرق تفكيرهم ، ويثير فيهم الشوق الى الكتابة ، ثم يدفعهم الى الكتابة دفعاً ، فيكتبون .

والأديب حين يكتب مخدوع عن نفسه دائماً ، يزعم انه لا يحفل بالناس ولا يفكر فيهم ، ولا يكتب الا

ليرضي قلبه وعقله وذوقه ، وطبعـــه الذي لا يستطيع ان يمتنع عن الانتاج حين يدعى اليه ، وهو يخيـــل الى نفسه ان الأدب نفحات طبيعية تصدر عن اصحابها لأنها لا بد لها من الصدور ، كما ان الضوء يصدر عن الشمس لأنها لا تملك الا ان تضيء ، وكما ان العبير يصـــدر عن الزهرة لأنها لا تملك الا ان تنشر العبير . ولا على الشمس ولا على الزهرة ان لا يُنتفع بما تنشران مـن ضوء او شذا .

كذلك يخدع الأديب نفسه ويخيل اليها ... ولكنه لا يكاد يكتب ، بل لا يكـــاد يأخـذ في الكتابة حتى يحس الحاجة الملحة الى ان يقرأ الناس ما يكتب ، فمن طبيعـــة نفسه ان يكتب ومن طبيعـــة نفسه ان يتصل بالناس ، ليقرأوه ويشاركوه في الحس والذوق والشعور .

كلا الأمرين طبيعة فيه يشغله فنه اول الأمر عن غيره من الناس والأشياء ، فاذا أتمه لم يسترح حتى يُظهر الناس عليه وحتى يستمتعوا به او يزوروا عنه وينكروه .

والأديب ليس محتاجاً الى ان يرضى الناس عنه فحسب، ولكنه محتاج الى ان يرضوا عنـه ويسخطوا علـــيه ، والى ان يعرفوا من ادبـــه وينكروا ، والى ان يثنوا عليـــه وينقدوه . هو في حاجة الى ان يتصل بالناس لأنه يكتب لهم كما انه يكتب لنفسه . واتصاله بالناس هـذا قد اصبح مشكلة معضلة لا يكاد يجد لها حلا ، ولا يكاد يعرف لها شبيهاً في تاريخ الأدب على طوله واختلاف بيئاته وعصوره

فقد كان هذا الاتصال فيما مضى من الزمن ميسراً الى حد بعيد . لم يكن عـلى الأديب الا ان ينشىء ادبه ثم يدفعه الى احد النساخ يذيعه مخطوطاً بتلك الوسائل الضئيلة البطيئة التي كانت تتاح للناس قبل ان تنشأ المطبعة وتحدث ما احدثت من اليسر والعسر جميعاً .

فأمـا الآن فليس من سبيـل الى ان يكتفي الأديب بهذه الوسيلة .. بل ليس من سبيل الى ان يفكـر فيها ، فالناس لا يقرأون الكتب المخطوطة الا ان يكونوا مـن العلماء الذين وقفوا انفسهم وجهودهم على ان يحيوا التراث القـديم بالدرس والبحث والتحقيق ، والطبـع والنشر آخر الأمر .

فليس بد لـلأديب اذن مـن ان يثب الى هذا اليسر العسير الذي نسميـه الآن الطبـع والنشر . وهو يُسرٌ حين يتاح للأديب ان يجد من يطبع وينشر ، وهو العسر كـل العسر ، والشقاء كل الشقاء ، حين لا يتاح الطبع والنشر للاديب .

وقد اقتضى يسر الطبع والنشر ان تنشأ المجلات الخاصة، ينشر فيها الأدباء ما يكتبون من هذه الآثار الفنية القصار التي اصبحت لونـاً من ألوان الأدب الحديث . واقتضى يُسر الطبع والنشر ان تنشأ الصحف السيارة وان تتنافس فيما بينهـا وان تتخذ الأدب وسيلة من وسائل هـذا التنافس ... فعمد اليها الأدباء ينشرون فيهـا آثارهم هذه

القصار ، ومضت أمور الأدب على هـذا النحو مسمحة مياسرة ، ولكن الأمور تتعقد فجأة ، فاذا الطبع والنشر يحتاجان الى المال ... والى المال الذي ينفق في كثير من التقدير والاحتياط . والمال يدعو المال ، فنفقته يحتاج الى ان يسترده رابحاً فيه ، وهو من اجل ذلك يحتاج الى رضى الذين ينتفعون بانفاقه ليستزيدوا منه ، فيكون ادعى للربح وأسرع الى الغنى . فليس بد من تملق المستغلين والتماس ما يرضيهم ويلائم حاجتهم ومنافعهم ، واذا احتاج الأديب الى ان يكون وسيلة لربح الطابع والناشر ووسيلة بعد ذلك او قبل ذلك لاقامة الأود وارضاء الحاجة اليومية الى القوت، فقد تعرض الأدب الى محنته الكبرى ، وهي المحنة التي يشقى بها الأدباء عندنا في هذه الأيام .

وكان الأدباء فيما مضى من الزمان يتخذون الأدب فناً اي يتخذونه غاية لا وسيلة ... ينتجون لأن طبائعهم تضطرهم الى الانتاج . ولأنهم لا يملكون الا ان ينتجوا ولم يكونوا يعتمدون على الفن ليعيشوا . وانما كانوا يتخذون الى العيش وسائل اخرى قلما تتصل بالأدب من قريب او بعيد . كان منهم الذين يعملون بأيديهم ، وكان منهم الذين يتصرفون في التجارة ، كانوا على كل حال يضطربون في شؤون الحياة كما يضطرب فيها غيرهم من الناس . وربما وجد الأديب او صاحب الفن من الملوك والأمراء وأصحاب الثراء من يريحهم من هذا العناء ، فيفرغون للأدب

ويشترون رضى هؤلاء السادة بما يهدون اليهم من ألوان المدح والثناء : منهم من يختص هؤلاء السادة بأيسر ما عنده فيبيعهم الثناء بالمال ، ويؤثر نفسه بخير ما عنده كما كان المتنبي يصنع في كثير من الأحيان ، فيهدي اكثر ممدوحيه غثاء شعره ، ويختص نفسه بالغناء الرائع يصوّر فيه حزنه وألمه وفخره ورضاه وسخطه وما شاء الله من ألوان العواطف والشعور . ومنهم من ينفق اكثر ما عنده في ارضاء سادته اولئك . فيصبح اكثر ادبه ثناء ومدحاً يجوّد فيه ما وسعه التجويد ويقصّر فيه عن الغاية حين يضطر الى التقصير .

ولكن عصر هؤلاء الملوك والأمراء والسادة قد انقضى الى غير رجعة ، وأصبح الأدب مضطراً الى ان يعتمد على نفسه لينشر اولاً ، ويقدّر بعد ذلك ويقوت اصحابه في كثير من الأحيان اذا لم يضطربوا في الحياة كما كان يضطرب فيها كثير من اسلافهم ، وكما يضطرب فيها غيرهم من الناس .

وكان الأدب فخوراً بهذا الاستقلال الذي اتيح له وبأنه قد استطاع ان ينصرف عن هذا الثناء الذي تنطق به الألسنة ولا تعتقده القلوب ... ولكنه ينظر الآن فيرى ان له ملوكاً وسادة من طراز جديد — وانه مضطر الى ارضاء هؤلاء الملوك والسادة إن أراد ان ينشر ويقدر ويقوت الأدباء وهؤلاء الملوك والسادة هم القراء الذين ارادوا ان يشتروا

ليرضى الناشر والطابع ويقبلا علـى النشر والطبع فاذا لم يشتروا الا قليـلاً ، اعرض الناشر والطابع عن الأدب الى اشياء اخرى اجدى عليهما وأنفع لهما .. ونظر الأديب فاذا ادبه بضاعة بائرة لا سبيل الى ان تصل الى ايـدي الناس ؛ فضـلاً عن ان تصل الى قلوبهـم وأذواقهم وعقولهم .

والملوك الجدد اصعب مراساً وأعسر ارضاء من الملوك القدماء . فقد كان الملك فؤاد فرداً يحب طائفة من الشعراء او يستأثر بشاعر واحد ، وكان من اليسير ان يعرف الأدباء ما يرضيـه وما يسخطه ، وان يتوخوا مواضـع الرضى ويتجنبوا مواضع السخط .. فأمـا الآن فهؤلاء الملوك لا يحصون لأنهم شعوب ، وليس من اليسير ان يتبين الأدباء ما يسوءهم وما يسرهم ، وما يرضيهم وما يسخطهم . وقد كان توخي ارضاء الملوك في العصور القديمة مفسداً للأدب وارضاء الجماهير في العصور الحديثة أشد له افساداً .

والأديب لا يكره شيئاً كما يكره تملق القراء وتوخي رضائهم . وفي الأدب كثير من الاعتزاز بالنفس والثقـة بالفن والايمان بالجمال . وهو يرى نفسه غاية لا وسيلة ، وهو يحب ان يرقى اليـه قراؤه حيث هو ، ولا يحب ان ينزل اليهم حيث هم ، وليس معنى هذا ان يستعلي عليهم او يزدريهم او يزورّ عنهم ، وانما معناه انه يهبط اليهم فيشتق منهم مادته ويجني منهم حلوهم ومرهم ، ويستخلص

منهم صفوهم وكدرهم ... ثم يعود الى نفسه فيخلو اليها ويستخرج نتيجة هذا كله رائقة صفواً يعرضها على الناس في الصورة التي يحبونها هم .

فهو يعاشرهم ويخالطهم ويمازج حياتهم ممازجة دقيقة كل الدقة ، خفية كل الخفاء ، عميقة كل العمق ، ثم ينفصل عنهم فيعود الى قمته تلك التي يستحبها ولا يستطيع ان يسوغ نفسه الا فيها ... ثم يعود اليهم بعد ذلك صورة رائقة شائقة يلذوقها منهم من تهيأ للذوقها ، ويسيغها منهم من اعد نفسه لاساغتها .

ونتيجة هذا كله ان الأديب الصحيح متصل بالناس اشد الاتصال ، منفصل عنهم اشد الانفصال ... يشتق نفسه من انفسهم اشتقاقاً ، ثم يعود اليهم بعد تكوينه خلقاً جديداً يجب ان يتهيأوا لقبوله ويعدوا انفسهم للرضى عنه او السخط عليه .

وكذلك يجد الأدب نفسه في هذا الوطن الغريب : هو من الناس لأنه ذوب نفوسهم وخلاصة حياتهم ، وليس هو من الناس لأنه روح الأديب الذي انتجه ، وصورة عقله وقلبه وعصارة طبعه وذوقه . فهو دان ناء وهو قريب بعيد . وهو من اجل ذلك لا يحفل ولا ينبغي ان يحفل برضى الناس عنه او سخطهم عليه ، وانما شأنهم كشأن ابي العلاء حين يقول :

وخذ رأيي وحسبك ذاك مني على ما فيّ من عوج وأمتِ
وماذا يبتغي الجلساء عندي ارادوا منطقي وأردت صمتي
ويوجد بيننـــا أمدٌ قصي فأموا سمتهم وأممت سمتي

واذن فالأدب في حاجة الى ان يستقـــل ، والى ان يكون حراً لا يتملق ولا يترضى ولا يسعى الى الناس وانما يسعى الناس اليه . والأدب بعد هذا كله ، ومن اجل هذا كله ، في حاجة الى ان يستأني ويتمهل ويظهر حين يريد ان يظهر لا حين يريده الناس على الظهور . والأدب لا يبغض شيئاً كما يبغض العجلة . ولا يفسده شيء كما يفسده الاسراع .. وهو متمهـل حين يبحث ويستقصي ، وحين يشق مادته ويستخلص معانيه ، وهو متمهـــل مستأنٍ حين يؤلف ما جمع وما استخلص ، ويلائم بين اجزائه . وهو متمهل مستأنٍ حين يصوغ هذا كله . ويضفي عليه الصورة التي يجب ان يضفيها عليها ، وهو يحب ان يعيد النظر الى نفسه مرة ومرة ومرات . وهو يريد ان ينظر الى نفسه في المرآة ، فيصلح هنا ويغير هنالك ، ويزيد في موضع ، وينقص في موضع آخر . ويحاول ان يرضى عن نفسه قبل ان يظهر للناس . وليس شيء اشق عليه من ان يرضى عن نفسه لأنه عسير لا يحب المياسرة ولأنه ينظر دائماً الى مثل رفيعة ، بعيدة المنال لا يكاد يدنو منها حتى تنأى عنه . ولا يكاد يبلغها حتى تفوته .

ولأمر ماقيل ان بعض شعرائنا الجاهليين كانوا ينشئون القصيدة ثم يعرضونها على انفسهم ثم يطيلون النظر فيهـا والاصلاح لها ، لا يُظهرونها للناس إلا بعد ان يفرغوا لها حولاً كاملاً .. ولأمر ما قيل ان شاعراً فرنسياً معاصراً انشأ قصيدة من قصائده ثم فرغ لتنقيحها وتهذيبها وقتـاً طويلاً ، حتى اختطفها منه بعض اصحابه اختطافاً فأذاعها في الناس .. ولولا ذلك لما اخرجها اليهم ، وقد وجد عنده بعد وفاته مئات من نسخ التجارب لهذه القصيدة .

والأدباء يختلفون بطئاً وسرعةً في انتاج ما ينتجون ، ولكن البطء والأناة والتحفظ والتمهل هي الخصال الأساسية للأديب الجدير بهذا الاسم .

فليس الأدب اذن من هذه البضائع التي تستجيب في يسر لما تحتاج اليه التجارة من السرعة والانتظام . وهو من اجل ذلك لا يستطيع ان يتوخى ارضاء الذين يستهلكونه ، وهو من اجل ذلك معرّض بطبعه للكساد ، إلا ان يكثر أكفاؤه من القراء ، وان يجدوا الحاجة الملحـة والشعور المُلحّ والضرورة التي تدفعهم الى القراءة دفعـاً .. هنالك يستطيع الأدب ان يجد في نفسه ما يحتاج اليه من العزة ، وان يجد من نفسه الاستجابة الى ما ينبغي له من الأنـاة والتمهل ليتمكن من التجويد والاتقان .

من اجل هذا كله نفهم في غير مشقة هذا القلق الشائع بين الادباء والذي يشغلهم عن الانتـاج ، ويضطرهم الى

كثير من التساؤل ، ويورطهم في كثير من الحيرة .

فالحياة الحديثة تفرض عليهم كثيراً من المشكـلات ، وتثير في نفوسهم ألواناً من العواطف وضروباً من الشعور . وهم يجدون الحاجة الى ان يصوروا ما يحسون وما يشعرون .

وقديماً عرضت الحياة الخاصة والعامة على الأدباء ألوان العواطف وضروب الشعور ووجدوا الحاجة الى الانشاء فأنشأوا ، والى الغناء فغنوا ، والى اعلان الرضى والسخط والاكتئاب والابتهاج فأعلنوا من ذلك كله ما ارادوا ، لم يكونوا في حاجة الى اكثر من ان يطلقوا ألسنتهم وأصواتهم بالغناء فيسمع لهم الناس ، قبل ان تشيع القراءة ، ثم لم يكونوا في حاجة الى ان يعمدوا الى القلم والقرطاس ليكتبوا فيقرأ الناس بعد ان شاعت الكتابة والقراءة . فأما الآن فهم يستطيعون ان يطلقوا ألسنتهم وأصواتهم فلن يسمع لهم احد غير انفسهم ، وهم يستطيعون ان يعمدوا الى القلم والقرطاس وان يكتبوا ما يحبون فلن يقرأ لهم غير أنفسهم وغير ذوي خاصتهم من الصديق . هم مضطرون الى ان يلجأوا الى المطبعة والى الناشرين . وما اكثر المطابع وما اكثر الناشرين ، ولكن الوصول الى تلك والى هؤلاء دونه اهوال لا تقل مشقة وخطراً عن تلك الأهوال التي ذكرها ابو العلاء في بيته المشهور :

فيا دارها بالحزن ان مدارهـا
قريب ولكـن دون ذلك اهوال

وقد يخدع الناشر عن نفسه فينشر ما يقدم اليه الاديب ثم يلتمس له القراء فلا يجد اليهم سبيلاً ، إما لأنهم لا يحبون ان يقرأوا ، واما لأنهـم لا يستطيعون ان يشتروا ما يعرض عليهم ، وإما لأنهم يجهلون ما ينشر بين حين وحين ، لأن الناشر لا يملك وسائل الاعلان او لا يريد ان ينفق ما ينبغي من المال ليتاح له الاعلان .

واذا نشر الكتاب ثم لم يقرأ شقي بـه الاديب الذي أنفق جهده ووقته وحرص على ان ينفع الناس فحيل بينه وبين ما اراد ، وشقي به الناشر الذي أنفق في نشره المال وعقد به الآمال فضاع عليه ما انفق وذهبت آماله مـع الريح وكره ان يلدغ من جحر مرتين .

وكانت القراءة والكتابة فيما مضى من الزمان كما كان الأدب والعلم والثقافة ، وقفاً على قلة من الناس هم الذين يعنون بذلك ويفرغون له او يمنحونه أجزاء من اوقاتهـم تقصر او تطول . فكان من اليسير على الأديب ان يبلغ طبقة القراء في غير مشقة ولا عسر ، وانمـا هم نساخ يكتبون ووراقون يبيعون . اما الآن فقد كثر الكتاب والقراء وسيزدادون كثرة من يوم الى يوم . وشاع الادب والثقافة والعلم وستزداد شيوعاً من عام الى عام . واصبح الوصول الى طبقات القراء والمثقفين على اختلاف حظوظهم من القراءة

والثقافة ، شاقاً عسيراً يحتاج من الوسائل والاداة الى ما لا يتاح الا بعد الجهد والتكيف .

اضف الى كل هذا ان الحياة الحديثة تتعقد من يوم الى يوم وتشغل الانسان عن نفسه اكثر وقتــه ، فهو في حاجة الى العمل وجه النهار ، وهو في حاجة الى الراحة بعد العمل . فاذا اخذ قسطه من الراحة ، فما اكثر ما يدعوه الى اللهو ويحبب اليه الفراغ . فهــذه الاندية التي يلقى فيها الناس ليقول لهم ويسمع منهم ، وهذه القهوات العامة التي يجلس فيها ليرى الذاهبين والجائين ويلقي كلمة هنا ويسمع كلمة من هناك ، وهذه الدور التي تدعوه الى السينما او الى التمثيل او الى ما شئت من ألوان العبث .. كل ذلك يستغرق من وقته آخر النهار وصدراً ممتداً من الليل . فاذا عاد الى داره وثابت اليه نفسه كانت حاجته الى الراحة أشد من حاجته إلى القراءة . فان وجــد من نفسه نشاطاً للقراءة ، فانما هو النشاط للقراءة اليسيرة التي لا تشق ولا تجهد ولا تحتاج إلى روية وتفكير .

والأدب يكره اليسر في الانتاج وهو يكره اليسر في الاستهلاك ايضاً . وهــو يريد من الأديب ان يستأني في الانشاء ويريد من القارىء ان يتأنى في القراءة ، فهو جهد مشترك يجب ان يحمل عبئه المنتج والمستهلك جميعاً . فاذا اتيحت للرجل المثقف وسائل القراءة اليسيرة او الثقــافة السهلة بعد ما بذل من الجهد والعناء طول النهار وصدراً

من الليل ، آحبّ ذلك ومال اليه . وما هي إلا ان يمد يده ويمس بعض الأزرار فـاذا الراديو يغرقه بفنون من الجد والهزل والموسيقى والغناء ، وما هي إلا ان يمد يده إلى صحيفة من هذه الصحف الكثيرة التي تعينه في رفق وتسليه على انتظار النوم او تدعو اليه النوم ، فيستجيب إلى دعائها في سرع سريع .

فأين يقع الكتاب المتقن الممتع الذي بذل فيه منتجه ما بذل من الجهد واحتمل في تأليفه ما احتمل من العناء ، وأرق فيه ليله وأنفق فيه صفوة نهـاره ؟ اين يقع هذا الكتاب من كل هذا اليسر المريح ، ومن كل هذا الاغراء الذي يصعب الامتناع عليه ؟ هذه بعض المشكلات التي يشقى بها الأدب في هذه الايام ، وهي ليست مقصورة على مصر ولا على البلاد العربية ولكنهـا شائعة في اقطار الارض كلها . غير انها في مصر وفي البلاد العربية ، أشد شدة وأعنف عنفاً . فالقراء في شرقنا العربـي ، على كثرتهم الآن ، ما زالوا قلة قليلة بالقياس إلى شعوب هذا الشرق ، والمثقفون منهم ثقافة تهيئهم لقراءة الأدب الصحيح والانتفاع به والاستمتاع بروعته وجماله أقلّ من القليل كما يقال .

فأيّ غرابة في ان يتردد الناشرون مخافة ان يتعرض مالهم وجهدهم للضياع ؟ وأي غرابـة في ان يسوء ظنّ الأديب بالأدب ؟ فاذا كان الأمر كذلك في بلاد الغرب على كثرة قرائها وشيوع الثقافة العميقة بينهم ، فـأجدر

ان تكون الشكوى في بلادنا أشد لذعاً وامضى واقعاً منها في تلك البلاد .

والأمر لا يقف عند هذا الحد من الصعوبة والعسر . فقد اختلطت القيم وتشابهت ، وعميت حقائقها على الناس في هذه الايام . وكان حظنا من هذا الاختلاط اعظم من حظ بلاد الغرب لقلة الثقــافة العميقة المتينة بين قرائنا . فكثر بيننا اولئك الذين يطلقون الأحكام اطلاقاً ويرسلونها ارسالاً لا يتعمقون ولا يتدبرون ، لأن وسائــل التعميق والتدبير تعوزهم فهم يحتاجون إلى علم بحقائق الأشياء اكثر مما اتيح لهم ان يعلموا ليروا ويفكروا ويستقصوا قبل ان يطلقوا ما يطلقون من الأحكام وقبل ان يرسلوا ما يرسلون من الاحاديث .

فنهم من يرى ان الأدب عندنا قد ضعف وتهافت لانه قديم قد بعد عليه العهد ، ولأن أصحابه الذين ينتجونه يعيشون في عصور جديدة بالقياس اليهم ، لم يألفوها ، وهي لا تلائم طبائعهم ، فهم غرباء في العصور قد طالت عليهم اعمارهم وآن لهم ان يميتوا انفسهم قبل ان يدركهم الموت ، فيأخذوا انفسهم بالصمت ويصدوها عن الانتــاج الذي لا يلائم البيئة الجديده التي لا تألفهم ولا يألفونها . ولا يقول هؤلاء الناس لانفسهم ان هؤلاء الادباء هم الذين انشأوا البيئة الجديدة حين احدثوا ما احدثوا في الأدب من تطور عميق واسع بعيد المدى . فهم ليسوا غرباء عن هذه البيئة

لأنها بيئتهم التي صنعوها بأيديهم وارادوها لأنفسهم ولأبنائهم ، وانما تعقدت امور الحياة في هذه البلاد كما تعقدت في غيرها من اقطار الارض ، فصعب الاتصال بين الأدب وعامة الناس لكثرة ما طرأ من وسائل التيسير على الناس فيما يقولون ويسمعون وفيما يثقفـون به انفسهم من طريق النظر والسمع والقراءة اليسيرة الخاطفة الرخيصة التي لا تكلف الناس من الجهد العقـلي ومن فراغ البال ما تكلفهم قراءة الأدب الرفيع . ومنهم من يقول ان الناس جميعاً في حاجة إلى ان يقرأوا ويفهموا ويذوقوا ويستمتعوا بالجمال الأدبي ، فيجب ان يكون الأدب قريب التناول يستطيع كل انسان ان يذوقـه ويتمتع به ، وليس كل الناس قد تعمق اللغة وعرف من دقائقها واسرارها ما يمكنه من اساغة هذا الأدب الذي يحتفظ بجمال الصورة ورونق الاسلوب ، ويحرص على ان يتخير المعاني الكريمة ويؤديها بالالفاظ العذبة الرائعة التي يحسن وقعها في السمع وموضعها في القلب .

فينبغي ان يكون الأدب شعبيـاً يفهمه ذو الثقـافة الممتازة وذو الثقافة المتوسطة وذو الثقافة الضئيلة ولا ينسون إلا شيئاً واحداً هو ان الأدب فن رفيع . والفن الرفيع لا ينزل ، وانما يرقى اليه طلابه ومحبوه . وليس الادباء مكلفين ان يعلّموا الناس ويبلغوا بهم من التعلم والثقافـة إلى حيث يستطيعون ان يذوقوا الآداب الرفيعة والفنون

الجميلة . وانما يطلب ذلك إلى الذين يقومون على شؤون التربية وامور التعليم . وكل ما يُطلب الى الأديب ألا يكون أدبه ممعناً في الغرابة متعمداً للغموض ، وألا يؤدى في ألفاظ واساليب لا تعيش في هذه الايام ، وانما كانت تعيش في العصور القديمة البعيدة العهد . فلا ينبغي لمن يكتب الآن ان يتكلف مذهب ابن المقفع ، او طريق الجاحظ او اسلوب الحريري والبديع الهمذاني ، ولا ينبغي له ان يرهق الناس من امرهم عسراً فيفرض عليهم الرجوع إلى المعاجم في كل سطر .

فالجمال لا يكون في غرابة اللفظ وخشونته ، ولا في خفاء المعنى وغموضه ، ولا في التواء الاسلوب وتعقده ، وانما الجمال شيء آخر يناقض هذه الخصال كل المناقضة ويخالفها أشد الخلاف . ولا على الأديب اذا أدى ادبه في هذه اللغة اليسيرة في غير ابتذال ، السهلة في غير اسفاف ، الرصينة في غير اغراب .. لا على الاديب ألا يفهمه الذين لم تكمل اداتهم من المعرفة ، ولم يعظم حظهم من الثقافة ، وانما على هؤلاء أن يكملوا معرفتهم ويعظموا حظوظهم من الثقافة . شأنهم في ذلك شأن ذلك الذي قال لأبي تمام ذات يوم : لِمَ لا تقول ما يُفهم ؟ فأجابه ابو تمام : ولِمَ لا تفهم ما يقال ؟

ولا تعاب الصورة الرائعة لأن غير المبصرين لا يرونها ، ولا تعاب الموسيقى الممتازة لأن الذين فقدوا السمع

لا يسمعونها . فكيف بالذين يتعمدون ألا ينظروا ويتعمدون ألا يصغوا ، ويريدون ان يلقى جمال الفن في أذواقهم وقلوبهم إلقاء دون ان يتكلفوا الاستمتاع به ؟

ويزعمون ان أدب الثورة لم يوجد بعد مع ان الثورة قد شبت منذ اكثر من عام ، كأن الأدب شيء يكفي ان يقال له كن فيكون . او يقال له تغير فيتغير بعد يوم وليلة . انما تغير الثورة أول ما تغير نظام الحكم وأوضاع الحياة العامة ، وما يحتمل التغيير من الصلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بين الناس . فأما الطبائع والنفوس والاذواق والعقول فيحتاج تغييرها إلى وقت طويل جداً لا يحصى بالعام وبعض العام ، وانما يحصى بالاعوام الطويلة المتتابعة . والذين يقولون هذا الكلام ينسون او يجهلون ان الادب يمهد للثورة وينشئها ويشب جذوتها في النفوس بما يلقي في قلوب الناس من الآراء الجديدة ، وبما يصور لعقولهم من القيم المستحدثة ، وحين ينقل أذواقهم من طور إلى طور ، وحين يبغض اليهم القديم من اوضاعهم الاجتماعية ويدفعهم إلى تغيير هذه الاوضاع . فاذا شبت الثورة كان شبوبها دليلاً على ان الادب قد ادرك النجح وظفر ببعض غاياته . ثم تعمل الثورة بعد ذلك في الادب عملاً بطيئاً مستأنياً متصلاً ، فتغيره بعد حين يقصر او يطول . ويكفي ان نذكر ان الاسلام لم يغير الشعر العربي الجاهلي تغييراً خطيراً إلا بعد ظهوره بنصف قرن ، وان الثورة العباسية كانت

نتيجة الادب الاموي ولم تنشيء أدبها العباسي الخالص إلا بعد اكثر من نصف قرن .

وقل مثل ذلك في الثورة الفرنسية .. مهد لهـا ادب القرن الثامن عشر ، ولم تنشيء ادبها إلا في اواسط القرن التاسع عشر . وقل مثل ذلك فيما شئت من الثورات ، فالذين كانوا ينظرون ان يصبحوا في الخامس والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ وبين ايديهم أدب جديد يلائم الثـورة ويطابقها يخطئون أشد الخطأ واشنعه . وحسبُ الادب ان ينظر فاذا الثورة تلائمه كل الملاءمة وتطابق ما كان يصور للناس من المثل العليا في الحياة العامة على اختلاف فروعها . انما الادباء قوم يحلمون ، والثورة تعبير وتفسير لاحلامهم . وستبعث الثورة في نفوس الادباء احلاماً اخرى اجمل من احلامهم الاولى ، وستعبّرها الثورة وتفسرها بما تحدث من تطور وما تبدع من نظام .

كذلك تمضي حياة الناس ، لا سبيل إلى تغيير اسلوبها ولا إلى تغيير ما رسمت الطبيعة لهـا من طريق . فالذين يذكرون قدم الادب وغرابته في البيئة الحديثة ، والذين يذكرون صعوبة الادب وارتفاعه على الطبقات القارئة ، والذين يعيبون الادب بأن الثورة لم تنشئه ، انما يقولون بغير تدبر ويرسلون احكامهم في غير روية ولا اناة ولا تعمق لحقائق الاشياء . وحقائق الاشياء تدل في غير غموض ولا التباس على ان الحياة الإنسانية الحديثة قد اثارت للأدب

الانساني كله على اختلاف مواطنه وبيئته مشكلات كثيرة صورنا بعضها آنفاً وما يزال بعضها الآخر في حاجة إلى التصوير . والأدب يشقى بهـذه المشكلات في كل مكان ويلتمس لها الحلول . ونشعر نحن بهذه المشكلات اكثر مما يشعر بها غيرنا من الاوروبيين والاميركيين لأن أدبنا الحديث ما زال في شبابه ، وقد طرأت له هذه المشكلات قبل ان يمكّن له في الارض ، ولأن قراءنا قلة ، ولأن مصاعب الطبع والنشر ومشكلات السينما والراديو وما يشبهها من الملهيات والمغريات أيسر من الأدب تحصيلاً واقرب منه منالا .

فلا تقل ان الادب الحديث ضعيف ، ولا تقل إنه غريب قد نبت به الدار . ولا تقل انه غير ملائم لطبيعة الذين يقرأونه .. ولكن قل انه ممتحن بطائفة من المشكلات اكثرها مشترك بينه وبين الآداب الاخرى ، وبعضها الآخر عارض لا يلبث ان يزول حين تصلح الحياة الاقتصادية وينشر التعليم وتصل المعرفة والثقافة إلى أعماق الشعب .

اذا قلت هذا لم تعدُ الحق ولم تتجاوز الصواب .

الأدب والحياة

●

أريد ان اعتذر الى اصحاب الجد من قرائنا ، وهم والحمد لله ما زالوا كثيرين ، وانما اعتـــذر اليهم من اني سأبدأ هذا الحديث بأشياء يرونها وأراها أوضح من ان تجري فيها الأحاديث لأنها بديهية مقررة قد اتفق الناس عليها واطمأنوا اليها منذ اقدم العهود . ولكن ماذا اصنع وما يصنع غيري من اصحاب الجد ، اذا اقتضت ظروف الحياة الادبية ان نستأنف الحديث في بعض الاوليات التي كنا نظن ان الانسانية قد فرغت منها .

واول ما أبدأ به من هذه البديهات هو هذا السؤال : لماذا ينتج الاديب شاعراً كان او ناثراً ؟

اما اصحاب الاصالة في الادب ، فليس عنــدهم على

هذا السؤال إلا جواب واحد وهو ان الاديب انما ينتج لأن طبيعته تقتضيه الانتاج ، ولأن البيئة من حوله تقتضيه الانتاج ايضاً ، او لأن الله قد خلق الجماعة الانسانية وفيها طائفة من الظواهر الاجتماعية ، ومن هذه الظواهر ان ينتج الأدباء ويسمع الناس او يقرأوا .

ولسنا نعرف بيئة انسانية ، بادية او متحضرة ، متقدمة في الحضارة أو مقصرة فيها ، إلا ولها لون من الأدب يلائم طاقة ادبائها للانتاج ، وطاقة اعضائها الآخرين للقراءة أو الاستماع . ومن اجل ذلك رأينا اهل البادية من العرب قبل ان يمسهم جناح من الحضارة يحفلون بما أتيح لهم في حياتهم تلك من الأدب . يقول شاعر القبيلة ، ويسمع له سائرها ، ويحفظ كثير منهم عنه بعض ما يقول او كل ما يقول . وقد يشيعونه من حولهم في حياتهم تلك المتنقلة ، فيتجاوز شعر الشاعر قبيلته الى قبائل اخرى . ويتفاوت شعر الشعراء في شيوع شعرهم وانتشاره ، وما ينشأ عن ذلك لأصحابه من الشهرة وبُعد الصوت .

وقد تغيرت اطوار تلك الامة البادية ، فتحضرت قليلاً او كثيراً ، ولكنها لم تنس شعرها القديم من جهة ، ولم تكتف به من جهة اخرى ، وانما حفظته ، واضافت اليه وانشأت شعراً متحضراً يشبه او لا يشبه ما حفظت من شعرها القديم .

ثم اغرقت في الحضارة ، وفرضت لغتها ودينها وأدبها

على امم اخرى ، وانشأت لوناً جديداً من الحضارة لم تألفه في عهودها الأولى ولم تعرفه الامم الاخرى قبل ان تخضع للسلطان الجديد . وهي في هذا الطور من حياتها لم تنس أدبها ، ولم تعرض عنه ولم تكتف به ، وانما حفظته واضافت اليه ايضاً ، ثم ادركها شيء من الخمول بعد النباهة ، ومن الضعف بعد القوة ، ومن التفرق بعد الاجتماع ، ومن الخضوع بعد التسلط ، فلم تنس قديمها في الادب ، وانما حفظته وحاولت موفقة او غير موفقة ان تزيد فيه وتضيف اليه . لا تعرف انها اهملت الادب او اعرضت عنه ، او زهدت فيه ، على اختلاف العصور وعلى اختلاف الاطوار وعلى تتابع المحن وازدحام الخطوب حتى صارت الى ما هي عليه الآن ، وحتى اصبح ادبها اطول الآداب الحية عمراً ، واشدها بقاء ، واقدرها على مقاومة الكوارث والاحداث .

كل هذه الحقائق اولية يعرفها المثقفون جميعاً وتدرّس للشباب في مدارسهم ومعاهدهم ، ولكني سأنتقل من هذا السؤال وجوابه الى سؤال آخر ليس اقل غرابة من السؤال الأول وليس الجواب عليه اقلّ اغراقاً في البداهة من الجواب على السؤال الأول : فيمَ كان قدماء شعراء العرب يقولون الشعر ؟ وفيمَ كانوا يخطبون ؟ وفيمَ كانوا يكتبون ؟ واصحاب الاصالة في الادب يجيبونك بأنهم كانوا ينشئون الادب في ما كانت طبيعة حياتهم تقتضيه من فنون القول .

كانوا يتغنون الرضى اذا رضوا ، ويتغنون السخط اذا سخطوا . يتغنون الحزن إن أصابهم الحزن ، والسرور ان اتيح لهم السرور . كانوا يصورون ما كانوا يجدون من ألوان الحس والعواطف والشعور ، وكانوا يحبون ما يعرض عليهم ادباؤهم من هذه الصور ، فيتحدثون بحبهم لها ورضاهم عنها ، وكانوا يكرهون بعض ما يعرض عليهم ادباؤهم من هذه الصور ، فينصرفون عنها ويسخطون عليها ويتحدثون عن هذا السخط وذلك الانصراف ، فهم قد عرفوا الأدب ونقد الأدب في جميع عصورهم منذ عرفهم التاريخ الى الآن ، وهم ليسوا بدعاً في ذلك من الامم الاخرى لأن الأدب ليس ظاهرة عربية فحسب ، وانما هو ظاهرة انسانية ، ولأن النقد كذلك ليس ظاهرة عربية فحسب ، وانما هو ظاهرة انسانية ايضاً .

وما دمت تحرص على ان تسمع او تقرأ ما ينتج الادباء ، وما دمت تتحدث عما سمعت او قرأت حديث الراضي او حديث الساخط ، فأنت معنيّ بالادب ناقد له على نحو ما من العناية وعلى نحو ما من النقد .

الادب انساني اذن ، والنقد انساني ايضاً ، والادب يصور حياة الناس والنقد يبن ملاءمة هذا الأدب لأذواقهم او مخالفته لها . واذن فلا يكون ادباً حتى يصور حياة الناس ، وليس في الارض ادب إلا وهو يصور حياة اصحابه .

ومن هنا كان الادب مصدراً من مصادر التـــاريـخ

الانساني ، وعسى ان يكون بالقيـــاس الى بعض الامم ، او بالقياس الى بعض اطوار هذه الامم ، اخطر مصادر التاريـخ .

ولأمر ما قال قدماؤنا ان الشعر الجاهلي ديوان العرب ، لانهم لم يكادوا يعرفون شيئاً من امر هؤلاء الجاهليين الا من طريق هذا الشعر . ومن المحقق ان الشعر الاسلامي ديوان العرب في القرن الاول للهجرة ، وانك اذا اعتمدت على المصادر التاريخية وحدها ، اضعت اشياء خطيرة جداً من حياة المسلمين في ذلك العصر . واكاد اعتقد ان الامر كذلك بالقياس الى حياة الامة العربية على اختلاف عصورها وأطوارها وبيئاتها . وأكاد اعتقد كذلك ان شأن الامم الاخرى في هذا ، كشأن الامة العربية . فالأدب يصور حياة النفوس والقلوب والاذواق على نحو لا يستطيـع التاريخ ان يصوره ، ولا ان يسجله ولا ان ينقله الينا نقلاً صحيحاً دقيقاً .

واذن فالذين يقولون يجب ان يكون الادب للحياة ، ويظنون انهم يقولون شيئاً جديداً ، لا يقولون في حقيقة الامر شيئاً ، ويخطئون حين يظنون انهم يبتكرون شيئـاً لم يألفه الناس منذ اقدم العصور ، فكل ادب في اي امة من الامم انما هو يصور نوعاً من انواع حياتها ، ولونـاً من ألوان شعورها وذوقها وتفكيرها وانعكاس صور الحياة في نفوسها . واكبر الظن ان الذين يقولون يجب ان يكون

الادب للحياة انما يريدون شيئاً يحسونه في اعماق نفوسهم ولكن عقولهم قد لا تحققه .

فاذا ارادوا ان يعبروا عنه اخطأهم التعبير ، وعسى ان يحققوا في نفوسهم اشياء ثم تمنعهم ظروف الحياة على اختلافها من ان يعربوا عنها في إفصاح ويصوروها في جلاء ووضوح .

فقد طرأت في الحياة الانسانية الحديثة ظواهر جديدة لعلها لم تطرأ للامم قبل هذا العصر الحديث . وامس هذه الظواهر بالادب انتشار المعرفة وتغلغل الثقافة في طبقات من شعوب لم تكن تصل اليهـا قبل ان تتقرر حقوق الشعوب وقبل ان تستمتع الشعوب بهذه الحقوق استمتاعاً واقعاً .

فكان الادب يتجه الى الطبقات المثقفة ولا تصل منه الى الطبقـات التي لم تدركها الثقافة إلا اصداء غامضة لا تبلغ اعماق نفوسها فضلاً عن ان تستقر فيها . فأما الآن فقد تقررت سيادة الشعوب وتقرر حقها في ان يأخـذ افرادها على اختلافهم بما يتـاح لهم من حظ في المعرفة والثقافة ، واصبح الادب مكلفاً ان يبلغ هذه الطبقات التي لم يكن يبلغها من قبل . اصبح مكلفاً ان يبلغها مرتين ، يبلغها اولاً لينقل صور حياتها الى الاديب ، ويبلغها ثانياً ليرد اليها هذه الصور ، وقد صاغها الاديب في فنه وأضفى عليها ما يقتضيه الفن من الجمال الذي يحبب الخير ويرغب

فيه ويبغض ويصد عنه .

والأمر بعد ذلك في حــاجة الى كثير من التــأني والتحقيق . فالادب في اي امة من الامم انما نشأ شعبياً ثم تطور بمقتضى الحضارة حتّى ضاقت ميادينه وانقطعت او كادت تنقطع الصلة بينه وبين طبقات الشعب الّتي لم يتح لها التعليم .

فالشاعر العربـي في الجاهلية وفي القرن الأول للهجرة لم يكن يقول الشعر لطبقة بعينها من النـــاس وانما كان يقوله لكل الذين كانوا يستطيعون ان يفهموه ويذوقوه . وكانت بيئته كلها تستطيع أن تفهم الشعر وتذوقه . والمحقق ان زهيراً مثلاً لم يقل شعره لتفهمه طبقة بعينها من قبيلته ، وانما قاله ليفهمه كل من سمعه من العرب ويذوقـــه ، لا فرق في ذلك بين القوي والضعيف ولا بين الغني والفقير ولا بين سادة القبيلة وسائر افرادهـــا . ثم لم يكد شعره ينشد حتّى فهمته قبيلته وفهمه غير قبيلته من العرب الذين كانوا يعيشون في نجد والحجاز وغيرهما من الاقاليم الّتي كان اهلها يتكلمون لغة زهير .

وقـــل مثل ذلك بالقياس الى الشعراء الجاهليين جميعاً وبالقياس الى الشعراء الإسلاميين ايضاً . شعر زهير وامرىء القيس والنابغة والاعشى وشعر جرير والفرزدق والاخطل كان شعراً يصور الحياة العربية كما كان اصحابها يحيونها ، لأن الاغنياء والفقراء والاقوياء والضعفاء كانوا يتكلمون لغة

واحدة ، وكانت حظوظهم من المعرفة والثقافة واحدة او متقاربة أشد التقارب وأقواه .

وإذا شق علينا نحن ان نفهم هذا الادب ونذوقه الا إذا هيــأنا انفسنا لذلك تهيئة خاصة بالدرس والجهــد والتحصيل ، فليس هذا لأن هذا الادب لا يصور حياة اصحابه بل لأنه لا يصور حياتنا نحن ولا يشتق منها . وقل مثل هذا في شعر الشعراء القدماء من اليونان : لم يكن يقال لطبقة بعينها وانما كان يقال للبيئـــة التي عاش فيها الشعراء .. فلما تحضر اليونان وتعقدت حياتهم اصبــح شعر اولئك الشعراء بالقياس اليهم كشعر الجاهليين والإسلاميين بالقياس الينا .

والمهم هو ان الاديب لا ينشىء ادبه لفرد من الناس ، ولا لجماعة محدودة منهم ، وانما ينشئه لبيئته التي يعيش فيها ولهذه البيئة كلها ، وهو واثق بأن أدبه سيفهم ويذاق . ولم يكن العرب الجاهليون جميعاً اغنياء ولا أقوياء ، وانما كانوا كغيرهم من الشعوب فيهم من يتاح له الثراء ومن يقضي عليه الضيق ..

وقل مثل ذلك في العرب الإسلاميين . والخطأ كل الخطأ ان يظن ظان ان الشعراء حــين كانوا يمدحون السادة ، واصحاب الثراء ، انما كانوا يقولون الشعر لهم وحدهم . ولو كان الامر كذلك ما احتفل ممدوح بمدح قط . ولو كان الأمر كذلك ايضاً ما عُني الناس بهذا المدح بعد الموت

الممدوحين وبعد العهد بهم فلم تكن عنايــة زهير بهرم بن سنان مقصورة عليه دون غيره من عامة العرب ، وانمــا مدح زهيرٌ صاحبه ذاك ليأخذ عطاءه من جهة ، وليعجب الناس بشعره من جهة اخرى ، وعسى ان يكون حرصه على اعجاب الناس بشعره اشد من حرصه على الظفر بعطاء الممدوح . ولأمر ما قال بعض ولد زهير : ان ما نــال زهير من ممدوحه ذاك قد فني وأدركه البلى ، ولكن شعر زهير فيه لم يفنَ ولا سبيل الى ان يدركه الفناء .

ولقد انقضت الألعاب الأولمبية اليونانية وانقضى المستبقون فيها من السادة والطغاة منذ قرون طويلة جداً ، ولكننــا ما زلنــا نقرأ شعر بندار ونعجب بــه ونحرص عليه الى الآن . وليس كل الناس يستطيعون ان يقرأوا هذا الشعر كما انهم جميعاً لا يستطيعون ان يقرأوا شعر زهير قراءة الفاهم الذائق ، وانما يتــاح ذلك لمن هيــأ نفسه للقراءة والفهم والذوق .

فلا تقل ان الأديب القديم لم يكن يصور الحياة بل قل انه لم يصبح مصوراً لحياتنــا نحن ، هنا تأتي المشكلة التي يتورط فيها كثير جــداً من دعاة الأدب الجديد عندنــا في هذه الايام . فهم يعيبون الادب القــديم جملة بأنه كان أدباً بعيداً عن الحياة وبأنه كان ادب ملوك وبأنــه كان ادب اقطاع ، وينبغي اذن ان نعرض عنه الاعراض كله، وان نمقته اشد المقت وننفر منــه اعظم النفور ، وننشىء

لأنفسنا ادباً يلائم الحياة . والحياة هنا هي حياتنا نحن هذه التي نحياها في هذه الأيام . ولو حقق هؤلاء الكتــاب في عقولهم هذا الذي يدعون لأنكروه اشد الانكار ولبرّأوا انفسهم منه اقوى التبرئة وأعنفها فهم انما يدعون الى شيء يسير جداً هو ان نلغي القديم كله الغاء ، ونجتث الانسانية من اصولها ، وننشيء انسانية جديدة تقوم على هذه الحياة التي تحياها الشعوب الآن .

وما اعرف ان احداً من هؤلاء السادة يريــد ان يلغي الأدب القديم حقاً لأن بعضه انشيء للملوك ولأصحــاب الاقطاع ، فهم أعقل عقلاً وأحصف رأياً وأحسن تقديراً للأمور ورعايةً لحقوق الثقافة من ان يريدوا مثل هــذا او يدعوا اليه . ولست اعرف ادباً انشيء للملوك ولا قُصر عليهم ، وانما اعرف ان الملوك واصحــاب الثراء اتخذوا وسائل لانتاج الادب في بعض الظروف .

وأؤكد لك اني حين اقرأ قول الشاعر القديم للرشيد :

وعلى عدوك يا ابن عم محمــد
رَصَدان ضوءُ الصبح والاظلامُ
فاذا تنبه رُعتَهُ واذا غفــا
سلّت عليه سيوفَك الاحــلام

لا اكاد اقف عند الرشيد ولا عند اخافته للعدو نياماً وأيقاظاً ، وانما الذي يعنيني قبل كل شيء هو ان هــذا الشعر جيد يروع بما فيه من تصوير مــا ينبغي ان يكون

عليه الملك اليقظ الحازم الذي يحرص على رعايـــة الدولة وحوطها ، لا من غارة العدو فحسب ، بل من طمعـــه في الغارة عليها .

وليس يعنيني ان يكون الرشيد قد كان كما وصفـــه الشاعر او لم يكن ، وانما الـــذي يعنيني هو هذا المثل الأعلى الذي رسمه الشاعر للذين يقومون على شؤون الأمم وينهضون بأعباء السلطان فيها ، سواء أكانوا ملوكـــاً ام خلفاء ام رؤساء جمهوريات .

واذا كان هذا كله لا يعنيني فأجدر الا احفـــل بأن هذا الشاعر قد صدق او كذب . فقد ذهب الشاعر وذهب ممدوحه وذهب عصره وذهب مع هذا كلـه صدق الشاعر او كذبه ، وبقي الشعر صادقاً اروع ما يكون الصـــدق في تصوير المثل الأعلى لرؤساء الـــدول حين يذودون عن دولهم .

ومثل هذا يقال في المدح الجيد الذي ساقه الشعراء الى الملوك وأصحاب الثراء . ليس المهم ان يصدق الشعراء او يكذبوا بالقياس الى الذين يمدحونهم ويثنون عليهم وانمـــا المهم ان يصدق الشعراء في تصوير المثل العليا فيما ينشئون من مدح وثناء ، لأن المادحين والممدوحين يذهبون وتبلى اشخاصهم ولكن المثل العليا التي يصـــدقون في تصويرها تبقى للناس ما بقي الناس .

وهذا هو معنى ما يقال من ان الأدب الصحيح الجدير

بهذا الإسم خالد مهما يصب اصحابه وبيئاتهم من الخطوب واحداث الزمان . وهذا هو السر في ان التراث الأدبي والفني عزيز على الانسانية المثقفة لانه يصور لها الجمال ، والجمال خالد لا يدركه الفناء .

وما اظن هؤلاء السادة يريدون ان يلغوا من ادب شكسبير ما مدح فيه الملوك والاشراف ، لأن عهد الملوك والاشراف قد انقضى . وما احسبهم يريدون ان يلغوا آثار اصحاب الفن الخالدين من اصحاب التصوير والنقش والعمارة ، لأن هذه الآثار قد انشئت لملك او امير او شريف من اصحاب الاقطاع .

فقد ذهب هؤلاء جميعاً ، وذهب معهم الذين انشأوا لهم هذه الآثار ، وبقيت هذه الآثار تراثاً خالداً ، نحوطه كلنا بما نملك من القوى والجهود ويحرض عليه منا الذين يحبون القديم والذين يدعون الى التجديد .

والتراث المصري القديم كله على اختلافه فناً كان او ادباً ، قد انشىء للملوك ، او انشىء في ظل الملوك ، او انشىء في حياة شديدة التأثر بالملوك واصحاب الاقطاع ، وما اعرف ان احداً منا يريد ان يلغي هذا التراث او يعرض عنه او يزهد الناس فيه ..

فالقضية اذن توضع وضعاً خاطئاً من اساسها . فهؤلاء السادة لا يكرهون القديم لأنه قديم ، وهم لا يكرهونه لأنه انشىء للملوك واصحاب الاقطاع ، ولكنهم يرون

حياتنا قد اخذت تتغير وتسلك سبيلها المستقيمة جادّة الى الخير والاصلاح .

وهم يرون كذلك ان اليقظة قد اخذت تبلغ نفوس الشعب وتتغلغل حتّى تصل الى اعماقه ، وهم من اجل هذا كله يريدون ان يكون ما ينشأ من الأدب مصوراً لحياة الشعب وآماله وآلامه وحاجاته وغاياته ايضاً ..

يريدون هذا كله ولا يريدون ان ينقصوا من قيمة الادب القديم شيئاً ، ولكن ألسنتهم تجمح وأقلامهم تجور عن القصد . وهم يرون الناس يكرهون الملوك لسوء آثار الملوك فيهم ولأن الثورة قد طردت ملكاً ؛ فلا يجدون بأساً في ان ينتفعوا بهذه الظروف ليروجوا لدعوتهم ، ويزيدوها الى الناس قرباً والى قلوبهم حباً . وكثير منهم يخيل الى نفسه انه يرضي الثورة بذلك ، ويتقرب الى رجالها ، ولكنهم في حاجة شديدة الى الانصاف وأخذ النفس بشيء من الاعتدال .

فالباطل لا يرضي احداً والحق لا يغضب الرجل الرشيد، وما أحسبهم يستطيعون ان يصارحوا الثورة بأن الأدب القديم شر يجب ان يزول ، وفساد يجب ان يلغى ، واثم يجب ان تمحى آثاره . وبأن اول مما يجب من ذلك ان يترك القديم لقدمه ، وان نحرق الكتب التي سجلته ونحظر درسه في المدارس والمعاهد ونعاقب الناس على التحدث به او التحدث عنه لأنه انشيء للملوك واصحاب الاقطاع ، او

انشيء في ظلهم ، وقد ألغينا الملكية وألغينا الاقطاع ، فيجب ان نلغي كل شيء انشيء في ظلها .

هذا كلام يمكن ان يقال ، وما اكثر الكلام الذي يقال ، ولكن الشيء المحقق ان احداً لن يسمع له ، ولن يحفل به ، ولن يلتفت اليه ، ولن يوجد المعول الذي يعمل في هدم الأهرام او في هدم مسجد من المساجد التي أنشأها الملوك واصحاب الاقطاع ، ولن توجد النار التي تضرم لتحريق ديوان من دواوين الشعر او كتاب من كتب النثر .

ولو قد تحدث احد هؤلاء السادة الى رجل من رجال الثورة في شيء من ذلك او في شيء يشبه ذلك من قريب او بعيد لما رأى منه الا ازدراءً ولما سمع منه الا زجراً وانتهاراً ، وما اعرف شيئاً يسوء الثورة والقائمين عليها اكثر من هذا الكلام الذي يقال في غير تفكير ولا قصد ولا تدبر من قائليه .

فليقولوا ولنقل معهم ان حياة جديدة قد اخذت تجري في شعب مصر وان الأدب الجديد يجب ان يكون ملائماً لهذه الحياة ، يصور حقائقها الواقعة ، ويوجهها الى ما ينبغي ان تتجه اليه ويبصّر الناس بما يضرهم ليتجنبوه وبما ينقصهم ليسعوا اليه .

ونحن حين نقول هذا نرضي انفسنا ونرضي شعورنا بالحاجة الى التجديد ، ولكن المحقق ان الادب ليس في

حاجة الى هذا القول فهو بطبعه ملائم للبيئة التي ينشأ فيها، وما أظن أن أديباً من الادباء المعاصرين يخطر له ان يمدح الآن ملكاً او يثني على اقطاع .

اما بعد فقد خلق الأدب للحياة ، وعاش للحياة دائماً، ولاءم البيئات التي كان ينشأ فيها على اختــلاف العصور والظروف ، ولن يكون الأدب الجديد عندنا بدعاً مــن آداب الدنيا كلها .

فليرح هؤلاء السادة انفسهم وليوجهوا جهودهم الى ما ينفع الناس ويجدي عليهم ، والى مــا يغني هذا الأدب الجديد ويضيف اليه ثراء جديداً ، ولينقلوا الخصومــة من الأدب نفسه الى صورة الأدب ، فما عسى ان يكون الأدب الذي يريدون ان ينشأ في حياتنا الجديـدة وان يوجــه الى الناس ؟ أيكتب في لغة رثة وأساليب غثة ولهجة تشبــه لهجات الاحاديث التي تجري في الشوارع والقهوات والأندية؟ ام يريدون ان يكون الأدب كما عرفته الانسانية دائماً فناً جميلاً يساق الى الناس في زي جميل ؟

هذه هي المسألة التي ينبغي ان يدور حولها الحديث ، وانه لحديث طويل .

الأدب والحياة ايضاً

•

وكـــذلك غضب الغاضبون ، وثار الثائرون ، وتساءل المتسائلون . منهم من اعلن ذلك في الفصول الطوال والقصار ، ومنهم من استخفى بذلك يتحدث به الى الرفيق والصديق ، ومنهم مـــن كتب الي في بعض ذلك الكتب ومـــن سألني عن بعض ذلك في التلفون ، وهذا كله ليس شيئاً يسيراً مما أردت اليه حين تحدثت عن الادب والحياة ، فقد اردت الى ان يستيقظ النائم ويتنبه الغافـــل ويخرج الهادىء من هدوئه ويُزعج المطمئن الراضى عن اطمئنانـــه ورضاه .. فما أعرف شيئاً اضر بالحياة العقلية وأدفع لها الى البـــلادة والجدب من هذا الذي كاد شبابنـــا وشيوخنـــا من الادباء والمثقفين يتورطون فيـــه من الجمود والخمود والركود ،

والرضى بما كان ، والاطمئنان الى ما هو كائن ، والاستخفاف بما يمكن ان يكون ..

وقد تعودت دائماً ان أؤثر سخط العقول على رضاها، وأن احب لها القلق وأكره لها ما يمكن ان تضطر اليه من هذا الأمن المخيف الذي ينتهي بها الى الفتور وايثار الدعة والاطمئنان الذي يحبب الراحة ويغريها بالكسل ويزين لهـا الاستسلام والتسليم ايضاً ..

وما اعرف اني رضيت عن شيء منذ سنين كما رضيت في هـذا الاسبوع عن بعض الأحاديث التي انتهت اليّ بالتلفون ، والأسئلة التي وصلت إليّ في الرسائل ، والأسئلة التي وجهت اليّ في الصحف وفي « الجمهورية » خاصة.. فكل هذا إن دلّ على شيء فانما يدل على ان في حياتنا العقلية شيئاً من امل لم يفتر بعد ولا ينبغي ان يدركه الفتور.

كان هذا بعض ما اردت اليه لا كل ما اردت اليه . فاني لا أقنع بالأمل ولا أكتفي بالرجاء ، فالآمال تكذب وتصدق والرجاء ينجح ويخيب ، وانما اريد ان ينتهي الأمل الى عمل ، وان يؤدي الرجاء الى الجهد والعناء ، والى الجد والكد ، والى تجديد الأدب بالمعنى الدقيق الصحيح لهـذه الكلمة ، بالمعنى الذي لا يقوم على ارسال الاحكام الغامضة واطلاق الكلام الذي لا محصول له ولا تحقيق فيه .

وأحب ان يطمئن الأساتذة الذين يضعون انفسهم موضع الريبة ويظنون اني اردتهم او اردت بعضهم حين كتبت

ما كتبت ، فاني لم اتحدث عن كاتب بعينه ، ولم افكر في هذا الكاتب او ذاك ، وانما اردت الى هذه النزعة المبهمة العامة التي اخذت تظهر وتشيع منذ حين والتي تدعو الى اشياء لا تحققها ولا تعرف لها حدوداً ، وانما تصور شعوراً غامضاً بالضيق وطموحاً غامضاً الى شيء من السعة والاسماح . فتتعجل وتقضي قبل ان تحقق ، وتقطع في الأمور قبل ان تستبين حقائقها وتدعو فيما تدعو اليه الى ان يكون الأدب في سبيل الحياة دون ان تحقق معنى هذا الكلام . فالأدب ليس وسيلة ولا ينبغي ان يكون وسيلة ، والأديب لا ينشىء ادبه ليحقق هذا الغرض او ذاك ولا ليبلغ هذه الغاية او تلك ، وانما الأدب غاية في نفسه والأديب يكتب لأنه لا يستطيع إلا ان يكتب ..

فأما ان يسخّر الأدب فيكون وسيلة من وسائل الاصلاح او سبيلاً من سبل التغيير في حياة الشعوب ، فهذا تفكير لا ينبغي ان نساق اليه ولا ان نتورط فيه . وليس معنى هذا ان الأدب بطبعه عقيم وأن الأدب أثر بطبعه ولكن معناه ان الاصلاح والتغيير وتحسين حال الشعوب وترقية شؤون الانسانية اشياء تصدر عن الأدب صدوراً طبيعياً كما يصدر الضوء عن الشمس وكما يصدر العبير عن الزهرة وكما تثير الروضة في نفسك ما تثير من الشعور بالجمال . فضوء الشمس لا يصدر عنها لتحقيق الاغراض وبلوغ الغايات التي

تحققها انت وتبلغها به . وانما يصدر عنها بطبيعته وتنتفع انت به وتستمتع به ايضاً وتحقق به اغراضك وتبلغ به غاياتك وتوجهه من هذا كله الى ما تريد والى ما تستطيع لأنك تجده يغمرك ويتاح لك ، ويُهديك ويتيح لك ما تجد فيه من النفع .

والزهرة لا تنشر عرفها وشذاها لتتملق منك هذا الحس الذي رُكّب في غريزتك .

وهي لا تتألق بجمالها ونضرتها ورواثها وبهجتها لتتملق فيك حساً آخر ركّب في طبيعتك .

بل هي لا تعرفك وعسى الا تعرف نفسها ، فهي اجدر ألا تريد لنفسها عطراً او جمالاً او رواء فضلاً عن ان تريدك بهذا كله او بعضه .

وقل مثل ذلك في اشياء كثيرة في هذه الطبيعة يخيل غرور الانسان للانسان ، وحرص الانسان على منفعته ، وتهالكه على ما يرضيه واشفاقه مما يسوؤه انها تؤدي اليه ما تؤدي خدمةً له وارضاءً لحاجاته وتحقيقاً لمنافعه .

مع انها تجهله كل الجهل ، وما ارى انه سيتاح لها في يوم من الأيام ان تعرفه او تفرض له وجوداً .

وماذا تريد من الانسان الذي استقر في نفسه على اتصال القرون وتعاقب الاجيال انه سيد ، وانه لا بد له من مسود ؟

وان اغراضه وغاياته ومنافعه ينبغي ان يذلّل لها الكون. واذا كان هذا رأيه في الطبيعة ، واذا كان استغلاله للطبيعة قد خيل له انه سيدها ومالكها وانها خادمته بل أمتـــه ، يتصرف فيها كما يتصرف السيد المالك ، وأتاح له عقله بما اهتدى اليه من استكشاف واستغـلال لبعض موارد الطبيعـة ان يزداد امعاناً في هــذا الغرور وان يفتن بنفسه فتوناً لا حد له حتى يلقي في روعه انه يستطيع بعد ان اتيـــح له استغلال الطبيعة ان يستغل الانسان ايضاً ويسخره لأغراضه وغاياته ما صلح منها وما لم يصلح ، ما كان منها مستقيماً ، وما كان منها معوجاً شديد الاعوجاج .. ورحم الله ابـــا العلاء الذي انفق حياته يدعو الأنسان الى شيء من التواضع والقصد .. ويذكّره ، ان نفعته الذكرى ، بأن الطبيعـــة ليست ملكه وبأنه ليس فيها الا شيئاً ضئيلاً .. بل يذكره بأن النحل لا تنتج العسل ولا تفكّر فيه حين تنتج العسل. وانما تنتجه لنفسها ولأنها لا تجد من انتاجه بداً .

غرور الانسان وامتلاؤه بنفسه واعتداده بقوته خيل اليه ان لكل شيء غاية انسانية يجب ان يبلغها الانسان .

ثم لم يلبث هذا الخيال ان اصبح في نفسه حقيقة وان ملأه اعجاباً وتيهاً ..

فسخّر من حياته هو كل شيء لتحقيق اغراضه وارضاء حاجاته كما سخر الطبيعة لارضاء هذه الحاجات وتحقيق تلك الأغراض . فلا قيمة للأدب الا ان حقق نفعاً ، ولا قيمة

للعلم إلا ان ارضى حاجة . ثم تجاوز الغرور به كل طور فظن ان النفع والغاية يجب ان يكونا في تيسير شؤونه المادية وتطويع حياته التي يحياها كل يوم ، فالأدب يجب ان يُقصد به الى الاصلاح والى الترقية والى تغيير حياة الناس ونقلها من طور الى طور .

والعلم يجب ان ينتهي الى الانتاج المادي الذي يخرج ما في هذا العالم من ثمرات تجعل العيش يسراً وثيراً . لكل شيء ثمن وثمن مادي يجب ان تأخذه الأيدي وان تتناوله الأفواه وان تحتويه الجيوب . هذه قيم اقل ما يمكن ان يقال فيها انها وليدة الغرور وسوء التحقيق للأشياء ، وانها تنتهي بالانسان الى مادية منكرة توشك آخر الأمر ان تجعله اداة انتاج لا اكثر ولا اقل .

وكذلك يجب على الأديب ان ينشىء من الادب ما يذلل الحياة وييسر وسائلها ويتيح للجائع ان يشبع ، وللعاري ان يكتسي ، وللمريض ان يصح ، وللظمآن ان يجد الريّ ، ويصبح الأدب اذن اداة من ادوات وزارة الشؤون الاجتماعية تستعين بها على تحقيق ما انشئت له من الأغراض .

والتعليم كله يجب ان يكوّن ادوات للانتاج الذي يملأ الأرض مالاً وخصباً وثراء بعد ان ملئت عدماً وجدباً وفقراً .

والغريب ان الأدب في نفسه يحقق للناس كثيراً من منافعهم ويرضي كثيراً من حاجاتهم ويلائم دائماً كما قلت من قبل

حياة الناس لأنه صورتها التي تشتق منها وتعود اليها . ولكن الناس في هذه الايام يتعجلون الامور ويملأ عليهم الشبع والري وامتلاء الأيدي ويسر الحياة نفوسهم وعقولهم وقلوبهم فيطلبون الى الادب منافعهم في إلحاح مزعج مريب مع انه يحقق لهم هذه المنافع كما حققها لهم دائماً ، ولكنه يحققها عفواً على غير تعمد لها ولا قصد اليهـــا . وهؤلاء الذين يلحون على الأدب في ان يكون سبيلاً الى تيسير الحياة هم أشبه بمن يلح على الشمس في ان تجعـل ضوءها اكثر نفعاً وأتم فائدة ، الا ان الشمس لا تحفل بمـــن يلح عليها في ذلك ان وُجد ، لأنها لا تسمعه ولا تعقله ، على حين ان الأدب او الأديب على الأقل يسمع ويعقل ويقدّر الأمور ويفسد عليه هذا الالحاح امره ويوشك ان يغلّه ويرده الى الجدب ويمنعه من الانتاج .

فالأدب لا يكره شيئاً كما يكره ان يكون وسيلـــة ، والأدباء لا يكرهون شيئاً كما يكرهون ان يكونوا ادوات تُستغل وتستذل وتبتغى بها المنافع والحاجات .

وقد قلت في الحديث الماضي ان المـادحين من الشعراء والكتّاب ايضاً في العصور القديمة لم يكونوا يتخذون الأدب وسائل الى السادة وانما كانوا يتخذون السادة وسائل الى الانتاج الادبي ينتفعون بشوقهم الى المدح ورغبتهم فيـــه وبذلهم المال للظفر به . والشيء المحقق ان ابا النواس من شعراء العرب وبندار من شعراء اليونان وهوراس من شعراء

الرومان وراسين او شكسبير من شعرا الفرنسيين والانجليز لم يكونوا هم وأمثالهم يتخذون الملوك والسادة غايات لأدبهم، وانما كانوا يطلبون عندهم المال والعون لينفقوها فيما تتيح لهم الحياة التي كانوا يحيونها ، وكانت تيسر لهم الانتاج الادبي الذي نجد فيه الآن وستجد فيه الأجيال المقبلة غذاء القلوب والأذواق والعقول ..

كل ما يؤخذ به هؤلاء السادة الذين يدعون الى ان ينشأ الأدب في سبيل الحياة هو انهم يريدون ان يتزلوا بالأدب فيجعلوه وسيلة بعد ان كان غاية ، وينكرون ان يكون الأدب اول ما يكون وقبل كل شيء غذاء للأرواح ، توشك المادية الحديثة الجامحة ان تضطرهم الى جعل الانسان كله اداة وان تضطرهم الى ان ينكروا ما في الانسان من روح ، من حقه ايضاً ان يقدم له الغذاء الذي يلائمه .

ليست الحياة شبعاً بعد جوع ، وسعة بعد ضيق ، وغنى بعد فقر فحسب ، ولكن فيها شيئاً آخر ارقى من هذا كله وأقوم من هذا كله هو هذا الروح الذي يحب الخير لأنه الخير ويحب الجمال لأنه الجمال ، والذي ينبغي ان يكون الشبع والري والفن وسائل تمكنه من ان يجد غذاءه الفني الرفيع . ان الذين يتخذون المادة غاية او يتعرضون لاتخاذها غاية يهدرون ما في الانسان من كرامة ، وسيهبطون به الى لون من ألوان الضعة لا ينبغي ان يهبط اليه .

ولست اسمي أحداً بعينه ولا افكر في احد بعينه ، وانما

اذكر هذه النزعة التي اخذت تعم وتشيع والتي اشرت اليها منذ حين . وهذه النزعة لم تأتنا من غير مصدر ، ولم تثر في نفوس اصحابها عبثاً او فجاءة ولكنها نزعة معروفة قد اصبحت رسمية في غير موطن من مواطن الأرض ، وكثر الدعاء اليها في غير مواطنها حتى اصــاب كثيراً من الأمم شيء من شرورها .

وكل ما أتمناه هو الا تتأصل فينا هذه النزعة التي لا يقوم عليها ادب صحيح ، بل لا يقوم عليها علم صحيح ايضاً . فلم يكن العلم وسيلة قبل هذه الظروف الأخيرة التي لابست حياة الناس في هذا القرن ، وانما العلم معرفة تغني النفوس وترفع الانسان عما حوله من الأشياء والأحيــاء لا غاية له الا هذا ولا بأس بأن ينشأ عنه مـا نشأ من هـذه الاختراعات الكثيرة الخصبة التي يسرت حياة الناس وأتاحت للعــلم نفسه ان يرقى ، فالرقي يدعو الى الرقي والفــوز بالاستزادة من الفوز . انما العلم والأدب غــذاء للعقول والأذواق قبل كل شيء .. واذا اخذت العقول والقلوب والأذواق حاجتها من هذا الغذاء كانت خليقة ان تملأ الدنيا من حولها خيراً ويسراً وبهجة وجمالا .

انما الشيء الذي افهمه وأطلبه وألحّ فيــه وأرجو ان يشاركني الشيوخ والشباب في فهمه وطلبه والالحاح فيه هو الا يجمد الأديب ولا تخمد جذوتــه ، ولا يكون صدى للماضي ليس غير ، وانما يمضي مع الدنيا من حوله فيتطور

معها ويصورها في حاضر الامر ومستقبله كما صورها في ماضيه . ولست اخشى من هذا كله شيئاً مع إلحاحي في الدعاء إلى التطور ، فأدبنا قد تطور تطوراً خطيراً في هذا العصر الحديث لا يشك في ذلك الا المبطلــون والذين في قلوبهم مرض . كان أدبنا في هذا العصر ملائماً عن بعد لما كان يملأ الدنيا حوله من الاحداث ، ولما كانت تلفع الدنيا اليه من التطور حين ثار العقــاد والمازني وشكري وطه حسين بشوقي وحافظ والمنفلوطي والمويلحي وامثالهم .

وكان هذا الادب ملائماً لما حوله من التطور عن قرب أيّ قرب ، حين ثارت مصر في اعقاب الحرب الاولى ، تريد ان تتحرر من الانجليز . وهو من غير شك سيلائم حياتنا الجديدة في عهدنا الجديد ، كما لاءم حياتنا من قبل وكما مهد لهذا العهد الجديد ، وخلق له مثله العليــا ، ولكن حياتنا في العهد الجديد لم تكد تتحقق ، ولم تكد أعلامها تستبين . فما زال العهد الجديد يريد ان يحقق نفسه ويبين معالمها . وقد انشأ أشياء وهو في سبيل اتمامهــا . والذي يريد ان ينشئه أكثر من الذي أنشأه بالفعل . وتطور الادب محقق ولكنه يتم في اناة وريث ، ويحتاج إلى الوقت ليظهر واضحاً جلياً .

وما ينبغي ان نظن ان الادب كالثروة يمكن ان يتغير نظامها بصدور القانون الذي ألغى الملكيات الكبيرة ، وأعد لتوزيع الثروة توزيعاً قوامه العدل .

فليس الادب ارضاً . وليس الادب مـــالاً ، وليس الادب مادة ، وانما الادب روح ، والروح يرى وينظر ويلح في الرؤيا والنظر ثم يسيغ ثم يتمثل ثم يخرج بعـــد ذلك في مهل ما أساغ وما تمثل . فالذين يتعجلون تطور الادب يشتطون على انفسهم وعلى الادب في وقت واحد ، ولو قـــد كان الادب يتطور بالقوانين او يتحقق بمجرد الرغبة فيه لكنت اسرع الناس إلى ان اطلب إلى الثورة اصدار قانون يقضي بهذا التطور وينظمـــه كما اخذت في تنظيم الاقتصاد وشؤون الحكم . ولكن تأثير القوانين في الأدب بطيء لا يظهر الا حين تتأثر الحياة كلهـــا بهذه القوانين . فليطالب دعـــاة التجديد بتطور الأدب ، كما اطالب به ، وليوجهوا هذا التجديد توجيهاً صحيحاً مستقيماً لا إسراف فيه ولا شطط ولا جموح .

ويسألني الأستاذ لويس عوض عن هؤلاء الذين أرادوا هدم الاهرام والمساجد وتحريق الكتب والدواوين لأنهـــا قديمة أنشئت في ظل الملوك والاقطاع . وليسمح لي الأستاذ بأن أعتب عليه عتباً مراً كما عودته دائماً وكما عودت زميله الأستاذ عبد الحميد يونس وغيرهما من الذين تفضلوا فاستمعوا لي .

فهذا السؤال الذي وجهه الي ّ ليس له موضوع ، وانما اخطأ الاستاذ قراءة ما كتبت أو قرأه قراءة خاطفة كما تعوّد كثير من الشباب في هذه الأيام ان يخطفوا القراءة

والكتابة أيضاً لا يستأنون بها ولا يتمهلون فيها ، تُعجلهم عن ذلك هذه السرعة التي تقتضيها الحيـــاة الحديثة والتي يجب على الادب ان يقاومها ويخلص منها . فالسرعة لا تنتج أدباً وانما تنتج كلاماً ، كما ان السرعة لا تنتج علماً صحيحاً ؛ ولا اعرف عالماً تعجله الحياة الحديثة عن ان يستأني ببحثه وتجاربه ليستكشف ما يستكشف العلماء من القوانين والظواهر .

لم أقل إذن ان احداً أراد هدم الاهرام والمساجد وتحريق الكتب والدواوين ، بل قلت في عبـــارة صريحة واضحة للذين يستأنون بالقراءة ولا يخطفونها ما أظن هؤلاء السادة يريدون هدم الاهرام والمساجد إلى آخره .

فأنا كما يرى الأستاذ لم اتهمه ولم اتهم زميليه الكريمين ولم اتهم أحداً غيرهم بمحاولة هذا الاثم العظيم ، بل نزهت طلاب الجديد عنه تنزيهاً ، وأردت ان أبين لهم بعض ما في دعوتهم من الاسراف فضربت لهم هـــذه الأمثال التي روّعتهم والتي ضاقوا بها ضيقـاً شديداً . ويسألني كذلك الأستاذ لويس عوض من هم الذين يتقربـــون إلى الثورة ويتملقونها على حساب الادب وفي غير روية ولا اعتدال ؟ واجيبه في صراحة ووضوح ايضاً بأنهم هم هؤلاء الذين يكتبون اليه في كل يوم ، والذين يلقي بما يكتبون اليه في سلة المهملات كما يقول . فلم أبعد إذن حين خشيت من هذا التقرب السخيف الذي لا يراد به الا التملق وابتغاء

الخطورة .

وكم اتمنى للاستاذ وزملائه من الشباب مع ما اتمناه لهم من الاناة والريث ألا يسرعوا إلى سوء الظن فان بعض الظن اثم ، وألا يقدروا ان كل ما يقال يمكن ان يتجه اليهم هم دون غيرهم من الناس ، فليسوا هم الناس جميعاً ، وفي الأرض قـوم غيرهم كثير ، يفكرون ويكتبون ويخوضون فيما يعرفون وما لا يعرفون .

ولست أذكر ان بين الأستاذ اسماعيـل مظهر وبيني خصومة أو لجاجاً لاني لا أعد الاختلاف في رأي من الآراء الأدبية والثقافية مصدراً من مصادر الخصومة واللجاج .

لم ارد اذن احداً من هؤلاء الثلاثة الكرام الذين يكتبون في « الجمهورية » ، بل لم أرد احداً بعينه كما قلت ، وانما اردت هذه النزعة الجامحة التي تحتاج إلى ان نردهـا إلى شيء من القصد والاعتدال .

واخرى لا اريد ان أدع هذا الحديث دون ان ألمّ بها إلماماً سريعاً . وانا في هذا الالمام اريد شخصاً بعينه وهو يعرف نفسه وقد يعرفه كثير من الناس دون ان احتـاج إلى تسميته . وهذا الموضوع الذي اريد ان ألمّ به هو هذه الشعوبية الحديثة التي اخذت تمعن في هذه الايام في لون من العنف لا اعرف له موضعاً ولا موضوعاً . فالأدب العربـي عند هذا الاستاذ الكريم هباء كله لا يغني عن الناس شيئاً لأن ألف سنة تحول بيننا وبين اعلامه والافذاذ من رجاله ،

فصلتُنا بهذا الادب مقطوعة او كالمقطوعة ، والطلاب في المعاهد والجامعات أشد حاجة إلى ان يدرسوا فولتير وروسو وبرنارد شو ومن اليهم من أعلام الادب الحديث ، منهم إلى ان يدرسوا أدبنا العربي ذلك الذي بعُـــد به العهد وطالت عليه القرون . في هذا الكلام سرفٌ يضر كثيراً ولا يجدي على قائله ولا على غيره من قارئيه شيئاً ، وانما هو يُحفظ ويسوء ويغري بما لا ينبغي ان يغرى به الناس في هذه الايام ، لأنه ينقل الخصومة من تجديد الادب إلى الادب العربي القديم كله أقيّم هو أم سخيف .. أندرسه أم لا ندرسه .. أننتفع بدرسه أم نضيع ما ننفق فيه من الوقت والجهد . وهذه الخصومة كما ترى سخف كلها لا تغني عن احد شيئاً . فلن يضير الادب العربي ولن يغضّ منه ان يرضى عنه فلان او يسخط عليه ، وقد عملت اجيال كثيرة من الناس في قرون طويلة من الدهر على ان تغضّ من هذا الأدب فلم تضيّع شيئاً . لم يغضّ منه تسلط الترك ولا غارات التتار ولا الحروب الصليبية ، وانما قاوم هذا كله مقاومة رائعة وانتصر في هذا كله انتصاراً رائعاً ، واستأنف من الحياة والقوة والخصب ما يملأ الارض به جمالاً ونوراً .

ولم يدعُ احد إلى اهمال الادب الحديث ، ولم تقصّر جامعة من جامعاتنا المدنية في درسه لطلابنا وهي لم تبلغ الكمال في هذا الدرس ، كما انها لم تبلغ الكمال في درس الادب العربي لأن الكمال شيء لا يُبلغ وانما يسعى الناس

اليه وينتفعون بسعيهم اليه . وما اعرف ان جامعاتنا قصرت في هذا السعي او نكلت عنه . ومن السخف كل السخف ان يحكم في سهولة ويسر بالعقم على ادب عاشت عليه الانسانية المتحضرة قروناً واتاح لهذا الادب الحديث ما يمتاز به من قوة وخصب ، من روعة وجمال . وانه لمن المؤلم الممض حقاً ان نقرأ بمصر في هذه الايام كهذا الذي نقرأه بين حين وحين ، وان نقرأ في الوقت نفسه كتباً تؤلف ومقالات تنشر في تمجيد هذا الأدب والإشادة به في اوروبا هذه التي يُفتن بها بعضنا فتوناً .

والأستاذ الذي كتب هذا الكلام يعرف حق المعرفة اني أتهم بالغض من الادب الاوروبي الحديث ، وقد كنت من أشد الناس ترغيباً فيه ومشاركة في نشره وتقريبه إلى العقول العربية . فاذا ضقت بهذا الكلام الذي يذيعه في غير روية ولا أناة ، فلا يدفعني إلى هذا تعصب للقديم او تعصب على الحديث ، وإنما يدفعني اليه إيثار القصد والاعتدال على الاسراف والجموح . وقد قامت حياتنا الحديثة على إحياء الادب العربي ودرس الآداب الأوروبية الحديثة وستقوم دائماً على هذين العنصرين من عناصر الحياة الخصبة . وعلى هذين العنصرين نفسها ، قامت حياة العرب القدماء او قل حياة الأمة الاسلامية القديمة على احياء الادب العربي ودرس الثقافات الاجنبية التي عرفتها في تلك العصور . فنحن نسلك نفس الطريق التي

سلكها القدماء ، نقيم حضارتنا الحديثة على ما أقام القدماء عليه حضارتهم تلك المزدهرة .

ما أشد حاجة الأستاذ إلى القصد في هذه الاقوال التي لا تدل على شيء .

والاستاذ نفسه يسرف ويجمح مرة اخرى حين يزعم ان ادبنا الحديث لم يعرف الثورة ولم يدعُ اليها لأنه قام على الخوف ولأن الذين انتجوه كانوا خائفين ، وهو لا يسوء نفسه وان اراد باسرافه ان يسوءها ، فهو من شيوخ الأدباء الذين دعوا إلى التجديد وشاركوا فيــه ، ومهدوا للثورة فأحسنوا التمهيد .

وخلاصة هذا كله ان حياتنا الأدبية الحديثة إذا احتاجت إلى شيء في هــذه الايام فانما تحتاج أول ما تحتاج إلى الاعتدال في الحكم وحسن التقدير للامور والتأني والاستبصار قبل الاقدام على الكتابة والاذاعة . ذلك اجدر ان يتيح لأدبنا الحديث من النهوض والرقي والخصب وتصوير الحياة والتعبير عنها بعض ما يطمع فيه ويطمح اليه .

صورة الأدب

●

أما اليوم فاني أريد ان أثير خلافاً جديداً بين الادباء ، بعد ذلك الخلاف القديم الذي لم ينقض بعد وما ارى انه سينقضي اليوم او غداً ، بل ما ارى انه سينقضي قبل ان ترضى حاجات الناس من حياتهم إن أتيح لحاجات الناس ان ترضى في يوم من الايام .

فقد تعلمنا فيما تعلمنا ان الجنة التي وعد الله عبـــاده المتقين هي التي ستـُـرضى فيها حاجات الناس إلى أقصى ما يمكن ان يبلغ الرضى لان فيهـــا كل ما يمكن ان يشتهى وكل ما يمكن ان يلذ وما لا يخطر على قلوب الناس .

وقد صور ابو العلاء في رسالة الغفران طرفاً من هذا الرضى الذي سيتاح لأهل الجنـــة المتقين فأحسن التصوير وجوّد فيه ، سواء أكان قصد به إلى الجد أم قصد به

إلى الدعابة والفكاهة . والمهم هو ان حاجات الناس في هذه الدنيا لن تنقضي لأن حاجة من عاش لا تنقضي كما قال الشاعر القديم .

واذن فسيكون بين الناس دائماً قوم يريدون الأدب على ان يكون وسيلة إلى إرضاء الحاجات وطريقاً في بلوغ المآرب . وسيكون بينهم قوم آخرون يرتفعون بهذه الحاجات عن الأغراض والاعراض التي يبتغي الناس في حياتهم اليومية المادية ، إلى اغراض اخرى تبتغيها القلوب والعقول والأذواق . ولن يكره هؤلاء للادب ان يصور بؤس البائس وجوع الجائع وحرمان المحروم بشرط الا يفرض ذلك عليه فرضاً ولا يأخذه بذلك قانون أو مرسوم أو مذهب سياسي محتوم .

سيختلف الناس اذن دائماً في معنى الحياة التي ينبغي ان يكون الادب وسيلة اليها أهي حياة الجسم أم حياة الروح ، ام حياة الجسم والروح معاً .

وكم أحب للاستاذ مظهر وله خاصة ان يتفكر في هذا في أناة وروية وان يخلو به الى نفسه ساعة من نهار أو ساعة من ليل . فقد يتغير رأيه شيئاً وقد يحتاج الى ان يحتاط ويستأني ، فما اعرف انه من الذين يريدون ان يتزلوا بالادب إلى حيث يكون وسيلة إلى ارضاء الحاجات المادية للناس في حياتهم هذه التي يحيونها ، وإني لأقرأ له بين حين وحين احاديث تروقني وترضيني ، وهي مع ذلك لا تطعم

جائعاً ولا تسقي صادياً ولا تكسو عارياً ولكنها تسلي البائس عن بؤسه والمحروم من حرمانه إن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، لانها تمس مسائل تعني الروح وحده ولا تعني الجسم من قريب أو من بعيد ، تسمو إلى ما بعد الطبيعة وتنأى عن الطبيعة نفسها نأياً شديداً .

ليفكر الاستاذ في هذا كله ، فقد يأخذ أمر الادب على طبيعته كما ينبغي ان يؤخذ . وقد يراه فناً يلتمس الجمال حيثما وجد اليه سبيلاً ، يأخــذه من بؤس البائس وسعادة السعيد ، ويأخذه من المادة المظلمة ومن الروح المشرق ، ويأخذه من الارض إن وجده في الارض ومن السماء إن وجده في السماء ، ويخترعه اختراعاً من اعماق نفسه ان لم يجده هنا أو هناك .

لنختلف اذن في الادب أوسيلة هو أم غاية ، واذا كان وسيلة فإلى أي شيء نتوسل به . ولكني اريد ان اثير اختلافاً آخر ، فما احب للادباء ان يطمئنوا ولا ان تستقر نفوسهم في الوسائل والغايات ، وانما احب لهم ان يختصموا وان يختصموا دائماً لاني أجد في خصومتهم رضى ومتاعاً وعسى ان يكون في خصومتهم للناس مثــل ما أجد فيها من الرضى والمتاع . فما عسى ان تكون صورة هذا الادب الذي يريده بعضنا على ان يكون وسيلة طيعة ، ويريده بعضنا الآخر ان يكون غاية سامية نبيلة ؟ أتكون هذه الصورة شيئاً نأخذه كما نجده ونقول فيه مثــل ما قال

ذلك التاجر العامي للجاحظ في بعض عروض التجارة : كما تجيء يكون .

أو نأخذه كما يقول العامة في هذه الايام حيثما اتفق . أو يكون شيئاً آخر نستأني به ونتلطف له ولا نخرجه للناس الا شائقاً رائقاً حسن الموقع في الاذن والقلب والعقل والذوق جميعاً ؟

هذه هي القضية التي اريد ان اعرف فيها رأي الشباب من ادبائنا لاني اعرف فيها رأي الشيوخ .

أيريد شبابنا ان يأخذوا الادب كما يجيء وان يقولوا لنا كما يقول بعضهم لبعض وكما كان يقول ذلك التاجر القديم : كما يجيء يكون ؟ ام يريدون ان يكون الادب جميلاً في مادته وصورته جميعاً ؟ والجمال لا يأتي عفواً إلا في القليل النادر . وهو يحتاج اكثر الاحيان إلى فنون من الجهد وصنوف من العناء وإلى كثير من الوقت وكثير من المحاولة والمزاولة والمطاولة . وما احب ان يظن الشباب من الادباء اني اثيرهم رغبة في اثارتهم ، أو تلهياً بما يكون من امرهم حين يثورون . فاني اجد في ذلك شيئاً من الرضى والمتاع من غير شك ، ولكن الرضى والمتاع وحدهما ليسا هما اللذين يدفعانني إلى اثارة هذه القضية ، وانما يدفعني اليها ما اراه من ميل الشباب إلى التهاون في التعبير كما يتهاونون في التفكير احياناً . تخطر لكثير منهم القضية فيسرع إلى تسجيلها ثم يسرع إلى

اخراجها للناس ، لا يحقق معناها ولا يستأني به حتى يتم نضجه ، ولا يتأنق في صورتها ولا يجدّ في تسويتها حتى تخرج نقية رضية تستهوي النفوس ويحسن موقعها في القلوب .

وانا اعلم اننا نعيش في عصر السرعة وان وقتنا يعدل الاضعاف المضاعفة من وقت القدماء ، فيومنا يعدل شهوراً من شهورهم ، وشهرنا يعدل اعواماً من اعوامهم ، وعامنا يعدل من اعوامهم عشرات .

اعلم هذا واعلم ان حاجاتنا كثيرة ، وانهـا عاجلة ، وانهـا تزدحم وتختصم ، وتتدافع ويصدم بعضها بعضاً ، ويناقض بعضها بعضاً ، في كثير من الاحيـان ، وهي بذلك تستغرق من وقتنـا أكثره ومن جهدنا أعظمه ، وتوشك الا تترك لنا شيئاً من الوقت لنستأني بالتفكير او تمدّه شيئاً من الجهد لنتأنق في التعبير . واعلم بعد هـذا كله ان كثيراً منـا يكتبون أدبهم لينشر في الصحف ، وللصحف ضروراتها التي تقتضيها السرعة والدقة والنظام . فالكاتب رهنٌ بكل هذه الضرورات ، ولكني مع ذلك ، بل على رغم ذلك ، اريد للأدب ان يكون عصيّاً أبيّاً لا يكتب لينشر في الصحف بل ينشر في الصحف لأنه كتب . وانا اريد اكثر من هذا ، اريد ان يكتب الادب لينشر في الكتب،وانما ينشر في الكتب لانه قد انتج واصبح نشره يسيراً .

ومعنى هذا كله اني اريد للادب ان يكون قبل كل

شيء وعلى رغم كل شيء مقاومة بأدق ما لهذه الكلمة من معنى ، مقاومة للنفس التي قد تكره الجهد وتضيق بالعناء وتنوء بالمشقات . ولا بد للاديب من ان يروضها ، ويسوسها حتى تألف الجهد والعناء والمشقة وترى انها ايسر ما يجب لانتاج الادب الرفيع الذي يستحق وجده ان يسمى ادباً ، ومقاومة للحاجات الكثيرة العاجلة المزدحمة . فما ينبغي ان يكتب الادب ليتيح ارضاء حاجاته مهما تكن هذه الحاجات ، بل ينبغي ان يكتب لانه ألح على الاديب واشتد في الالحاح حتى شغله عن حاجاته وألهاه عن منافعه ، وانساه انه في حاجة الى الطعام والشراب وغير الطعام والشراب من حاجاته الملحة . ومقاومة بعد هذا كله لمرض السرعة الذي تفرضه حياتنا الجديدة . فليس الاديب محتاجاً الى ان يسرع في الانتاج لأن الدنيا من حوله تجري حتى توشك ان تقطع انفاسها وانما الاديب محتاج الى ان يستأني ويستأني والى ان يجدّ ويكدّ ويحتمل صنوف العناء ليخرج ادبه كما ينبغي ان يكون ليجيء ادبه كما يمكن ان يكون . ومقاومة بعد هذا وذاك لضرورات الصحف والمطابع . فلا على الاديب ان تفوته صحيفته اذا لم يتح له ان يمدها بما تنتظر منه . ولا على الاديب ان يغضب اصحاب المطبعة ان أبطأ به الانتاج عما ضربوا له من موعد . ذلك كله خير له من ان يتعجل فيرضي الصحيفة والمطبعة ويسخط الفن

ويفسد أدبه وقد يفسد معه ذوق كثير من القراء .

وهنا تنكر الصحف وتثور ، فهي لا تستطيع ان تنتظر الادب حتى يتم نضجه ويصبح نشره شيئاً لا حرج فيه . فمن أراد ان يكتب لها على شرطها فليفعل ، ومن أبى إلا ان يكتب على شرط الادب فليلتمس لنفسه مذهباً آخر من مذاهب النشر ، وطريقاً اخرى من طرق الكسب . وهذه مشكلة عرضت للادب منذ كانت الصحف وكلت نفسها بنفسها فنشأ لها فن بين ذلك ليس هو بالكلام السوقة الذي لا قيمة له ولا هو بالادب الرفيع الذي يكلف صاحبه الكد والجد والعناء ، وانما هو فن وسط يحتل منزلة بين المنزلتين ، في اكثره من الادب روح وفيه مع ذلك من اليسر والسهولة واللين والمؤاتاة ما يلائم السرعة والانتظام .

والخطر كل الخطر الذي يتورط فيه كثير من الناس وقد تورط فيه جيلنا هذا الذي نعيش فيه الا قوماً يحصون هو ان نكتفي بهذا الفن الوسط فنراه الادب كل الادب ونقنع به لنرضي حاجة نفوسنا الى الجمال الرفيع ، وحاجة قلوبنا واذواقنا إلى الغذاء الممتاز .

شتان ما بين ادب يكلف صاحبه جد النهار وأرق الليل قبل ان يظفر منه بما ينبغي وبما يرضي ذوقه ان يقدمه إلى الناس ، وكلام آخر يكتب لأن الحاجة والصحيفة والمطبعة اقتضت ان يكتب ويقدم وينشر في اوقات معينة وفي

موضوعات لعلها لم تكن تخطر للكاتب على بال ، ولعل كثيراً منها ان يكون قد فجأ الكاتب على غير توقع له ، ولعل بعضها ان تُفرض الكتابة فيه على الكاتب فرضاً . ولست ادري أي كتابنا القدماء ذاك الذي اعجب الناس ببراعته ومهارته وأراد بعض الامراء ان يختبر طبعه وقدرته على الاستجابة لدعوة الفن ، فطلب اليه ان يكتب لساعته بعض ما تعود من فصوله الجميلة الرائعة ، فأقبل على دواته وقرطاسه وانتظر وأطال الانتظار وجدّ وكلف نفسه من الجد ما لم تتعود ، ولكنه لم يصنع شيئاً وسخر الناس منه ولم يكن من حقهم ان يسخروا .

فالادب لا يستجيب لكل دعوة ولا يطيع كل امر ، وهو لا يجيب الاديب نفسه كلما دعاه ، وانما الاديب هو الذي ينبغي ان يكون على اهبة لاجابة الادب حين يدعوه . ولأمر ما قال ذلك المعلم القديم من شيوخ المعتزلة لبعض الطلاب : خذ من وقتك ساعة نشاطك وفراغ بالك . وساعة النشاط وفراغ البال هذه لا تأتي حين تريدها الصحيفة أو المطبعة . ولا حين يريدها الأديب نفسه ، وانما تأتي حين تريد هي ان تأتي . والأدب بعد ذلك يستطيع ان يؤاتي الأديب في هذه الساعة كما يستطيع ان يعرض عنه اعراضاً .

وبين الأدب والأديب فنون من الخصام والعناد يعرفها الادباء المطبوعون ، فما اكثر ما يشعر الأديب بالحاجة إلى الكتابة وبالميل اليها والرغبة الشديدة فيها . فيتهيأ لهـا

ويدعوها بما ألف من وسائل الدعاء ، ولكنها لا تحفل به ولا تستجيب له فيشغل نفسه بما شاء الله من ألوان العمل . وما اكثر ما يكون الاديب ماضياً فيما يمضي النـــاس فيه من امور الحيـــاة ، لا يفكر في نثر ولا في شعر ولا في شيء يشبه الشعر أو النثر من قريب او بعيد ، ولكن داعي الكتابة يدعوه ويلح عليه ثم يملك عليه نفسه ، واذا هو ينصرف عما كان ماضياً فيه إلى الكتابة والانشاء . وربما كان من اخص خصائص الأدب انه هكذا عصيّ ابيّ متمنع متشدد في التمنع حين يراد على نفسه ، ثم هو بعد ذلك رضيّ سمح طيّع ، حين لا يدعوه داع ولا يفكر فيه مفكر .

والادباء يعرفون هذا كما يعرفون انفسهم ، ولهم في سياسة الادب ورياضته وتذليله وتدليله فنون ومذاهب يمكن ان يطول فيها القول الذي لا يخلو من طرافة ولا يتعرض لسآمة أو إملال .

واذن فكيف ينبغي ان يكون هذا الأدب العصيّ الأبي حين يخرج للناس ليهدي اليهم الراحة والروح ، ويرفعهم إلى حيث يستمتعون بالجمال الصفو الذي تأنس اليه وتنعم به كرام النفوس ؟

يجب ان يكون جميلاً ما في ذلك شك . وما رأيك في شيء تقرأه فيشعرك بالجمال الذي لا يلبث ان يملأ نفسك وقلبك وان يأخذ عليك حياتك من جميع اقطارها مع انه

قد يريد الى أن يصور لك القبح القبيح ؛ واقرأ شعر بودلير فسترى من ذلك الأعاجيب . وقد ذكرت بودلير وفي ذهني آخرون من معاصريه أو الذين جاءوا بعده من الفرنسيين والانجليز . ذكرت هؤلاء متعمداً ولم أرد أن اذكر القدماء من شعرائنا ، فقد ينبو كثير من شبابنا عن هؤلاء القدماء لأسباب منها ما يقال ومنها ما لا يقال .
يجب إذن أن يكون الأدب جميلاً ، ولكن أين يكون جماله ! أيكون في معانيه أم يكون في ألفاظه ، أم يكون في نظامه واسلوبه ، أم يكون في هذا كله أجمع ؟

في هذا يختلف النقاد اختلافاً شديداً منذ أقدم العصور التي فكر فيها الناس في الأدب وتحدثوا عنه . فقد كره كثير من قدمائنا شعر أبي تمام لأنه احتفل لمعانيه وأكره الألفاظ على أن تذعن لهذه المعاني ، وذهب في جمال الألفاظ والمعاني مذهباً لم يألفه الشعراء الأقدمون . فقالوا انه أسرف في الاستعارة والمجاز ودفع الى كثير من الاغراب وأتى الناس بما لم يألفوا وانحرف عن السنة الموروثة وعنف باللغة حتى كلفها شططاً .

وقوم آخرون أحبوا أبا تمام لهذه الخصال نفسها . رأوا انه قد مال بهم عن الطرق المطروقة والمذاهب المألوفة وأطرفهم بأشياء جديدة شغلتهم عما كان القدماء يبدأون فيه ويعيدون . ولم يتجه الى آذانهم وحدها ولا الى قلوبهم واذواقهم وحدها وانما اتجه اليها والى العقول فاضطرها الى

أن تعنى بالشعر وأن تقف عنده فتطيل الوقوف ، وأن تستخرج مكنونه وتنعم بنتيجة ما تكلفت من جهد وما احتملت من عناء، وتشعر كلما فهمت بيتاً أو ذاقت قصيدة انها قد استخرجت كنزاً من أعماق الأرض أو لؤلؤاً من أغوار البحر، ولم يصل الى استخراجه إلا بعد المشقة الشاقة والعسر العسير . وقوم ضاقوا بمسلم بن الوليد لأنه احتفل بالألفاظ أكثر من احتفاله بالمعاني ، وجعل يتكلف بينها نعوتاً من الموسيقى التي تأتي من المطابقة والجناس وما اليها من هذه المحسنات المختلفة التي تزين اللفظ في الأذن وتخضع المعنى لهذه الزينة ، فتجعله تابعاً ومن حقه أن يكون متبوعاً. وآخرون كلفوا بمسلم لهذه الصفات نفسها فهم قد ألفوا الاستمتاع بالموسيقى وأحبوا أن يجدوا هذه الموسيقى في كل ما يرون ويسمعون .

وليس المحدثون من الاوروبيين أقل اختلافاً في ذلك من القدماء ، فمنهم من يؤثر جمال اللفظ والمعنى على أن يكون هذا الجمال قريباً داني القطوف ، لا تجد العقول والأذواق والقلوب جهداً ومشقة في فهمه وذوقه والاستمتاع به . ومنهم من ينأون عن هذا كله وينهون عنه ويضيقون بالحياة كما يحياها الناس ، وبكل هذه الأشياء التي ألفها الناس مصبحين وممسين ويلتمسون الجمال الأدبي في حياة يبتكرونها هم ويخترعونها اختراعاً ، وهم يأتون في ذلك الأعاجيب التي اقرأها انا ويقرأها كثير غيري فلا نفهم

منها شيئاً ولا نذوق منها شيئاً وربما دفعتنا الى الاغراق في الضحك المتصل .

والذين درسوا الآداب الأجنبية يعرفون من هذا الاختلاف شيئاً كبيراً ، ولعل منهم من حاول أن يصنع في أدبنا الغربي مثلما صنع بعض المحدثين من الأوروبيين في آدابهم .

وقد حدثت في أعقاب الحرب الاخيرة بأن فتى رومانياً أقبل ذات يوم الى باريس وله مذهب في الفن الأدبي طريف أراد أن يقنع به شيوخ الأدب فلم يجد عندهم شيئاً ، وحاول أن يفتن به الشباب فاستجاب له بعضهم وقتاً قصيراً ثم انصرفوا عنه ولم يعودوا اليه . ولست أدري إلامَ صار أمر هذا الفتى. واكبر الظن انه عاد الى حظيرة الأدباء المألوفة أو التمس وجهاً آخر من وجوه الحياة . وكان مذهبه يسيراً جداً ولكنه سخيف جداً ، فهو قد ضاق بالحياة التي يحياها الناس وضاق بالأدب الذي يألفونه وباللغات التي يتكلمونها ، وأراد أن يحدث الموسيقى الأدبية بالملاءمة لا بين الألفاظ التي تأتلف منها اللغات بل بين الحروف التي تتكون منها الألفاظ . وتستطيع انت أن تتصور هذا النوع من الهوس وأن تقطع بأنه قد انتهى الى ما لم يكن بد من أن ينتهي اليه .

الأدباء اذن يختلفون منذ أقدم العصور في جمال الأدب أين يكون ؟ أيكون في ألفاظه أم يكون في معانيه ؟ أم

يكون في الألفاظ والمعاني جميعاً؟ وقد رأيت بعض الشعراء المعاصرين من الفرنسيين ممن كان يقول ويكتب في غير كتاب من كتبه أن بين الشعر والنثر فرقاً خطيراً . فالنثر يُقتل بمجرد أن يُفهم ، فانت لا تكاد تقرأ نثراً في كتاب أو مقالة وتفهمه إلا قتلته واستللت روحه واستأثرت بها ، وأصبح الكتاب أو المقالة شيئاً هامداً لا حياة فيه بالقياس اليك ، فهو كدنّ أبي نواس حيث يقول :

ما زلتُ استلّ روح الدنّ في لطف
واستقي دمه من جوف مجروح
حتّى انثنيت ولي روحان في جسدي
والدنّ منطرح جسماً بلا روح

ذلك شأن النثر . فأما الشعر فله شأن آخر لأن جماله لا يأتي من فهم معانيه فلا سبيل الى قتله ولا الى استلال روحه ، وانما يأتي جماله من ألفاظه وصوره وهذه الأخيلة التي تثيرها ألفاظه وصوره في نفسك والتي لا سبيل الى أن تُستل منه أو تفصل عنه ، كما انه لا سبيل الى ان تجرّد الشعر من ألفاظه أو تنتزع منه صورته انتزاعاً .

فالشعر باقٍ لأنه اقوى واشد امتناعاً من أن يفهم،ومن اجل ذلك فهو اقوى واشد امتناعاً من أن يدركه الفناء .

كذلك كان يقول بول فاليري ، وكذلك كان يكتب في كثير من كتبه ورسائله .

وأظن هذا كله يكفي لبيان ما أردت الى تبيينه من اختلاف الأدباء في جميع العصور حول الجمال الأدبي اين يكون ؟ ومن اين يأتي ؟ ولكنهم متفقون دائماً على أن الأدب لا يكون إلا جميلاً لأن طبيعته تقتضي ذلك ، وهو لم يوجد إلا للسموّ بالنفس الى حيث تشهد المشاهد الرفيعة من الجمال . شأنه في ذلك شأن غيره من الفنون الجميلة ، فأنت لا تدري من أين يأتي جمال الصورة التي تعجبك وتروقك : ايأتي من اللون ام يأتي من شيء آخر وراء اللون . وما عسى أن يكون هذا الشيء ؟ وانت تعلم حق العلم انك قد ترى شخصاً من الأشخاص فلا يروقك ولا يشوقك ولا يقع من نفسك موقعاً ذا بال ، ولكنك ترى لهذا الشخص نفسه صورة قد اتقن المصور تصويرها فتقف عندها وتطيل الوقوف ولا تكره أن تعود اليها لتراها بعد حين .

وانت لا تدري مصدر الجمال الذي يروقك ويبهرك حين ترى تمثالاً رائعاً ، أهو مادة التمثال .. هيهات ، انك ترى هذه المادة على اصلها فلا تثير في نفسك شيئاً . أهو موضوع التمثال ؟ هيهات ، ان أمر موضوع التمثال كأمر موضوع الصورة ، فما اكثر ما يصور المصورون ويمثل المثالون معاني لا تُرى وقيماً لا تحسها النفوس والعقول. وانت حين تسمع لحناً رائعاً فيسحرك ويخطف نفسك فيسمو بها الى حيث لم تكن تقدر أن تبلغ ، لا تستطيع

ان تحـــدد هذا الجمال ولا ان تعرف معرفة دقيقـــة من اين يأتي .

فخذ الأدب كما تأخذ الموسيقى والنحت والرسم والتصوير. خذه على انه متعة لروحك وغذاء لقلبك وعقلك ؛ وليكن جمال الأدب حيث يمكن أن يكون . ليكن في الألفاظ أو في المعاني أو في النظم والأسلوب أو في هـــذا كله . والأدب آخر الأمر فن من الموسيقى يأتلف من هذه الاشياء كلها ، من الألفاظ والمعاني والأساليب ومـــا يعرض من الصور وما يثير من عواطف وما يبعث من شعور . فليكن جماله شيئاً شائعاً لا يستطيع أحد أن يقول انه ينحصر في اللفظ أو في المعنى أو في الأسلوب .

وانما الشيء الذي ليس فيه شك هو ان الكلام لا يكون أدباً حـــتى يوجد فيه هذا الجمال الذي تجده فيما تنتجـــه الفنون الجميلة الأخرى . وليكن موضوع الأدب بعد ذلك مـــا يكون . ليكن في الأرض او في الجو او في نفس الانسان ، واعماق الضمير . ليكن موضوعه جميـــلاً او قبيحاً ، محبباً أو بغيضاً ، فليس يعنيني من الأدب إلا ان يحدث في نفسي ما يحدثه الأثر الفني من هذا الشعور الرفيع بالجمال . فأين نحن من هذا كله حـــين نستحضر الأدب وحين نفكر فيه أو نتحـــدث عنه ، أترانا نستحضر كل هذه المعاني ، أم ترانا لا نستحضر إلا حاجاتنا ومآربنـــا والوسائل التي تبلغنا هذه الحاجات وهذه المآرب ؟ وكذلك

نعود الى حيث ابتدأنا مــع اني لم افكر قط في ان اعود الى حيث ابتدأت ولا في ان اتحدث عن الأدب ، أوسيلة هو أو غاية .. وانما اردت ان اتحدث عن صورة الأدب. وقد استبان لك كما استبـــان لي ان من اعسر العسر ان تفصل بين صورة الأدب ومادته. فالأدب يوشك الا يخضع لهذا النوع من التحليل الذي يعمد اليه العلماء واصحـــاب الكيمياء منهم خاصة . فاذا عمد النقاد الى تحليلــه فهم يقاربون ولا يحققون وآيــة ذلك انهم لا يتفقون ولا سبيل الى ان يتفقوا على حقائق مقررة للنقد كتلك الحقائق المقررة في الطبيعة والكيمياء وغيرها من العلوم . ومن هذه الحقائق المقاربة التي يتحدث فيها النقاد فيكثرون فيها الحديث ان اللغة هي صورة الأدب وان المعاني هي مادته ، وهـــذا كلام مقارب لا تحقيق فيه . فكثير من النقاد القدمـــاء خاصة تصوروا أن المعاني تشبه الأجسام وان الالفاظ تشبه الثياب وان المعنى الجميل كالجسم الجميل يجب ان يختار له الزي الرائق الذي يظهر فيه . وهذا كلام اذا حاولنا تحقيقه لم نجد وراءه شيئاً ، فنحن نعرف الأجسام قبل ان تلبس الثياب . ونعرف الثياب قبل ان تسيــغ على الاجسام ، ونستطيع ان نحقق الفصل بينها . ولكننا لا نعرف المعاني المجردة التي لم تتخذ ثيابها من الألفاظ . ولا نعرف الألفاظ الفارغة التي تنتظر المعاني لتلبسها وانما نعرف الألفــاظ والمعاني ممتزجة متحدة لا تستطيع ان تنفصل ولا ان تفترق،

وما اعلم اننا نستطيع ان نتبادل المعـــاني المجردة دون ما يدل عليها من لفظ او صورة او رمز ، وما اعلم اننـــا نستطيع ان نتبادل الألفـاظ الجوف التي لا تدل على شيء فليس ذلك من شأن العقلاء وانما هو شيء قـــد يعرض للمحمومين والمجانين .

واذن فصورة الأدب ومادتـه شيئان لا يفترقان أو هما شيء واحد اذا شئت ، واضف اليهما عنصراً ثالثاً ان صح أن يستعمل العدد في مثل هذا الموضع . وهـــذا العنصر يلزمهما لزوماً لا فكاك منه وهو عنصر الجمال ، فالنـــاس يتحدثون بالألفاظ التي تدل على المعاني ، وهم يتبادلون ما يـــدور في رؤوسهم من الخواطر ويحققون بهذه الألفاظ ذوات المعاني مـا يحتاجون اليه من الأغراض والآداب ، ولكنهم في احاديثهم وفي قضاء اغراضهم وآرائهم لا ينشئون ادباً إلا ان يعتمدوا ذلك ويستأنوا به ويقصدوا اليه حـــين يكتب احدهم الى صاحبه رسالة يضع فيها خلاصة نفسه ، في هذه الصورة الجميلة الرائعـــة التي نسميها ادباً . وحين يكتب احدهم لخاصة الناس أو عامتهم رسالة يتهيأ لهـــا ويتأنق فيها ويريد أن تبلـغ قلوبهم وأن تثير فيها ما يريد ان يثير من العواطف والشعور .

وقل مثل ذلك في التحدث الى الأفراد والجماعات وفي الأسفار التي تكتب ويراد ببعضها الى الفن الرفيع وببعضها الآخر الى اداء ما يمكن أن يحتاج الناس الى ادائـــه من

المعاني . حينما وجد الجمال في الكلام كان الأدب ، وحيثما خلا الكلام من هذا الجمال كان ما شئت أن يكون !

كذلك فكر الأدباء منذ اقدم العصور . وما أرى إلا انهم سيفكرون على هذا النحو ما اتيحت لهم الحضارة ، وما أرى اننا نستطيع أن نتصور امة باديـــة أو حاضرة تعيش وتتخذ الكلام لغة دون ان يكون لها من هذا الكلام أدب على هذا النحو، ودون ان يكون لها من هذا الكلام صور تحمل الجمال الى القلوب والأذواق .

وما ادري أيفهم ادباء الشباب هنا الأدب على هـــذا النحو أم لهم فيه مذهب آخر ، فان لم تكن الأولى فعنـد الصباح يحمد القوم السرى كما يقول المثل القـــديم ، وان تكن الثانية فما أشد حاجتي الى ان أقرأ لهم وافهـم عنهم وما أشك في اني سأنتفع وسأستمتع بما يكتبون .

يوناني فلا يُقرأ

●

زعموا ان ناقداً قديماً سمع شاعرنا العظيم ابا تمام ينشد قصيدته المشهورة :

أهنّ عوادي يوسف وصواحبه
فعزماً فقدماً ادرك السؤل طالبه

فقال له : لمَ لا تقول ما يُفهم ؟ فأجابه ابو تمام : ولمَ لا تفهم ما يُقال ؟

ذكرت هذه القصة حين قرأت ما وجه اليّ الأديبان الكريمان عبد العظيم انيس ومحمود امين العالم منذ حين في صحيفة «المصري» الغراء حول ما كتبتُ عن صورة الأدب ومادته . وذلك اني قرأت المقـال فلم افهم فسألت نفسي وما بال هذين الأديبين لا يكتبان ما يفهم ثم قلت لنفسي

قبل ان يقولا لي : ولمَ لا افهم انا ما يكتبان . وأعدت قراءة المقال في أناة وعناية وتنبّه ، ولكـــني لم أفهم في القراءة الثانية اكثر ممـــا فهمت في القراءة الأولى ، فقلت لنفسي كما قلت لها اثر القراءة الاولى، ثم اجبت بما اجبت به اثر تلك القراءة ايضاً .

وقرأت المقال للمرة الثالثة فلم ازدد فهماً ، وانما وقفت بعد هذه القراءة اسأل نفسي لمَ لا يكتب الأديبان الكريمان ما يفهم ؟ ثم اجبت نفسي هذه المرة بأن فهمي هو الذي فلّ حده وأدركه الفتور والقصور فعجز عن ان ينفذ الى دقائق الأدب وروائع ما ينشر للناس .

فالأديبان من غير شك عليمان بماذا يريدان أن يقولا ، ولولا ان علمهما بذلك واضح عندهما كل الوضوح مشرق في نفوسهما كل الاشراق لما دفعاه الى صحيفة « المصري » لتنشره . ولولا ان الصحيفة فهمته اوضح الفهم ، وذاقته احسن الذوق وادقه لما نشرته ولما شغلت به الناس .

ثم رأيت الاستـــاذ العقاد يناقش الأديبين في بعض ما كتبا في شيء من القسوة القاسية والعنف العنيـــف ، فلم أشك في أن فهمي قد أدركه القصور والفتور حقاً ، فلولا أن الاستاذ العقاد قد فهم عن هذين الأديبين لما ناقشهما في قسوة أو في لين،ولكني قرأت كلام الأستاذ فرأيته يناقشهما بنوع خاص فيما أضافا اليه من أنه ما زال يذهب مذهب القدماء ويقرأ القصيدة فيعجب منها بالبيت ويرى أن هذا

البيت الـذي أعجبه ، يعدل الالوف من امثاله . والأستاذ يرد الأديبين الى الحق ويبين لها انه قد خرج على هـــذا المذهب القديم قبل أن يولدا في اكبر الظن أي منذ أربعين عاماً . واذن فقد فهم الأستاذ العقاد ما قيل عنه في ذلك المقال فلم ينبئنا بأنه فهم أو لم يفهم مـا قيل عن الأدب في نفسه . واكبر الظن انه لم يفهمه كما لم أفهمه وكما لم يفهمه كثير غيره وغيري من الادباء الذين يحسنون القراءة والفهم فيما علمت بعد شيء من السؤال والاستقصاء عند شبـــاب الادباء وشيوخهم . واذن فأنا اكـبر الأديبين الكريمين من أن يكتبا ما لا يفهم وأرى أن قصورنـا عن فهم ما ارادا اليه انما يأتي من أن مـدرستهما الحديثة تخالف ما ألفنا من مناهج البحث ومذاهب القول وأساليب التعبـــير عن ذات النفوس ، وما اريـــد ان اتجنى عليهما ولا أن أقول فيهما غير الحق فاقرأ معي بعض ما يقولان :

« ولكن صورة الأدب كما نراها ليست هي الاسلوب الجامـــد وليست هي اللغة بل هي عملية داخليـــة في قلب العمل الأدبي لتشكيـــل مادته وابراز مقوّماته . ونحن لا نصف الصورة بأنها عملية ، مشيرين بذلك الى الجهد الذي يبذله الأديب في تصويره المادة وتشكيلها بل لما تتصف به الصورة نفسها في داخل العمـــل الأدبي نفسه فهي حركة متصلة في قلب العمل الأدبـي ، نتبصر بهـــا في دوائره ومحاوره ومنعطفاته ، وننتقل بها داخل العمل الأدبي من

مستوى تعبيري الى مستوى تعبيري آخر حتى يتكامل لدينا البناء الادبي كائناً عضوياً حياً . وبهـذا الفهم الوظيفي للصورة تتكشف أمامنا ما بينها وبين المادة من تـداخل وتفاعل ضروريين . فمادة العمـل الأدبي ليست بدورها معاني – كما يقول عميد الادب والمدرسة القديمـة – بل هي أحداث تقع وتتحقق داخل العمل الأدبي نفسه ويشارك التذوق الادبي في وقوعها وتحققها ... »

أعربي هذا الكلام أم سرياني ؟ أيمكن أن يقرأه الرجل المثقف ذو الثقافة العميقة الرفيعة أو ذو الثقافـة المتوسطة القريبة فيخرج منه بطائل ويحصل منه شيئاً يمكن الاكتفاء به والوقوف عنده للتأمل والمناقشة ؟ وما عسى ان يكون هذا العمل الأدبي ؟ وما عسى ان يكون قلبـه ؟ وما عسى ان تكون هذه العمليات الداخليـة التي تقع في قلب العمل الأدبي ؟ وما عسى ان يكون اشتباك هذه العمليات وافضاء بعضها الى بعض ليكمل بها العمل الأدبي ويستقيم كائناً عضوياً حياً ؟ لقد كان المثقفون في القرون الوسطى الاوروبية يجهلون اليونانية فاذا عثروا على ما هو مكتوب بالحروف اليونانيـة تركوه وقال بعضهم لبعض : يوناني فلا يُقرأ .

ثم أصبحت هـذه الجملة كناية يعبر بها عمـا يصعب فهمه ويستعصى تحصيله وتحقيقـه كهذا الكلام الذي نقلت لك طرفاً منه .

والمؤلم حقاً أن الأديبين وامثالهما يظنون انهم يقولون كلاماً يفهم،ويتحدث بعضهم الى بعض بهذا الكلام ويظنون أن بعضهم يفهم عن بعض ، ثم يتحدثون الى الناس بمثل ما يتحدثون به اذا خلوا الى انفسهم ؛ فاذا لم يفهم الناس عنهم رموهم بالجمود وقالوا إنهم من المدرسة القديمة . وما عسى أن تكون هذه المدرسة القديمة الـتي تكتب فيقرأ الناس ويفهمون عنها ، في غير مشقة ولا عناء ، ويستبقون الى قراءة ما تكتب والى تذوقه ويرضون منه عما يرضون ويسخطون منه على ما يسخطون ولكنهم يرضون عن فهم ويسخطون عن فهم وقد يعيدون القراءة استزادة من المتاع واستظهاراً لمـا يحبون ان يستظهروا منه لا طلبـاً للفهم وجداً في سبيل التحصيل والتحقيق وعجزاً آخر الأمر عن الفهم والتحصيل والتحقيق جميعاً .

وكيف يريد الأديبان وامثالهما أن اعرف او انكر مـا يقولون فأنا لا استطيع ان اعرف ولا استطيـع ان انكر إلا بعد ان افهم واحصـل واحقق فأقبل عن بصيرة أو أرفض عـن بصيرة . فأمـا اذا عرضت علي الطلسمات والالغاز التي لا سبيل الى فك رموزها فلست منهـا في شيء وليست هي مني في شيء ، وانما اقرأ ثم اقول كما كان يقال في القرون الوسطى: يوناني فلا يُقرأ.نعم يوناني فلا يُقرأ،حتى اعرف قلب العمل الادبي وحتى اعرف هذه العمليات التي تقع او تحدث او تجري في داخل هذا القلب

وحتى أعرف هذا الاشتباك الذي يكون بين هذه العمليات وكيف يفضي بعضها الى بعض .

وقد ذكر الاديبان بعض كتابنــا القصّاص على انهم يحسنون كتابة القصة على هذا المذهب الذي صوراه في هذه الطلسمات والالغاز ، وهم الاساتذة محمود تيمور وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ .

وأنا أزعم أن هؤلاء الكتاب من قصاصنا المجوديـن ليسوا احسن مني حظاً حين يقرأون هذا الكلام ، واخشى ألا يجدوا مثل ما اجد من الصبر على قراءتـــه مرة ومرة لأنهم يؤثرون أن ينفقوا وقتهم فيما ينفعهم وينفــع الناس وان يقرأوا ما يجدون من ورائه طائلاً وما يظفرون فيــه بغذاء للعقل أو متعة للقلب والذوق .

فأما قلب العمل الادبي وداخله الذي تجري فيه العمليات وما يكون بين هذه العمليات من اشتباك وافضاء ، وهذه الكائنات العضوية الادبية التي تخرج من هذه العمليات فما اظن انهم يحفلون بها او يطيلون عندها الوقوف .

ولولا اني لا احب أن أقسو على الاديبين الكريمين ، كما قسا عليهما الاستاذ العقاد ، لرحمتهما واشفقت عليهما من هذا العناء الذي لا غناء فيه لهما ولا لغيرهمــا من الذين يقرأون هذه الطلسمات التي لا استطيع ان احقق لهـــا رأساً أو ذيلاً ، ولكن كلاً ميسر لما خلق له كما يقال. واكبر الظن انهما خلقـــا كما خلق امثالها لهذه الاحـــاجي والفنون

من اللغز ينفقون فيها أوقاتهم ويريحون فيها قراءهم من الكلام الواضح الذي يفهم فيدعو الى التأمل والتدبر والتفكير .

واقرأ ان شئت نتائج هذا الكلام التي استخلصها الاديان من بحثها هذا العجيب الظريف :

« ونحب ان نستخلص مما سبق ان ذكرنا الامور الآتية:

اولاً – ان مضمون الأدب في جوهره احداث تعكس مواقف ووقائع اجتماعية .

ثانياً – ان الصورة الادبية او الصياغة عملية لتشكيل هذا المضمون وابراز عناصره وتنمية مقوماته .

ثالثاً – ان تحديد الدلالة الأجتماعية للمضمون الادبي لا يتعارض مع توكيد قيمة الصورة أو الصياغة بل يساعد على الكشف على كثير من الاسرار الصياغية .

رابعاً – ان النقد الادبي – على هذه الاسس السابقة – ليس دراسة لعملية الصياغة في صورتها الجامدة فحسب بل هو استيعاب لكافة مقومات العمل الادبي وما يتفاعل فيه من علاقات واحداث عمليات . وبهذا يصبح الكشف عن المضمون الاجتماعي ومتابعة العملية الصياغية للعمل الأدبي مهمة واحدة متكاملة .

خامساً – ومن هذا تقرر كذلك ان العلاقة بين الصورة والمادة او بين الصياغة والمضمون لا تكون علاقة متآزرة متسقة إلا في الاعمال الادبية الناجحة . اما العمل الادبي

القاشل كذا ... فهو ذلك العمل الذي يقوم بين صياغته ومضمونه تخلخل وتنافر وعدم اتساق . وعلى هـذا فان المدارس الفنية التي تهتم بالشكل كالسريالية (كذا) والمستقبلية مثلاً مدارس فنية غير مكتملة .

هذه هي الأسس العامة التي تقوم عليها حركتها النقدية والابداعية على السواء . وبهذه الأسس نجـد انفسنا على خلاف بيّن مع اصحاب المدرسة القديمة » .

وهذا الكلام نفهم بعضه في عناء ولا يفهم بعضه الآخر إلا عند قائليه او كاتبيه ان استطاعوا له فهماً . والذي يفهم منه كلام يقال ، فاذا حققته لم تجـد له معنى ذا خطر او قل لم تجده صحيحاً .

فالذي زعم الاديبان من ان مضمون الأدب في جوهره احداث تعكس مواقف ووقائع اجتماعية . فكل اثر ادبي لا يصوّر المواقف والوقائع الاجتماعية عند هؤلاء السادة ليس أدباً . ومعنى ذلك ان الأدب لا ينبغي ان يصف الطبيعة التي نعيش معها على هذه الارض فالأنهار والاشجار والجبال والسهول والوديان والحيوان وما شاء الله من هذه الاشياء التي تتألف منها الطبيعة لا تصلح موضوعاً او مضموناً للأدب فيما يرون . والسماء ونجومها وكواكبها لا يمكن ان تكون موضوعاً للأدب لانها ليست مواقف ولا وقائع اجتماعية . والرياح العاصفة والنسيم العليـل والحر والبرد والسحاب والمطر والبرق والرعـد لا يمكن ان تكون

موضوعاً للأدب لانها ليست مواقف ولا وقائع اجتماعية ، واحساس الفرد وشعوره ومناجاته لنفسه عما يجول في ضميره من الخواطر وما يثور في قلبه من العواطف وما يضطرب في نفسه من المعاني لا يمكن ان يكون موضوعاً للأدب لانها ليست مواقف ولا مواقع اجتماعية .

وقس على هـــذا كل ما تصوّر شيئاً غير المواقف والوقائع الاجتماعية لا يمكن ان يكون موضوعاً للأدب . وكذلك تلغي اكثر الادب القديم والحديث لانه لا يصوّر البؤس والجوع وحاجة الناس إلى ما ييسر حياتهم .فالانسان عند هؤلاء السادة وعند اساتذتهم ايضاً قد خلق ليأكل ويشرب ويحيـــا حياة ميسرة ، فجده وجهاده وتفكيره وتدبره وتأمله وشعوره وعواطفه — كل هذا يجب ان يتجه إلى شيء واحد ليس غير وهو تيسير الحياة الاجتماعية وارضاء حاجات الناس التي تتصل بأجسامهم وحدهـــا . فصفوة الشعر الذي قال القدماء والمحدثون وصفوة النثر ايضاً ليس أدباً لانها لا يصوّر مواقع ولا مواقف اجتماعية إلا قليلاً . فمن شاء ان يلغي عقله وضميره وقلبه وروحه وان يصبح جسماً ليس غير فليسرع إلى المدرسة التي يدعو اليها هؤلاء السادة ليأكلوا مريئاً وليشربوا هنيئاً وليناموا وادعين وليكونوا كهذه الأدوات الكثيرة التي نسخرهـــا لمرافقنا المختلفة .

هذا مثل لما يفهم من كلام الأديبين الكريمين . فأما ما

لا يفهم منه فكثير لا ادلك عليه لأنك لست محتاجاً الى ان يدلك عليه احد . ومن الطبيعي ان يكون هؤلاء السادة على خلاف شديد الوضوح مع المدرسة التي يسمونها القديمة اي التي تقرر ان الانسان ليس جسماً فحسب وانما هو جسم وروح ، وان القيم ليست طعاماً وشراباً ودوراً وثياباً وانما هي خير وشر وحق وباطل وجمال وقبح الى آخر هذه الاشياء التي عاشت عليها الانسانية قبل ان تنشأ هذه المدرسة الحديثة في اواسط القرن الماضي .

ومن هنا نفهم ان يكون شعر إليوت غير ذي خطر لان هـذا الشاعر الانجليزي مسيحي متعمق يؤمن بأن له قلباً وعقلاً وروحاً وتسمو نفسه الى ما فوق المادة فهو لا يفزع للمواقف والوقائع الاجتماعية بالمعنى الذي يفهمه هذان الاديبان الكريمان وأمثالها من اصحاب المادة الخالصة في الحياة .

اما الشاعر الروسي مايكوفسكي فشاعر عظيم حقاً عند هؤلاء السادة لانه يمجد الحضارة الصناعية التي تتيح للناس ان يأكلوا ويشربوا ويناموا وينعموا بحياة رضية راضية .

ومن هنا ايضاً كان الكاتب الأيرلندي جيمس لويس غير ذي خطر لانه عني في قصته المشهورة اوليس بالضمير الفردي ووصف الانهيار النفسي وتحلل الشخصية الفردية . فأما الكاتب الروسي ايليا اهرنبورج فكاتب عظيم مـا في ذلك شك لانه يصور الحياة الاجتماعية ومقـاومة النازية

الالمانية في قصته العاصفة . ومثل هؤلاء السادة عندي مثل ذلك الاعرابي الذي اقبل من سفر بعيد وكان متعباً مكدوداً قد آذاه الجوع فلم يدخل على أهله حتى وجد زوجته قد رزقته صبياً اثناء غيبته ، واقبل من في الدار ومن في الخباء يقدمون اليه ابنه ويطرونه فأعرض عنهم مغضباً وقال : ماذا أصنع به أآكله أم أشربه ! وفهمت عنه زوجته العليلة فقالت : غرثان فاربكوا له . تريد انه جائع فأعدوا له طعاماً . فهؤلاء السادة لا يعرفون من الادب او لا يحبون ان يعرفوا من الادب الا ما يصور جوع الجائعين الذين يجب ان يقدم اليهم الطعام .

فأما انا فقد شهد الله اني احسست الجوع فلم يشغلني عما يمتع القلب والذوق والعقل ، وأحسست الشبع فلم يشغلني عن جوع الجائعين وحاجة المحتاجين . وانا من اجل ذلك أحب الادب الذي يصور المواقف والوقائع الاجتماعية اذا احسن تصويرها ، وأحب الادب الذي يصور حياة الروح وطبيعة الارض والسماء والجو والبحر اذا احسن تصويرها ايضاً . وانا من اجل ذلك اجد المتعة في شعر إليوت وقصص جيمس جويس كما اجدها في شعر مايكوفسكي وقصص ايليا اهرنبورج .

كل ما في روعة وجمال يروقني ويشوقني ويمتعني ويرضيني مهما يكن موضوعه . لا انفر من الادب المادي لأنه مادي ولا احب الادب الروحي لأنه روحي وانما

انفر من الآثار التي لا تحقق معنى الادب ولا تهدي الى ما ينبغي ان يهدي الادب اليه من هذا الشعور بالجمال سواء أصوّر المادة أم صوّر الروح .

ولا عليّ ان أكون من المدرسة القديمة او من المدرسة الجديدة فهذا كله كلام يقال ، ولم يخدعني الكلام عن حقائق الاشياء قط . وبعد هذا كله أحب ان أسأل هؤلاء السادة ان يتفضلو فيبينوا لي في وضوح وفي كلام يفهمه مثلي من اوساط الناس ما عسى ان يكون مضمون الادب هذا أهو المعاني أم هو الحقائق المادية والمعنوية التي تنعكس في هذه المعاني ؟ مـــا الذي يجدونه في شعر مايكوفسكي حين يمجد الصناعة ؟ أيجدون المصانع وأدواتها ام يجدون صور هذه الصناعة والادوات وصور إنتاجها وصور الآثار التي يحدثها هذا الانتاج في الحياة الاجتماعية . أليسوا يحمدون هذه الصور حين تحسن التأدية للحقائق الاجتماعية والدلالة عليها ؟ وهذه الصورة ما هي : أمادة هي أم معنى ؟ فان تكن مادة فكيف يتاح لهذه المصانع الضخمة وهذه الادوات الثقال وهؤلاء العمال ورؤسائهم ومهندسيهم ومديريهم وما ينتجون وهؤلاء الناس الذين لا يحصون والذين يتقدمون بثمرات هذا الانتاج ، كيف يتاح لهذا كله وهؤلاء الناس كلهم ان يجمعوا اشخاصهم واعيانهم بين دفتي كتاب وان تكن صوراً ، ففيم الاخذ والرد والجدال الذي لا يغني في ان نسميها صوراً أو نسميها معاني ؟

وارجو للملك ان يجيبني هؤلاء السادة في وضوح واضح وجلاء لا لبس فيه ما عسى ان تكون هذه الصياغة ، أهي التأليف بين المعاني او بين هذه الصور لتلتئم وتأتلف والدلالة عليها بالألفاظ التي تؤديها إلى القراء ؟ ام هي شيء آخر ؟ فان تكن الاولى ففيمَ الاخذ والرد والجدال الطويل ، وقد قلت لهم إن الالفاظ وحدها لا تغني شيئاً ، وان المعاني وحدها لا تغني شيئاً ، وان الأدب لا يكون إلا اذا ائتلفت المعاني فيما بينها وائتلفت الالفاظ فيما بينها وبين المعاني . كان الجمال الفني هو الذي ألف بينهما فأحسن التأليف . وان تكن الصياغة شيئاً آخر فما عسى ان تكون ! وأحب ان يريحوا انفسهم ويريحوا قراءهم من قلب العمل الأدبي وداخله والعمليات التي تجري فيه واشتباك هـــذه العمليات وافضاء بعضها إلى بعض ، فقد احب ان اقرأ لهم كلام الأيقاظ لا كلام النيام ..

أما بعد فقد شغلني الحديث عن هؤلاء السادة والحديث اليهم عما كنت اريد ان أوجه إلى الاستاذ العقاد من شكر جميل على ما أهدى اليّ من تحية كريمة في مقاله الاخير . وعلى ما اهدى اليّ من تعزية ايضاً . ولعل الاستاذ يعلم اني لم احفل قط بأن اكون عميداً لأدب قديم أو جديد ولم اعترف لنفسي قط بعمادة لهذا الأدب او ذاك . ولم يعنني قط ان تأتي هذه العمادة من المجددين او المحافظين لأني لا اعرفها ولا اقرها ، فضلاً عن ان اطلبها او اطمع فيها أو اتلقاها من أي ناحية تجيء .

كما شغلني الحديث عن هؤلاء السادة واليهم عن ان أؤكد للاستاذ العقاد أني قرأت كثيراً جداً من الدراسات النفسية ، ورضت نفسي على كثير من العناء في قراءة هذه الدراسات حتى استقامت لي وأصبح من اليسر عليّ ان اقرأها في غير مشقة ولا جهد . فاذا اذن لم أنكر اقحام التحليل النفسي في الدراسات الأدبية بالقياس إلى القدماء خاصة عن جهل لهذه الدراسات . وانمـــا أنكر ذلك لأن القدماء لا يصلحون موضوعاً للتحليل النفسي إلا على نحو من التجوز لا يغني من العلم الصحيح شيئاً .

والاستاذ العقاد يعلم ان الدراسات النفسية ألوان مختلفة فنها الدراسات النفسية القديمة التي لا تعتمد على التجربة في المعامل وانما اعتمدت على الملاحظة .. ملاحظة الفرد لنفسه وتحليل ما يجد حين يشعر ويفكر وحين يرضى ويسخط وحين يفرح ويحزن . وملاحظة الفرد لغيره من الناس حين يقفون هذه المواقف ويتعرضون لمثـــل ما يتعرض له من الشعور والتفكير .

ومنها علم النفس الذي يعتمد على التجربة والاختبار في المعامل المخصصة لها . وأحب ان أقول للاستاذ اني حين كنت عميداً لكلية الآداب منذ وقت طويل جداً جعلت دراسة علم النفس التجريبي جزءاً أساسياً مـــن الدراسات الفلسفية في الكلية ، وحاولت اول محاولة لانشاء معمل لهذه الدراسات التجريبية في علم النفس .. وعـــلم النفس

التجريبي هذا ليس يسيراً يقتصر على مذهب واحد وانما هو معقد أشد التعقيد يذهب فيه العلماء مذاهب مختلفة ما أظن الاستاذ في حاجة إلى ان أدله عليها . ولست أدري أشهد الاستاذ العقاد تلك المحاضرات التي ألقاها استاذ عظيم من اساتذة علم النفس التجريبي هو الاستاذ الفرنسي دوما . وكنت انا الذي دعاه إلى القاء هذه المحاضرات ، وقد اعتمد في افهام الطلاب والمستمعين ما أراد ان يوجه اليهم من حديث على الصور الشمسية التي عرضها عليهم بالفانوس السحري كما يقال .

فلست اذن غريباً عن هذه الانواع من الدراسات النفسية التي يفرغ لها الفلاسفة ويفرغ لها كثير من الاطباء ايضاً . فأما التحليل النفسي فشيء يعنى به الاطباء خاصة ويفرغ له بعضهم ويقفون عليه جهدهم وتعليمهم وتأليفهم . وهو يدرّس في بعض كليات الطب الاوروبية ويهمل في بعضها الآخر . وقد قرأت لبعض هؤلاء الاطباء كتباً منها ما انكرته وجادلت فيه لأنه اتخذ الذين مضوا من الناس موضوعاً لكتبهم ككتاب الاستاذ لافورج الفرنسي عن تليران . ومنها ما لم أبح لنفسي الجدال فيه لأنه يعتمد على التجربة المباشرة والملاحظة الشخصية . ولست من هذا كله في شيء .

والاستاذ يعلم ان كلية الآداب في جامعة ابراهيم تعنى بعلم النفس التحليلي هذا ، واستاذه طبيب تخرج في باريس

وهو معروف في البيئات الاجنبية التي تعنى بهذه الدراسات ، وبينه وبيني خطوب حين يتحدث الى فنون من الاحاديث في هذا اللون من العلم ، او بعبارة اصح في هذا اللون من الدرس . فأنا أزعم ان التحليل النفسي بهذا المعنى لم يصبح علماً بعد ، وانما هو في طور المحاولات التي قد تنتهي الى ان تصير علماً في يوم من الأيام .

ومن الناس قوم يسرفون أشد الاسراف في الاذعان للتحليل النفسي حتى يبلغوا صور الاضحاك ويتعرضوا لشيء من السخرية : قد حُدثت ان بعض الاميركيين لا يعرضون انفسهم على جراح الاسنان إلا بعد ان يعرضوا أنفسهم على الطبيب النفسي ، ولا سيما اذا احتاج احدهم إلى ان ينزع احد اضراسه . ومن جراحي الاسنان الاميركيين من لا ينظر في فم المريض إلا بعد ان ينظر الطبيب النفسي في ضميره .

وأحب ان اعترف للاستاذ العقاد بأني ما زلت الى الآن غير مؤمن بالعيادات النفسية التي اخذت تكثر في هذه الأيام .

والذي اريد ان اصل اليه من هذا النوع كله هو اني حين أنكرت إخضاع ابي نواس لهذا النوع من التحليل النفسي كنت اعلم حق العلم ما كنت اقول . وكنت اعمد اليه عن ارادة وبصيرة وثقة لأني ارى كل مـــا ينتج من اخضاع القدماء لهذا التحليل ضرباً من الظن لا يرقى الى العلم ولا ينتهي بأصحابه الى اليقين ولا يلزم قراءه الاقتناع

به والاطمئنان اليه . وما زلت ارى هذا الرأي لم يصرفني عنه الاستاذ العقاد بما كتب في مقاله الاخير ، وما ارى انه سيصرفني عنه الآن على اقل تقدير .

وخير من انفاق الجهد في هـــذه المحاولات ان ينفق الأستاذ العقاد وانفق انا ما نملك من الجهد في المدرسة الفنية الأدبية لشعر ابي نواس وغيره من الشعراء القدماء . وهنا لا نستطيع ان نستغني عن نتائج علم النفس سواء أقام على الملاحظة ام على التجربة . واقول علم النفس ولا اقول التحليل النفسي فالفرق بين هذين النوعين واضح احدهما وهو الاول علم لا شك فيه والثاني محاولة لم تصبح بعد علماً .

وملاحظة اخيرة وهي ان عدول ابي نواس عن ذكر الاطلال لم يكن مقصوراً على ابي نواس وحده في ذلك العصر ، وانما كان نوعاً من البديع الذي ظهر في تلك الايام . وأحب ان يُفهم البديع بمعنى التجديد . وفي كتب الادب على اختلافهـــا كلام كثير عن تسخيف الذين يذكرون الاطلال من الشعراء وهم يعيشون في المدن ويذكرون الصحراء وهم لا يرونها ويذكرون الابل وهم لا يركبونها . وابو نواس نفسه يلمّ بهذا المعنى في القصيدة التي اولها :

صفة الطلول بلاغة القدم

فاجعل صفاتك لابنة الكرم

فيذكر في هذه القصيدة ان الذين يصفون الاطلال من

شعراء الحضر مقلدون يقولون بما لا يعلمون .

أفيرى الاستاذ ان كل من ذهب هذا المذهب من الشعراء والادباء قد كان عليل النفس بالنرجسية او غيرها من هذه العلل التي ينظرها اصحاب التحليل النفسي .

فأما البيت الذي رواه الاستاذ العقاد لأبي نواس في ان خليفة او اميراً او وزيراً امره بوصف الطلول وهو قوله :

دعاني الى وصف الطلول مسلط
تضيق ذراعي ان اجوز له امرا

فلا غرابة فيه مطلقاً ، فقد كان الرشيد والامين يلومان ابا نواس في استهتاره بالجديد واغراقه فيه ويعنفان عليه في اللوم ويحبسانه في الجهر بوصف الخمر وشربها كما يحبسانه في الشعوبية وذم العرب والاسراف في تفضيل بعض القبائل على بعض وفيما اتهم به احياناً من الزندقة . فأي غرابة في ان يأمره احدهما او احد وزرائهما بوصف الطلول تمتعاً به او امتحانــاً له ؟ وما حفظ من هذه القصيدة يدل على ذلك دلالة واضحة .

واعيد على الاستاذ العقاد ملحــاً ان الخير له ولقرائه ان يبذل في الدرس الفني لأبي نواس شيئاً من جهده الخصب ، ذلك اجدر به واجدى على القراء .

الحياة في سبيل الادب

نعم الحياة في سبيل الادب ، وما خطبها ؟ أتستحق او لا تستحق ان يعنى بها الكتاب ويخصصوا لها من حين الى حين فصولاً طوالاً او قصاراً يعرضون فيهـــا خطوبها العظام ، واهوالها الجسام ، ومشاكلها التي لا تحصى ؟

فقد شبعنا من الادب في سبيل الحياة حتى ادركتنا الكظة او كادت تدركنا ، وان كنت انا لم اؤمن بعد بهذا المذهب الذي نُقل الى مصر نقلاً في غير تثبت ولا تمحيص .

وآن لنا فيما يظهر ان نعرض للحياة في سبيل الادب ، فقد نجد فيها ما يلذ ، ويمتع وقد نجد فيها ما يسلي الهم ويعزي قليلاً او كثيراً عن هـــذه المحن الكثيرة المتصلة

التي تصيب الادباء في ذات نفوسهم وفي اكرم الاشياء عليهم وآثرها عندهم والتي قد تعرضهم للأخطار التي لا سبيل الى وصفها ولا الى تقريرها لانها قد تنتهي احياناً بالاديب الى المحنة الكبرى التي لا علاج لها ولا انصراف عنها ، وهي الموت في سبيل الرأي العام او في سبيل كلمة تقال وليس من قولها بد .

ولأمر ما قال الشاعر القديم :

يموت الفتى من عثرة بلسانه

وليس يموت المرء من عثرة الرجل

وعثرة اللسان هذه قد يكون مصدرها الحمق وقد يكون مصدرها حب الحق والحرص على النصح للناس وان كرهوا النصح والناصحين . والمحن لا تعرض للادباء وحدهم لانهم يقولون ما لا يرضي الناس ، ولكنها تعرض للفلاسفة ، وتعرض للمصلحين ، وتعرض للذين يحاولون ان يلقوا في روع الناس ما لم يألفوا وما لم يحبوا ، ويريدون ان يحملوهم على منهج جديد من مناهج الحياة مخالف للمناهج التي آثروها بالحب ووصلوا بها قلوبهم وعقولهم وصلاً وكرهوا ان يزعجهم الناس عنها بعد ان طال اطمئنانهم اليها .

وهذه المحن انما تعرض للادباء والفلاسفة والمصلحين لانهم لم يملكوا ألسنتهم ولا اقلامهم ، وانما ملكتهم ألسنتهم واقلامهم فاستجابوا لها ، ولم يمتنعوا عليها لأن هذه الاقلام

وتلك الالسنة انما كانت تترجم عن قلوبهم وعقولهم وعما ملأها من الخواطر والعواطف وعما ملكها من المذاهب والآراء .

لم يكن سقراط معروفاً بقول الشعر ولم يكن معروفاً بكتابة النثر بل يحدثنا مؤرخه بأنه لم يترك اثراً مكتوباً نظماً او نثراً ، وانما انكر كثيراً من حياة معاصريه في نفسه ثم ملأ عليه هذا الانكار عقله وقلبه ، ثم فاض هذا الانكار على لسانه ، فانطلق يتحدث به الى الناس في انديتهم وملاعبهم وفي حوانيتهم ومتاجرهم حتى ضاق به من ضاق فرفعوا امره الى القضاء الذي قضى عليه بالموت بعد ان سمع لخصمه وسمع له ورأى انه لا ينكر من آرائه ولا من مذاهبه شيئاً .

فلسان سقراط هو الذي قضى عليه بالموت اذن ، لأن سقراط لم يحسن امساكه في فمه ، ولم يمنعه من ان يترجم عما كان يضطرب في نفسه من الخواطر والآراء .

والادباء والفلاسفة الذين قضت عليهم ألسنتهم واقلامهم بالعذاب ثم بالمـــوت والذين عرّضتهم ألسنتهم واقلامهم لكثير من الخطوب الطوال ، اكثر من ان احاول احصاءهم في هذا الحديث ، وهم بعد ذلك معروفون لا يجهلهم المثقفون الذين يعنون بتطور الانسان وتنقله بين هذه الاطوار المختلفة من الحياة حتى انتهى الى هذا الطور الحديث الذي يعيش فيه .

وادبنا العربي قد عرف هذه الالوان من المحن وكان له ضحاياه الذين جرّت ألسنتهم الموت على بعضهم والعذاب على بعضهم الآخر والحرمان على كثير منهم .

وكثير من ادبائنا الذين قضى عليهم الموت بتهمة الزندقة في بعض العصور انما قتلتهم ألسنتهم لأنها ملكتهم ولم يملكوها ، لأنها اعربت عن ذات نفوسهم وكان من الممكن أن تمسك عن هذا الاعراب . ولست ادري أقتل بشار لانه كان زنديقاً او لأنه كان اشد انحرافاً عن حقائق الدين من الذين قتلوه ، ام قُتل لأنه لم يملك لسانه فهجا وزيراً من وزراء الخليفة الذي امر بضربه حتى مات ؟

وليس من شك في ان المتنبي قد قتله لسانه حين انحرف به عن العروبة الى مدح الفرس والثناء عليهم ، وكان لسانه خليقاً ان يقتله في غير موقف من مواقفه من اولئك الملوك والامراء الذين اثنى عليهم ثم انحرف عنهم .

وتحضرني وانا أملي هذا الكلام قصة ذلك العالم اللغوي الذي كان يؤدب ابناء المتوكل ان صدقتني الذاكرة ، والذي علّمهم فيما علّمهم ذات صباح ، ذلك البيت الذي رويته آنفاً :

يموت الفتى من عثرة بلسانه

وليس يموت المرء من عثرة الرِّجل

فلما حضر الغداء من ذلك اليوم جلس الاستاذ مع تلاميذه إلى مائدة الخليفة وكان الخليفة قد سُعي اليه بهذا الاستاذ

واتّهم عنده بالتشيع . فسأله اثناء الغداء كالمداعب : أأبنائي احب اليك ام أبناء علي ؟! واجابه الاستاذ بما لم يرضه لأنه لم يملك لسانه فأمر الخليفة به فقتل على نحـــو بشع شنيـع .

والأدباء الذين تعرضوا للفقر والبؤس والحرمان لا لشيء إلا لأنهم أحبوا الأدب وكلفوا به ووقفوا حياتهم عليه اكثر من ان يبلغهم الاحصاء ، وهم ليسوا مقصورين على امة بعينها ، ولا على جيل دون جيل . وما زال في كثير من اقطار الأرض ادباء يسعدون بأدبهم فيما بينهم وبين انفسهم ويشقون بأدبهم فيما بينهم وبين الناس ويتعرضون بأدبهم لصروف كثيرة . فنهم من يتعرض للحرمان او ما يشبه الحرمان ، ومنهم من يتعرض لغضب السلطان سواء أكان هذا السلطان فرداً مستأثراً بالحكم أو برلماناً يدير أمره على الشورى ويقيم حياة شعبه على الحرية والديموقراطية .

وحياة هؤلاء الادباء ، من يمتحن منهم بالشر وهم الاكثرون ومن يتاح لهم الخير وهم الاقلون ، جديرة بشيء من العناية وجديرة بشيء من الرعاية ايضاً ، فقد ينبغي للانسانية بعد ان بلغت ما بلغت من الرقي وعرفت ما عرفت من الحقوق ان تعصم الذين يحيـــون في سبيل الأدب من التعرض للمحنـــة والبلاء . ذلك لأنهم حين يحيون في سبيل الأدب انمـــا يحيون في سبيـــل الذين يقرأون أدبهم من الأجيـــال المعاصرة ومن الأجيال التي

تأتي بعدهم ان اتيح لأدبهم البقاء . وما اكثر ما يتبين الناس بآخرة بعد فوات الوقت حين لا يتاح لهم تدارك ما فاتهم انهم قصروا في ذات هذا الاديب او ذاك وانهم جنوا على هذا الاديب او ذاك . وخير من ذلك بالطبع ان يعصم الناس انفسهم من هذا التقصير وان يكلفوا لهؤلاء الأدباء ولغيرهم من الذين يحيون لعقولهم من الفلاسفة والعلماء واصحاب الفن حياة كريمة تنأى بهم عما يهينهم في انفسهم وعما يشقيهم بحياتهم ، وعما يعرضهم للخطر بسبب آرائهم التي تملك عليهم نفوسهم وألسنتهم واقلامهم التي لا تحسن السكوت ولا السكون .

ولم يخطىء العباس بن الاحنف حين شبه نفسه بالذبالة التي نصبت تضيء للناس وهي تحترق . فليس الاديب والفيلسوف والعالم وصاحب الفن إلا سراجاً يضيء لكثير أو قليل من الناس سبيلهم في الحياة التي يحيونها ، وهو يعطيهم من ذات نفسه ويمنحهم خير ما عنده وهو يشقى ليبعدوه وييتئس لينعموا ويخاف ليأمنوا ، فلا اقل من ان يمنحوه من ذات انفسهم مثل ما يمنحهم من ذات نفسه . ومن ان يردوا عليه بعض ما يهدي اليهم من السعادة والمتعة والنعيم والامن وراحة البال .

واول ما ينبغي ان تكلفه الجماعة المتحضرة للاديب هو الحرية . واريد الحرية الحرة التي يأمن معها الغوائل ولا يتعرض معها لشر او كيد او هوان . فالاديب الحق

حر بطبعه لا ينتظر ان تهدى اليه الحرية من احد غيره ، وانما تولد معه حريته يوم يولد وتنمو معه حين ينمو ، وتصحبه منذ يدخل الحياة الى ان يخرج منها . وهو لا يؤثر في الدنيا شيئاً كما يؤثر الادب الحر . وهو يزدري ادبه اشد الازدراء ويضيق به اعظم الضيق ان فقد حريته في يوم من الايام ، وهذه الحرية التي يجب ان تكفل للاديب وللذين يعملون بعقولهم لا تطلب الى الحكومات وحدها وانما تطلب الى الحكومات والى الشعوب ايضاً . وربما كانت الحكومات في هذا العصر اقل خطراً على حرية الادباء والفلاسفة والعلماء واصحاب الفن من الجماعات . فالحكومات آخر الامر لا تحكم لنفسها في الامم المتحضرة . وهي من اجل ذلك لا تطلب الى الذين يعملون بعقولهم اكثر مما تطلب الى غيرهم من الناس . وهي من اجل ذلك لا تستطيع ان تختص الذين يعملون بعقولهم بالشر او الاذى او الاضطهاد . وهي حتى حين تفرض الرقابة التي امقتها اشد المقت لا تفرضها بالقياس الى هذه الطوائف من دون غيرها من الناس وانما تفرضها بالقياس الى الناس جميعاً لظروف موقوتة ، وهذه الرقابة تزول بزوال هذه الظروف . وقد تخطىء الحكومات حين لا تختص هؤلاء العاملين بعقولهم بألوان من الرعاية تحتاج اليها طبيعة عملهم ، ولكنها على كل حال ليست أشد خطراً عليهم من الجماعات التي تضيق بهم احياناً وتشق عليهم احياناً

وتنتظر منهم اكثر مما تعطيهم ، وتسرف عليهم في اللوم ان اسخطوها وتبخل عليهم بالتشجيع ان ارضوها ، وهي اشبه شيء بالقطط فيما يقول العامة تأكل وتنكر وتأخذ وتمنع . وهي ساخطة دائماً بخيلة دائماً ، تلوم الأدباء اذا لم ينتجوا ، وتستغل انتاجهم حين ينتجون ، ولا تكره ان يحرق الادباء نفوسهم ليضيئوا لها سبلها ، وتكره اشد الكره أن تتيح لهؤلاء الادباء من الحياة ما يمكنهم من احراق انفسهم دون أن يحسوا ألم هذا الحريق الذي يصلون حره في الليل والنهار .

الأدب في سبيل الحياة كلمة تقال وتكتب ولا يكاد الذين يقولونها ويكتبونها يحققون معناها ولا يكادون يحققون نتائجها ايضاً . فما عسى ان تكون هذه الحياة التي يريدون أن يجعلوا الادب وسيلة اليها ؟ .. أهي حياة الاجسام أم حياة القلوب والعقول ؟ .. فان تكن حياة الأجسام ، فما أهون الغاية وما اخطر الوسيلة ، وقد عاشت اجيال الانسانية الى الآن على ان الأجسام وسائل الى ارضاء العقول لا على ان العقول وسائل الى ارضاء الاجسام .

وان كانت حياة العقول والقلوب والأذواق وملكات النفس الانسانية كافة ، فالادب والفن والفلسفة والعلم لا غاية لها إلا ارضاء هذه الملكات وتمكينها من النمو والرقي والسمو الى الكمال بمقدار ما يتاح للناس أن يسعوا الى الكمال . أهي حياة الأفراد أم حياة الشعوب ؟ .. فان

تكن حياة الافراد فما أهون الغاية وما اخطر الوسيلة ، وويل لأدب لا ينشأ إلا لينعم به هذا الفرد أو ذاك .

وأنا بعد هذا لا اعرف هذا الادب الفردي ولا اعلم انه قد وجد في وقت من الاوقات . فالأدب اجتماعي بطبعه كالانسان الذي وصفه ارسطاليس بهذا الوصف منذ اربعة وعشرين قرناً . ولا ينبغي أن تقف عند هذه السخافة التي كثر تكرارها والتي تعيب على الادب القديم انه كان يتجه ببعض فنونه الى الملوك والامراء واصحاب السعة من الاغنياء . فهذا الادب الذي كان يوجه الى هؤلاء الناس قلة ضئيلة بالقياس الى الادب الذي كان يوجه الى الانسان من حيث هو انسان ، وهو على رغم اتجاهه الى هؤلاء الافراد أدب اجتماعي وكثير منه انساني لا يجادل في ذلك إلا المحمقون .

ونحن نقرأ الآن وستقرأ الاجيال غداً وبعد غد ادباً وجه الى هؤلاء الملوك والامراء واصحاب الثراء منذ القرون الطوال اشد الطول ، فلمَ بقيَ الى الآن ولمَ يبقى الى غد وبعد غد ، ولمَ لم يمت مع قائليه ومع الذين وجه اليهم من الاقوياء والاغنياء ! أكان بقاؤه ممكناً لو لم يكن فيه هذا العنصر الاجتماعي الانساني الذي اتاح له البقاء واتاح للاجيال المتعاقبة ان تفزع اليه تلتمس فيه اللذة والمتاع ونعيم النفس وغبطة القلب ورضى الضمير ؟

الادب اذن اجتماعي بطبعه ، وهو موجه بطبعه في سبيل

الحيـــاة بأقوم معانيها وابقاها وارقاها ... حيـــاة العقول والقلوب التي لا تموت ولا يدركها البلى ، لا حياة الاجسام التي تخلق من تراب وتصير الى تراب .

والذين يقولون ويكتبون هــذه العبارة النابية — الادب في سبيــل الحياة — لا يحققون نتائج ما يقولون ويكتبون كما انهم لا يحققون معناه ، كما رأيت . فكلمة الحيـــاة هذه كلمة عامة تنطلق في غير تحفظ ولا تثبت ولا تحديد إلا عند العلماء الذين يدلون بها عــلى معنى بعينه يعرفونه احسن المعرفة ويحــددونه ادق التحديد ، ولا يكاد يخطر للذين يرسلون هذه الكلمة فيما يكتبون مــن الفصول وفيما يديرون بينهم من الحديث على بال .

وانما الحياة عند هؤلاء كلمة مهملة مرسلة تــدل على اشياء ليست بذات حدود واضحة مبينة . فالطعام والشراب حياة ، والنوم واليقظة حياة ، والجــد واللعب حياة . وللحياة بعد ذلك معنى آخر يحبه الناس لانهم لا يحققونـه ولا يحددونه ولانه يغمرهم من جميع اقطارهم . فالحيـــاة بهذا المعنى كل شيء اي انها ليست شيئاً ، لأن كل شيء هذه كلمة يراد بها الاحصاء والحصر مع ان الاشيـــاء لا سبيل الى احصائها ولا حصرها . والادب الحق لا يكره شيئاً كما يكره هذا العموم الفارغ مــن كل معنى دقيق . فأي معنى من معاني الحياة هذه يراد الادب على ان يكون وسيلة اليها ؟ .. أهي حياة العلماء الذين يعملون في معاملهم

أم هي حياة اللاعبين ، أم هي حياة الجادين ؟ .. أم هي حياة هؤلاء الذين يريدون اشياء لا يعرفونها ولا تحققها عقولهم ؟ أم هي كل هذه المعاني جميعاً ؟

كلام يقال ولا يحصل شيئاً . واكبر الظن ، بل الحق الذي ليس فيه شك هو ان اصحاب الادب في سبيل الحياة اذا سألتهم عن هذه الحياة التي يريدونها لم تجد عندهم جواباً مقنعاً ، وانما هي كلمة جاءتهم في بعض ما يقرأون من الكتب والصحف والمجلات فأخذوها على علاتها واستعملوها على غير تحقق ولا تثبت منها . فليحذروا ان تفهم عنهم على وجه لم يريدوه ولم يقصدوا اليه . فقد يفهم منها العامة واشباه العامة ان الأدب يجب ان يسخر في سبيل الطعام والشراب وما يشبه الطعام والشراب من هذه الحاجات المادية القريبة . وقد يفهم منها بعض المثقفين ان الادب يجب ان يسخر لمذهب بعينه من مذاهب الانسانية الحديثة في السياسة والفلسفة والاجتماع ، وهو ان الادب يجب ان يكون مسخراً لاقناع العامة واشباههم بأن الحياة مادة ليس غير ، وبأن الروح وما يتصل بها من العقل والقلب والملكات المختلفة ، اساطير هام بها القدماء وهي لا تغني عن الناس شيئاً .

وما اظن ان اكثر الذين يرددون عبارة الادب في سبيل الحياة يريدون هذا المذهب او يفكرون فيه . فلنتفق اذن ان كان من الممكن ان نتفق على ان الحياة

التي ينبغي ان يتجه اليها الادب والتي يتجه اليها بالفعل كما يتجه اليها العلم والفن والفلسفة انما هي حياة الجماعات الانسانية من حيث انها جماعات طامحة بطبعها الى الرقي والسمو والى الكمال بقدر الطاقة في جميع فروع النشاط التي تبذل فيه جهودها على اختلافها .

واذا اتفقنا على ذلك فاني اتحدى اصحاب الادب في سبيل الحياة واسألهم ان يدلوني على ادب قديم او حديث لم يتجه الى ارضاء هذه الحاجة الانسانية .. الى ترقية الحياة الاجتماعية وتكميلها ونقلها من طور الى طور . وقد يذكرون ادب الذين يريدون الفن للفن ، ولكني انصح لهم بأن يحتاطوا ، فالذين يريدون الفن للفن لا يرتفعون بأنفسهم عن الجماعات الانسانية ولا يجعلون انفسهم ملائكة، ولا يعيشون في السحاب، ولا يلتزمون هذه الخرافة التي تسمى البرج العاجي . ولكنهم يرون للجماعات الانسانية نفسها كما يرون لأنفسهم ان تخلص وقتها وبعض نشاطها وبعض ملكاتها للجمال من حيث هو الجمال ولاداة الجمال التي هي الفن الرفيع ادباً كان او تصويراً او موسيقى او ما شئت من الفنون الجميلة، ويريدون للجماعات الانسانية كما يريدون لانفسهم الارتفاع بين حين وحين عما يتصل بالمنافع العاجلة القريبة الى ما هو ابقى منها وارقى ، يرون ذلك حقاً على كل انسان لنفسه لانه اذكى للعقول ، واصفى للقلوب ، وانقى للاذواق ، واظهر للطباع،واجدر

بعد ذلك كله ان يتيح للانسان حين يعود الى حياته العملية ان يكون اخصب نشاطاً ، واكثر انتاجاً ، واكرم على نفسه من الذين يقفون جهودهم كلها على ارضاء الحاجات وتحقيق المنافع وقضاء المآرب ... وقد يصيب اصحاب هذا المذهب وقد يخطئون ، ولكنهم على كل حال يرون الخير لانفسهم وللناس فيما يذهبون اليه ، فلا جناح عليهم اذن ما داموا لا يؤثرون انفسهم بالخير من دون غيرهم... ولا جناح على غيرهم ان يخالفهم الى مذهب غير الذي ذهبوا اليه .. والمحقق ان الادب الذي لا يتوخى اصلاح الجماعات الانسانية من بعض وجوهها لم يوجد بعد . وان الادب منذ كان كالفن منذ كان ، وكالعلم والفلسفة منذ كانا ، ظواهر اجتماعية لا تستطيع ان تبرأ من ذلك حتى حين تحاوله ولا يستطيع انسان عاقل ان يجادل في ذلك او يشك فيه ...

وقد يرى اصحاب الادب في سبيل الحياة ان ادباءهم المصريين الذين سبقوهم الى الانتاج لم يحققوا ما كان الناس ينتظرون منهم ولم يعرضوا لمشكلات الجماعة المصرية كما كان ينبغي ان يعرضوا لها ، فليطمئنوا فالادب الذي يحقق كل ما كان ينتظر منه لم يوجد بعد .. وما ارى انه سيوجد في يوم من الايام لان الكمال لا سبيل اليه ، ولان الجماعة الانسانية تحيا في تطور متصل ، ومعنى التطور الانتقال من حال الى حال .. ومعناه ايضاً ان تضيف الاجيال الى ما انتجت الاجيال السابقة .. ولا ينبغي ان يلام جيل

سابق لأنه لم يحقق ما يريد جيل لاحق .

وانت لا تنظر من ادباء القرن التاسع عشر في اي بلد من البلاد ان يحققوا ما يريده القرن الذي نعيش فيــه ... والعلماء الذين يعيشون الآن ويستكشفون من قوانــين العلم ما لم تستكشفه اجيال العلماء الذين سبقتهم لا يعيبون هــذه الاجيال ولا ينكرون جهدها ، وانما يحمدون لها ما بذلت من جهد ، ويقدرون ما استكشف من العلم ، ويضيفون اليه ما يستكشفون . وقل مثل ذلك في الذيــن يستغلون قوانين العلم للاختراع والابتكار .

والادباء الذين يُدعون شيوخاً الآن لا يــلامون لأن ادبهم قد لا يرضي نزعات الشباب ، ولا يلامون لأنهم لم يبلغوا ما يطمح اليه الشباب من الكمال الفني ، وانما ينبغي ان يعرف الشباب ما اضافوا الى ادب الاجيال التي سبقتهم وما جددوا بالقياس الى ادب تلك الاجيال .

وقد ينبغي لأصحاب الادب في سبيل الحياة من الشباب ان ينصفوا انفسهم والا يجوروا بها عن القصد وألا يورطوها في هذه الاحكام المخطئة الخاطئة .

فليس من الحق في شيء ان الشيوخ من ادبــائنا قد اهملوا حياة الجماعة او قصروا في علاج مشكلاتها او صرفوا انفسهم عنها عامدين،او غير عامدين. وانما الحق الذي ليس فيه شك والذي لا يجادل فيه الا المحمقون والجاحدون ، هو ان هؤلاء الشيوخ من الادباء . قد خاضوا مشكلات

الحياة المصرية في شجاعة وجرأة واقدام اتمنى مخلصاً ان تتاح لهؤلاء الشباب الذين يطلقون فيهم ألسنتهم بغير حساب.

وقف عند اي شيخ من هؤلاء الشيوخ وقفة المنصف لنفسه ولغيره ايضاً فسترى انه لم ينفق حياته لاهياً ولا ساهياً ولم يضيعها عابثاً ولا لاعباً ، وانما انفقها جاداً كاداً وصابراً مصابراً ، ومقاوماً لما رأى انه الباطل اشد المقاومة واقساها ، ومدافعاً عما رأى انه الحق اعنف الدفاع واقواه ، ومعالجاً من المشكلات الاجتماعية والانسانية ما اتاح له علمه ودرايته وطبعه وتجاربه ان يعالجه .

وحدثني عن شيخ من هؤلاء الشيوخ ألف كتاباً او نشر فصلاً لا يريد بتأليفه او نشره إلا اللهو والعبث ، ولا يقصد بتأليفه او نشره إلا الى ايثار نفسه بالمتاع .. بهذا المتاع الباطل الذي يخطر لبعض الكتاب من الشباب ، ان الادباء قد يؤثرون به انفسهم احياناً وان كنت لا اعرف انا واحداً من هؤلاء الادباء ...

قف عند المازني رحمه الله وحدثني عن كتبه التي قرأها الناس اثناء حياته وهم يقرأونها الآن بعد وفاته . وحدثني اي كتاب من هذه الكتب تستطيع ان تصفه بأنه لغو من القول لا ينفع قراءه حين يقرأونه . وان كتبه كلها تضطرب بين كتب تعليمية كتلك التي تناولت النقد الادبي للقدماء والمحدثين الشرقيين منهم والغربيين ، وكتب اخرى صور فيها تجاربه ومشكلاته التي تعرض لكثير من امثاله

في اطوار الشباب والكهولة والشيخوخة وبيّن فيها كيف لقي هذه التجارب وكيف نفذ منها ، وكيف واجه هذه المشكلات وكيف قهرها واقتحم عقابها ، وهو في تصوير هذه التجارب والمشكلات وفي تصوير ما وجد لها من حلول يفتح لقرائه ابواباً من التفكير ويعرض لهم وسائل تتيح لهم لقاء التجارب كراماً والخروج منها كراماً . وتتيح لهم مواجهة المشكلات مبصرين لما يأتون من الامر وما يدعون .

وهو يخطىء مرة ويصيب مرات ، شأنه في ذلك شأن الناس جميعاً لم يفرض الخطأ من احدهم ضربة لازب، ولم تكتب العصمة لاحدهم في اللوح المحفوظ،وانما هم معرضون للضعف الذي يورطهم في الخطأ وللقوة التي تتيح لهم الصواب. والشيء الذي لا يريد بعض الناس عندنا ان يفهموه ولا ان يقبلوه هو ان الخطأ حق من حقوق الانسان لا ينبغي ان يلام عليه او يدان او يعاقب على التورط فيه . وانما ينبغي ان يُدل عليه في رفق وان ينبه اليه في ود ووفاء . والله الذي هو اقدر القادرين واعدل الحاكمين لا يعاقب الناس على خطأهم كما لا يعاقبهم على نسيانهم، وانما يتجاوز لهم عن الخطأ والنسيان ، وهو قد علمهم ان يبتهلوا اليه فيسألوه ألا يؤاخذهم ان نسوا او اخطأوا ، وهو قد انبأهم بأنه كتب على نفسه الرحمة ، وبأن مغفرته ميسرة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من بعد ذلك

ويصلحون ...

فما بال قوم منا لا يعترفون للانسان بحقه في الخطأ ، وما بالهم يتبعون في ذلك مذاهب الجامحين من اصحاب الدكتاتوريات الطاغية الجامحة التي لا تعفو لاحد عن خطأ ولا تتجاوز لأحد عن نسيان .

ودع المازني الى من شئت غيره من شيوخ الادب من سبق منهم الى جوار ربه ومن لا يزال منهم مجاوراً للناس وحدثني عن كتبهم التي يقرأها الناس والتي اعرض الناس عن قراءتها . أكتبت لغواً وعبثاً أم كتبت تعليماً وارشاداً وتوجيهاً وعلاجاً لأمور رآها الكتاب الشيوخ من المشكلات في حياة الناس ، وارادوا ان يدرسوها ويبينوا للناس مصادرها ومواردها ، وطريق الخروج منها والتغلب عليها ؟

فما عسى ان يكون الادب في سبيل الحياة اذن اذا لم يكن ادب هؤلاء الشيوخ في سبيل الحياة ؟

كل ما بين اصحاب الادب في سبيل الحياة وبيني من خلاف هو ان الادب بطبعه لا يمكن إلا ان يكون في سبيل الحياة . فعبارتهم هذه لا تدل على شيء ولا تجدد شيئاً ولا تدعو الى شيء . كذلك ارى انا . أما هم فيرون انهم قد استكشفوا شيئاً عظيماً وجددوه تجديداً خطيراً، فاذا سألتهم عن هذا الشيء العظيم الذي استكشفوه وعن هذا التجديد الخطير الذي استحدثوه ، لم تجد عندهم رداً مقنعاً

وانما هو كلام عام عموم هذه الحيـاة التي يريدون ان يسخروا الأدب لها . مع أن الأدب مسخر لها بطبعه قبل أن يريدوه بل قبل أن يعرفوه ويشاركوا فيه .

وانا بعد ذلك لا ارى لأحد كائناً من يكون فرداً او جماعة ان يكلف الاديب ان يوجه ادبه هـذه الوجهة او تلك . وانما الاديب حر ان يكتب ما يشاء ويكتب كيف يشاء . والقراء احـرار يقرأون ان شاءوا ويعرضون ان احبوا ويسخطون ان أثار فيهم الادب سخطاً ويرضون ان اثار فيهم الادب رضى ، وليس بين الادب وبينهم إلا هذا . ليس لهم عـلى الاديب حق ان يكتب لهم مـا يشاؤون ، وليس للاديب عليهم حق ان يرضوا على كل ما يكتب ، وان لم يعجبهم ولم يقع منهم موقع الرضى .

هذا كلام قلته الف مرة ومرة ولن امل تكراره وان غاظ بعض الناس واحرج بعض الصدور لأن تكرار الحق لا ينبغي ان يمل .

واعود الى الحياة في سبيل الأدب فأسأل : أيريد الناس الذين يذوقون الادب ويحبونه ان يقدم اليهم هـذا الادب بين حين وحين ام لا يريدون ؟ فان تكن الاولى فأيسرها يوجب عليهم ان يخلوا بين الادباء وبين حريتهم في حياتهم هذه التي يفنونها على الادب وقتاً وان ييسروا لهم هـذه الحياة ويكفلوا لهم هذه الحرية الخصبة ان كان فيهم فضل من خير وبقيـة من حب لأنفسهم ، فهم ينعمون بأدب

الادباء اكثر مما ينعم به الادباء انفسهم ؛ وان كانت الثانية فما عليهم ان يكتب الادباء او لا يكتبـوا ولا عليهم ان كتب الادباء لهم ما يحبون او ما لا يحبون . فقـد ينبغي اذا تخلوا بالخير على الادباء الا يجودوا عليهم بالشر .

ليصدقني القراء ان شيوخ الادباء في هذا العصر الحديث وقدماء الادباء في العصور التي سبقت هذا العصر كانوا أعلم منهم بما للادب عليهم من حق ، وأفقه منهم بما للحيـاة الاجتماعية نفسها عليهم من حق. فلم يضيعوا وقتهم وجهدهم وقوتهم في البحث عن الادب أيكون في سبيل الحياة ام في سبيل الموت ، وانما انفقوا وقتهم وجهدهم ونشـاطهم في قراءة الأدب وفهمه وذوقه وتمثله ، وفي درس هذه الحياة الخصبة الممتعة المليئة بما يسوء وما يسر وبما يحزن وما يلذ، والتي كتب على الادباء ان يحبوها ، ووجدوا في هذا كله متاعاً لانفسهم وللناس ونفعاً لانفسهم وللناس . وانا بعـد ذلك لا اريد من الادباء وحدهم ان يحيوا في سبيل الادب لأنهم ليسوا في حاجة الى ان اريدهم على ذلك فهم ميسرون في طبعهم لهذه الحياة ، وانما اريـد من شباب الادب ان يعرفوا كيف يخلصون نفوسهم وقلوبهم للحياة في سبيـل الادب لا للادب في سبيل الحياة .

واريد اخر الامر من القراء جميعـاً ان يخلصوا جزءاً من نفوسهم وجزءاً من وقتهم وجزءاً من نشاطهم للحيـاة في سبيـل الادب وان يأخذوا انفسم ساعـة من نهار او

ساعة من ليل تقصر او تطول ليفرغوا فيها للقراءة والذوق يقرأون ويفهمون ويذوقون لا ليقضوا الوقت ولا ليلتمسوا من القراءة والفهم والذوق منفعة مادية عملية قريبة او بعيدة بل ليغذوا عقولهم وقلوبهم ويمتعـــوا نفوسهم واذواقهم ، وليشعر كل واحد منهم بأن له ساعـة يؤثرها على ساعات النهار والليل كلها لأنها تشعره وتسعده بأنه انسان بالمعـــنى الصحيح الدقيق الرفيع لكلمة الانسان .

واذا انفق القارىء اكثر يومه حيواناً يجد ويكد ليعيش هذه المعيشة الدنيا التي يحتاج اليها الجسم ، فلا اقل من ان ينفق ساعة يعود فيها الى نفسه ويرتفع فيها على حيوانيتـه ويصير فيها الى انسانيته الرفيعة ويؤمن فيها بأن حيـــاته الحيوانية لم تذهب عبثاً ، وانما اتاحت له ان يكون انساناً لحظات مهما تكن قصاراً فانها عذبة نافعة جديرة بأن تنفق الحياة في سبيلها .

أصداء

•

تصل اليّ بين حين وحين في هذه العزلة التي اويت اليها وقتاً ما ، اصداء ضئيلة نحيلة لخصومات ادبية تثار في مصر .

واحب ان اشكر قبل كل شيء اجمل الشكر واخلصه لبعض ادباء الشباب ما يتفضلون به عليّ اثناء غيابي عن مصر من هذه التحيات الكريمة ، التي ان دلت على شيء فانما تدل على انهم يذكرونني ولا ينسونني . ولا عليّ بعد ذلك ان تكون هذه التحيات ثناء او هجاء ، فكلا الأمرين عندي سواء .

واحب ان يعلم هؤلاء الادباء من شبابنا اني لم اتلـق قط ما يهدى اليّ من الثناء إلا في كثير جداً من التحفظ

والشك ، ولم أتلق قط مـــا يهدى إليّ من الهجاء الا في كثير جداً من الغبطة والرضى . ذلك أني أعرف من مواضع النقص في نفسي اشياء قد لا يعرفها الذين يثنون عليّ ، ولو عرفوها لضنوا بثنائهم او اقتصدوا فيه ..

وأعرف ايضاً من مواضع النقص اكثر مما يعرف الذين يهدون اليّ الهجاء ، فاذا قرأت هجاءهم انتفعت به اولاً وحمدت الله على العافية بعد ذلك .

وقد وصلت إليّ أصداء حملة رقيقة او عنيفة نهض بها بعض الكتاب ليثبتوا اني لا أحسن كتابة القصة بل ليثبتوا اني لا أحسن الكتابة لا في القصة ولا في غيرها .. وهذا كله حق لا شك فيه . فما زعمت في يوم من الايام اني قاص أجيد فن القصص او أقارب جادته . ومن اين لي اتقان هذا الفن او مقاربة اتقانه وانا لم ادرسه في مدرسة ولم أتلق أصوله عن استاذ من اساتذة النقد ، ولم احفظ هذه الشروط العشرة او العشرين او التي هي اقل او اكثر من العشرة او العشرين والتي ليس من حفظها بد ، وليس من رعايتها بد ايضاً ، ليكون الكاتب قاصاً متقنـــاً لفنه ولتكون القصة التي ينتجها رائعة بارعة تستحق ان تسمى قصة وتستحق ان يقرأها القراء ، وتستحق بعد ذلك ان يتخذها القصاص الناشئون نموذجاً ومثالاً .

لم أزعم قط اني قاص لأني لم اتعلم فن القصة ، ولست ادري اين يستطيع الناس ان يتعلموه ولم يرزقني الله هذه

الموهبة فأتقن فن القصة دون ان اتعلم اصوله .

واحب ان ارضي هـؤلاء الادباء الكرام من شبابنا فأؤكد لهم مخلصاً اني لم اعتقد قط اني كاتب جيد ، ولم اصدق قط اني اديب ممتاز ، ولم افهم قط هذا اللقب الذي أهدي اليّ فجأة ومن غير وجه وعلى غير تواطؤ من الذين أهدوه اليّ فسموني عميد الادب العربي .

كل هذه الصفات اهداها اليّ القراء دون ان اطلب اليهم اهداءها ، ودون ان اؤمن بالحق في اهدائهـا اليّ دون غيري من الادباء ، ودون ان اطمئن اليها حين أهديت اليّ . والذين يعرفونني من الخاصة والاصدقاء يشهدون من غير شك اني لم اسمع قط ثناءً عليّ ولا تقريظاً لي الا رفعت كتفي وهززت رأسي ساخراً من نفسي ومعرضاً من هذا الثناء والتقريظ .

فليطمئن الادباء من شبابنا وليعلموا انهم حين يسيئون الظن بأدبي وباتقاني لفن القصة او غيره من الفنـون لا يبلغون من سوء الظن بعض ما أبلغ انا حين انظر الى نفسي وحين انظر الى ما انتج من الآثار .

وأنا اريد ان ازيدهم رضى الى رضى واطمئنانـاً الى اطمئنان فأؤكد لهم مرة اخرى ان سوء الظن بنفسي وادبي لا يقف عند هذا الحد الذي صورته لهم . وانما يتجاوزه الى اشياء اخرى لست ادري كيف لم تخطر لهم الى الآن . فبعضهم مثلاً يراني أزهرياً ، وقـد نشأت في الأزهر

ما في ذلك شك ، ولكن ما رأيهم في ان الازهريين قد لفظوني منذ زمن بعيد ؟ أقصوني عن الازهر حيناً ما ثم ردوني اليه بعد ذلك . فلما تقدمت لامتحانهم نهائياً وظننت اني سأظفر باجازته الأخيرة ردوني عن هذه الاجازة اعنف الرد ، فحمدت الله على السلامة ، وقنعت من الغنيمة بالاياب . انا اذن ازهري عند بعض الناس وغير ازهري عند الازهريين انفسهم ، فأنا ساقط بين كرسيين كما يقول الفرنسيون . يرفضني الازهريون لأنهم لم يمنحوني اجازتهم ، ويرفضني المثقفون ثقافة اجنبية لأني ازهري لا اعرف من ثقافتهم الاجنبية هذه الا القشور . والغريب ان كلمة القشور هذه قد كتبت علي منذ اول الشباب ، فقد كان شيوخنا في الازهر يعيبون علي طلب الادب اللذي كانوا يرونه قشوراً والتقصير في طلب اللباب الذي هو العلم الازهري الخالص .

كنت طالباً للقشور عند الازهريين ، وانا متعلق من الثقافات الاجنبية بقشورها عند المتأصلين في هذه الثقافات . فأنا صاحب القشور شاباً وصاحب القشور شيخاً . قد كتب علي الا اعرف من كل شيء الا قشوره . ورحم الله لبيداً فقد احسن لي ولأمثالي النصيحة حين قال :

فاقنع بما قسم المليك فانما
قسم الخلائق بيننا علاّمها

وأذكر اني حين كنت استاذاً في الجامعة كنت اصدر

بعض الكتب كما يصدر الاساتذة الجامعيون بعض الكتب . فكان الناقدون لهذه الكتب يقولون ما لهذا الرجل وللبحث العلمي والادبي مع انه ليس منهما في شيء ؟ هلا انفق جهده في هذا الادب الخالص الذي يحسنه ، وفي هـذه الفصول الادبية التي يتقنها وتنشرها له الصحف راضية ويقرأها القراء مشغوفين بها ؟ فاذا اصدرت كتاباً من كتب الادب الخالص قال الادباء الخالصون المخلّصون مـا لهذا الرجل وللأدب يخوض فيه وليس منه في شيء وانما هو صاحب بحث ادبي وعلمي فما له لا يقصر جهده على ما يحسن ؟ وما له لا يعيش جامعياً كما اراد الله له ان يعيش ؟ وما له يقحم نفسه فيما لا علم له به ولا غناء له فيه ؟ أنكرني الجامعيون اذن في بعض الوقت، وانكرني غير الجامعيين من الادباء في بعض الوقت ايضاً .

وكذلك كنت دائماً ضائعـاً يأبى الازهر ان اكون ازهرياً ، ويأبى غير الازهريين الا ان اكون ازهرياً ، وتأبى الجامعة ان اكون جامعياً ، ويأبى غير الجامعيين من الأدباء ان اكون جامعياً . ويصدق في قول جرير في هجاء بعض معاصريه :

ويسقط بينهـا المرئي لغواً
كما القيت في الدية الحوارا

والغريب اني لم احاول ان افرض نفسي على الازهريين ولا على غير الازهريين كما لم احاول ان افرض نفسي على

الجامعيين ولا على غير الجامعيين ، وانما حملني الله عز وجل عبئاً من اعباء الحياة فحاولت ان انهض به كما استطعت ، فأرضيت قليلاً من الناس ثم لم ألبث ان اسخطتهم ، وأسخطت كثيراً من الناس ثم لم ألبث ان ارضيتهم ، ثم اضطربت الامور اي اضطراب واختلطت اي اختلاط وانما انا الآن لا افرق بين الراضين عني والساخطين عليّ لأني لا اميّز اولئك من هؤلاء. واغرب من هذا كله اني لم ارض عن نفسي قط ولم اعرفها في يوم من الايام ، وانما سخطت عليها دائماً وانكرتها دائماً . واشد من هذا كله غرابةً اني لا استطيع ان احمل نفسي على الصمت الذي يريحني ويريح مني . لا استطيع ان احمل نفسي على الصمت لأنها تأبى الا الكلام حين يوجد موضع الكلام ، ولأني ان اكرهتها على ما لا تحب واضطررتها اضطراراً إلى الصمت وحملتها على الاغراق فيه جاءني الراضون عني والساخطون عليّ فاستكرهوني على القول وأخرجوني من العزلة وخلطوني بأنفسهم واشركوني في خصوماتهم ومشكلاتهم التي لا تنقضي .

ليسخط عليّ من ادباء الشباب والشيوخ من شاء اذن ، فلن يكون سخطهم عليّ مهما اشتد اعظم من سخطي على نفسي ، وليرضَ عني من شاء من ادباء الشباب والشيوخ ، فلن يستطيع رضاهم عني مهما يعظم ان يرضيني عن نفسي ، ولكنّ هناك شيء لا افهمه على كثرة ما حاولت ان افهمه .

فقد وصلت إليّ اصداء تنبئني بأن بعض ادبائنا لا يرون اني لا احسن كتابة القصة فحسب بل يرون اني عقبة في سبيل اتقان القصة . اعترف بأني لا افهم هذه العقبة ولا اعرف من اين تأتي ولا اعرف كيف تكون . فالاصل ان الذين لا يحسنون فناً من الفنون لا يكونون عقبة في سبيل احسان هذا الفن وانما يمر المجوّدون للفن بهم كراماً لا يأبهون لهم ولا يقفون عند فنهم ذالك الرديء . واشهد ان كتاباً مجودين للقصة في مصر قد كتبوا فأحسنوا الكتابة وقصّوا فأجادوا القصص ، لم احل بينهم وبين الاحسان والاجادة . فقد احسن الاستاذ تيمور وجوّد ، وما اراه شعر قط اني كنت عقبة في سبيل احسانه وتجويده . واحسن غيره من قصاص الشباب وجوّدوا ولم يروني عقبة في سبيل احسانهم وتجويدهم .

وما أريد مع ذلك ان اكون عقبة في سبيل احد ، ولكني احب ان يعلمني هؤلاء الادباء كيف ازيل هذه العقبة من سبيلهم وكيف الغيها من طريقهم الغاءً . أيكون هذا بالاعراض عن الكتابة وبالتزام الصمت ، ومن الذي يملك ان يكره انساناً على الصمت او يخرج عليه في الكتابة .

وقد انبأت هؤلاء الادباء بأني حاولت ذلك فلم تجبني نفسي ولم يجبني الناس اليه . أيكون ذلك باستصدار قانون يكرهني على الصمت اكراهاً ويحظر عليّ الكتابة حظراً ؟

وكيف السبيل الى استصدار هذا القانون والاصل ان القوانين لا تشرع لأفراد بأعينهم ، وإنما تشرع للكافة ؟ وما اعرف ان حكومة في مصر او غير مصر تستجيب لمثل هذا السخف فتشرع قانوناً او تصدر امراً يفرض الصمت على رجل بعينه من الناس . أيكون هذا باستصدار قانون يحيل الكتّاب على المعاش اذا بلغوا سناً بعينها ولتكن من الستين مثلاً ؟ ولكن ما ذنب كتاب آخرين ليسوا عقبة في سبيل القصة وليسوا عقبة في سبيل شيء ولا في سبيل انسان ؟

ما ذنب هؤلاء الكتّاب وما ذنب قرائهم الذين يؤثرونهم بالحب ويقرأون لهم مشغوفين بهم حراصاً عليهم ؟ ام يكون هذا بأن يمنع القراء من قراءة ما أكتب لتخلو لهؤلاء الادباء ، وجوه القراء ؟ ولكن كيف السبيل الى منع القراء من ان يقرأوا ؟ أيكون هذا بقانون ؟ فقد عدنا الى الشطط الذي اشرت اليه آنفاً . ام يكون هذا بتكوين عصابات تطوف على الناس وتتقصى امورهم وتعاقبهم ان قرأوا مما اكتب قليلاً او كثيراً ؟ ولكن كيف يستقيم تكوين هذه العصابات وتعقبها للقراء في بلد متحضر يقوم امره على حماية الأمن والنظام وكفالة الحرية للناس يكتب منهم من يشاء ان يكتب ، ويقرأ منهم من يشاء ان يقرأ ليس عليهم حرج فيما يكتبون او يقرأون ما داموا لا يخرجون على القوانين .

والحق اني لا اعرف كيف ألغي هذه العقبة من طريق شبابنا هؤلاء الأدباء ، فليدلوني اذن على الوسيلة التي تتيح لي ان ارضيهم ان كان إلى ارضائهم سبيل .

وانا بعد ذلك انصح لهم مخلصاً بأن يكونوا رجالاً وبأن يكونوا أولي حزم وعزم ومضاء وبأن يقهروا ما يقوم في سبيلهم من المصاعب والعقاب دون ان يحتاجوا إلى ان يقهرها لهم الناس . فقد كنا شباباً قبل ان يولدوا وكانت العقاب في سبيلنا كثيرة منبثة فذللناها لأنفسنا بأنفسنا لم يمهد لنا احد ولم ييسر لنا احد طريقنا ولم ييسر لنا احد عسيراً ولم يسع الينا القراء وإنما سعينا نحن اليهم ، ولم تسقط علينا هذه الاصوات البعيدة التي يتحرقون شوقاً اليها وإنما احتملنا الواناً من الجهد وأخذنا أنفسنا بضروب من العنف ، وجاهدنا واجتهدنا وصبرنا وصابرنا واحتملنا فنوناً من الأذى وبلونا الواناً من المرارة حتى اتيح لنا ما يحسدوننا عليه الآن ، وأمرهم في ذلك ليس غريباً وإن كان فيه كثير من القسوة الممضة والجحود البغيض . فما اكثر ما يتعجل الابناء رحيل الآباء ، وما اكثر ما يتبرم الشباب بحياة الشيوخ ، وما اكثر ما تستطيل الأجيال الناشئة اعمار الاجيال التي سبقتها الى الحياة ! والبر كل البر في غير ما تمتلىء به قلوب الشباب .

فليصبروا وان كان الصبر شاقاً ، وليكظموا ذات نفوسهم وان كان كظم ذات النفوس عسيراً . ولينتظروا بشيوخهم

حتى يفارقوهم في سعة ودعـــة وليذكروا قول الشاعر العربي القديم :

ليس على طول الحياة ندم
ومن وراء المرء مـــا يعلم
يموت والـــد ويخلف مو
لود وكل ذي أب ييتم

* * *

وصدى آخر وصل اليّ في هذه العزلة النائية فأنبأني بخصومة اثارها الاستاذ سلامة موسى بين كبار الأدباء . ولست أدري لماذا اقحمني الاستاذ سامي داود في هذه الخصومة مع اني لم اعلم بها إلا من مقاله هذا الأخير ولم أشارك فيها بالطبع من قريب ولا من بعيـــد . ولست اكتب عنها الآن لأشارك فيهـــا . فموضوع الخصومة في نفسه أهون شأناً واقل خطراً من هذا العناء . ومصدر هذه الخصومة فيما يظهر هو ان الاستاذ سلامة موسى يرى ان القصة المصرية تافهة وان كتابها تافهون وانه لا يصبر على قراءة انتاجهم .

ومن الحق المطلق للاستاذ سلامة موسى ان يرى في القصة المصرية وكتّابها ما يشاء ، ومن الحـــق الذي لا ينازعه فيه أحد ان يصبر على قراءة قصصهم ، او لا يصبر . ومن حق غيره بالطبـع ان يرى في القصة المصرية وكتّابها رأياً آخر يخالف رأي الاستاذ سلامة موسى إلى ابعد آماد الخلاف . وانا من هؤلاء الذين يرون في القصة

المصرية غير ما يرى الاستاذ الكبير سلامة موسى لأني اقرأ كثيراً ما ينتجه قصاصنا ولا اصبر على قراءته فحسب بل احرص على هذه القراءة اشد الحرص وأجد فيها المتاع كل المتاع . وقد اعلنت ذلك في غير موضع . وانا ارى من السرف كل السرف ان يقضى في كلمتين او كلمات على هذا الفن الرائع الذي استحدثه المصريون في ادبنا المعاصر والذي من حق مصر ان تفاخر بأن ابناءهـا كانوا من السابقين اليه ، ومن المبرزين فيه . وليس على القصّاص المصريين بأس ان يغض منهم الاستاذ سلامة موسى ما دام قراؤهم يرضون عنهم وما دامت آثارهم قـد جاوزت حدود وطنهم المصري وما دام بعض هـذه الآثار قد جاوز حدود العالم العربي نفسه الى العالم الغربي فترجم الى لغات اوروبية مختلفة ...

والذي اعلمه ان آثار تيمور وتوفيـق الحكيم ليست غريبة بالقياس الى الفرنسيين والانجليز ، والذي اعلمه ايضاً اني قرأت في هذه الرحلة الاخيرة مقالاً طويلاً قيماً بالفرنسية لأحد الأدباء الدومنيكيين عن قصة الاستاذ يوسف السباعي هي قصة « السقا مات » . وان هذا الراهب الدومنيكي قد حدثني عن هذه القصة حديث المعجب بها وسألني عن قصص اخرى مصرية ليقرأها ويكتب عنها فدللته على بعض ما احب من القصص ، وفي مقدمته قصص الاستاذ نجيب محفوظ . لا بأس على قصاصنا إذن ان يسخط عليهم الاستاذ

سلامة موسى ما دام غيره لا يرى فيهم هذا الرأي وإنما يقدرهم ويكبرهم ويقرأ لهم ويستزيدهم من الانتاج ، ولكن الاستاذ سلامة موسى فيما يظهر لم يقف عند ازدراء القصة المصرية وحدها وإنما ازدرى الادب المصري المعاصر كله إلاّ أدبه هو بالطبع .

ثم لم يقف عند الازدراء بل قضى على هذا الأدب بأنه غير صالح للبقاء وبأن شيئاً منه لن يقرأ بعد عشرة اعوام . ومن حق الاستاذ سلامة موسى كذلك ان يزدري الأدب المصري المعاصر وان يحكم عليـــه في عنف او رفق وفي قسوة او لين .

وليس على الأدب المعاصر بأس من حكم الاستاذ عليه وازدرائه له ، ما دام غير الاستاذ من النـــاس يستطيع ان يكبر ما ازدرى وان يعرف ما انكر وان يحب مـــا كره ؛ ولكن الشيء الغريب حقـــاً هو سبق التاريخ والحكم عليه قبل ان يكون . فمن يدري أيبقى الأدب المصري المعاصر حتى يقرأه الأبناء والاحفاد ام يلقى عليه الستار قبل ان ينقضي العصر الذي انشىء فيه . اما أنا فأعترف مخلصاً اني عاجز كل العجز عن ان احكم بأن كتاباً من الكتب صالح للبقاء ، قادر او غير قادر على ان يعيش حتى يقرأه الأبناء والاحفاد . ذلك لأني لا اعرف من مزاج هـــؤلاء الابناء والاحفاد شيئاً يمكنني من ان ألائم بينه وبين ما يكتب الادباء المعاصرون . والله لا يكلف

الاديب المعاصر ان يكتب للذين يعاصرونه من الناس ثم للاجيال التي تأتي بعدهم على مر التاريخ . وإنما تلك هبة يتيحها الله لبعض الادباء النابهين المتفوقين ويصرفها عن بعضهم الآخر .

ولست ادري أكان شكسبير مؤمناً بأن آثاره سيتاح لها من البقاء والانتشار ما يجعلها آثاراً انسانيـــة خالدة ام كان يرضى من آثاره هـــذه بأن تعجب النظارة حين تعرض عليهم ولا يعنيه بعد ذلك أتبقى بعـــده ام تمضي بعده .

وقل مثل ذلك بالقياس الى اكثر الادباء الذين انتجوا آثـــارهم في الازمنة والامكنة المختلفة . فكروا في فنهم وفي معاصريهم ، ولم يفكروا في شيء مما وراء ذلك . واتيح البقاء لآثار بعض الأدباء لا لأنهم ارادوا هذا او قصدوا اليه او اهتموا له بل لأنهم وفقوا الى انتاج اشياء كان من حظهـــا الا تموت معهم . وقليل من الادباء فكروا في الأجيال المقبلة ، دفعهم الى ذلك الغرور او دفعهم الى ذلك الاخلاص في حب الناس وفي حب الفن ايضاً ، واستجاب الزمان لبعضهم فأبقى آثارهم ، واعرض عن بعضهم الآخر فطوى آثارهم حين طواهم وبعد ان طواهم بقليل . وما اكثر الادباء الذين بهروا معاصريهم وملكوا عليهم امرهم كله واستأثروا بقلوبهم وألبـــابهم واذواقهم حتى صنعوا صنيع الاستاذ سلامة موسى فسبقوا

التاريخ وقضوا لهؤلاء الادباء ولآثارهم بالخلود ، ثم مضوا ومضى معهم هؤلاء الادباء ومضت معهم هذه الآثار ، فلم يبق منها شيء . والآثار الباقية قليلة جداً بالقياس للآثار الخالية التي التهمها الزمان وما اكثر ما يلتهم الزمان من الناس وآثار الناس .

ومن الادباء من لم يحفل بهم معاصروهم ولم يلتفتوا الى آثارهم لأنهم لم يذوقوها او لم يفهموها فصنعوا صنيع الاستاذ سلامة موسى وسبقوا التاريخ وقضوا على آثار هؤلاء الادباء بالموت في حياة اصحابها ، ثم انقضت اجيال واجيال وإذا هذه الآثار تظفر بحياة لم يكن احد يقدر انها ستظفر بها . واذا الناس يقدرونها ويكبرونها ويتنافسون فيها ويهدون الى اصحابها من الثناء والاعجاب بعد موتهم بالزمن الطويل او القصير ما كانوا في حاجة الى ايسره اثناء حياتهما ليشعروا بشيء من الرضى وليستمتعوا بشيء من راحة النفوس والضمائر .

وكان الاستاذ سلامة موسى عابثاً اذن حين قضى بغير علم وحين حكم فيما لا يملك الحكم فيه . وكان الذين خاصموه من الادباء المعاصرين عابثين ايضاً لانهم قضوا بغير علم وحكموا فيما ليس لهم ان يحكموا فيه . وصنع الله للانسان ، فان الغرور يجشمه اهوالاً عظاماً . ما الذي يعني الاديب من ان يبقى ادبه بعده او ان يموت بموته ؟ لقد كنت افهم حرص الاديب على بقاء آثاره لو وثق بأنه سيحس الرضى والغبطة حين تستبق الأجيال بعد موته الى

آثاره قراءة وشرحاً ونقداً وتحليلاً وتأويلاً وتعليلاً .

ولكن من الذي يستطيع ان ينبىء بأن هوميروس يحس شيئاً من النعيم والرضى عن نفسه وعن فنه حين يرى تهافت الاجيال على آثاره ، وحين يرى اساتذة الجامعات يتحدثون عنها الى الشباب ، ويشقون بدرسها وتأويلها اكثر مما شقي هو بانتاجها واذاعتها . ورحم الله ابا الطيب حين قال في آثاره انه ينام ملء جفونه عنها وعن مشكلاتها والناس يسهرون عليها ويختصمون فيها . أتراه رضي وابتهج بهذا الشروح التي لا تحصى لديوانه . وبذلك العيد الالفي الذي اقامته له البلاد العربية منذ سنين ؟ وقل مثل ذلك بالقياس الى ابي العلاء والى كثير غيره من الادباء الخالدين .

عبث اذن تلك الخصومة بين الأستاذ سلامة موسى والأدباء المعاصرين ، ولكن الادب في حاجة الى شيء من العبث وهو كذلك في حاجة الى شيء من الغرور ليعيش ويزدهر وليملأ الدنيا ويشغل الناس .

ومن اجل هذا ألفت الاستاذ سامي داود الى شيء من القصد في حكمه على الادباء المعاصرين شيوخهم وشبابهم . فهم لم يكونوا هدامين حين اختصموا وانما كانوا بنائين . والخصومة قوام الأدب ، الخصومة بين الاجيال القديمة والحديثة ، والخصومة بين الادباء الذين يعيشون في جيل واحد . واكاد اقول ان الخصومة قوام الحياة . ولأمر ما

قال الناس منذ اقدم العصور : ان الحياة صراع وان الحياة جهاد .

وهل يعرف الاستاذ سامي داود عصراً عاش فيه ادباء دون ان يختصموا ودون ان يعنّف بعضهم بعضاً احياناً ويرفق بعضهم ببعض احياناً اخرى ؟ وتبقى خصوماتهم بعد ذلك متاعاً للاجيال التي تتعاقب على مر العصور .

وهل المذاهب الادبية المختلفة والمذاهب الفلسفية المختلفة إلاّ نتيجة للخصومات بين الادباء والفلاسفة ؟ أحق ان الخصومة بين العقاد والمازني وشوقي لم تكن الاّ تجريحاً وهدماً ؟ ام الحق ان هذه الخصومة قد فتحت للمعاصرين من الادباء المصريين ابواباً جديدة في الفن وآفاقاً جديدة في النقد وعلمتهم ان الشعر لا ينبغي ان يكون تقليـــداً للقدماء ومحـــاكاة لهم في رصانة اللفظ وجزالة الاسلوب وروعة النظم مهما تكن مكانة هؤلاء الادباء ومهما يعظم حظهم في التفوق والنبوغ ؟ وانما ينبغي ان يكون الشعر مقتطعاً من الحياة التي يحياها الناس في العصر الذي يقال فيه ، مقتطعاً منها وسابقـــاً لها ايضاً ، وفاتحـــاً لقرائه وسامعيه آفاقـــاً جديدة في التصور والحس وفي الشعور والخيال . ولو لم يكن للعقـــاد والمازني من فضل في نقدهما لشوقي خاصة وللمذاهب المقلدين في الشعر عامة الا انهما فتحا للمصريين ابواباً ونوافذ رأوا منها ما كان من الحق عليهم ان يروا ، وعرفوا منها ما كان من الحق

عليهم ان يعرفوا من المذاهب الحديثة عنـــد الغربيين في الشعر والنقد والأدب بوجه عام، لكان هذا الفضل عظيماً فكيف وهما قد نهضا بهذا العبء في وقت كان التعليم فيه ضئيلاً هزيلاً لا يغني عن المعلمين والمتعلمين شيئاً. والمصريون بعد ذلك لم يخسروا شيئاً بهذا النقد الذي يسميه الاستاذ سامي داود تجريحاً وهدماً واسميه انا تجديداً وبناء .

فالعقاد والمازني لم يهدمـــا شوقي ولم يغضا من قدره وانما وضعاه من التاريـخ الادبـي حيث يجب ان يكون . والناس ما زالوا يقرأون شعره ويتناولونه بالدرس والنقد ويرون شوقي امير الشعر العربي في وقتـــه وهم مع ذلك يقرأون نقد العقاد والمازني فيرون فيه مذهباً او مذاهب جديدة في الادب كان لها آثارها الخطيرة فيما انتج العقاد والمازني وغيرهمـــا من شعراء الشباب وكتّابهم في ذلك الوقت .

وقد ذكر الاستاذ سامي داود اني بايعت الاستاذ العقاد بأمارة الشعر في وقت من الاوقات وان هذه البيعة كانت سياسية اقتضتها ظروف خاصة . واحب ان اؤكد للاستاذ اني لم ابايع العقاد بأمارة الشعر وما كان لي ان ابايعه لأني لم اكن شاعراً وانما قلت مخلصاً غير محاب ولا متأثر بالسياسة ولا مستعد للرجوع فيما قلت .

قلت : ان الشعراء يستطيعون ان يرفعوا لواء الشعر الى العقاد بعد ان مات حافظ وشوقي فهو يستطيع ان يحمل

هذا اللواء مرفوعاً منشوراً وان يحتفظ لمصر بمكانتهـا في الشعر الحديث .

ولم اغير ولن اغير مما قلت شيئـاً إلا ان يظهر شاعر جديد يتفوق على العقاد . فللعقاد شعر رائع بـارع رصين متين لا يخدع ببهرج اللفظ ولا يسحر بروعـة الاسلوب وانما يعجب باللفظ والاسلوب والمعنى جميعاً .

وللعقاد شعر اقل ما يوصف به انه يدل على شيء ، ويدل على شيء من حقه ان يحبب الشعر الى النـاس . وقد خاصمت العقاد في غير موطن من مواطن الخصومة . خاصمته في السياسة وخاصمته في الأدب ، وخاصمته في غير السياسة والادب ايضاً . ولكن هذه الخصومة لم تغض من قدر العقاد في نفسي وما اظن ان بين لدات العقاد واترابه ومعاصريه من يقدره ويكبره مثل ما اقدره انا واكبره .

وليس يعنيني ان يكون رأي العقاد في كرأيي فيه ، وانما الذي يعنيني ان اقول الحق وان كرهه الكارهون وان كرهه العقاد نفسه .

والذين عاصروا خصوماتي للعقاد يذكرون من غـير شك اني اثنيت على ادبه في جريدة السياسة حين كانت الخصومة بين الوفديين والدستوريين كأعنف ما تكون الخصومات . لم يمنعني ذلك من ان اسجل انه كاتب عظيم وشاعر ممتاز.

وقد كانت الحرب سجالاً بينه وبيني فلم يمنعه ذلك من ان يقوم مقام الرجل الكريم في مجلس النواب ، فيدافـع

عني حين كان الوفديون جميعاً عليّ حرباً .

وقد خاصمت الرافعي رحمه الله كما خاصمه العقـــاد . وخاصمت المازني وهيكلاً وغير المازني وهيكل كما خاصموني. ولكن ذلك لم يمنعنا في يوم من الايام من ان نكون صديقاً يعرف بعضنا لبعض حقه ويضمر بعضنا لبعض مـا يضمر الصديق للصديق من الوفاء .

وما اعرف ان الخصومة بين العقاد وبيني قد انقضت . فما دام كلانا يكتب فالخصومة بيننا ممكنـــة . ولكنا قوم نعرف كيف نختصم دون ان تفسد الخصومة رأي احد منا في صاحبه .

وقد خاصمت توفيق الحكيم او خاصمني توفيق الحكيم وسله ان شئت عما تركت هذه الخصومة في نفسه ولا تسلني انا عما تركت هذه الخصومة في نفسي ، فكـل الناس يعرف ان الخصومة بين الناس وبيني مهما تشتد فهي اهون شأنـاً واقل خطراً من ان تترك في نفسي اثراً .

وقد تعلم الاستاذ سامي داود في الجامعة فيما تعـــلم ان جريراً والفرزدق والاخطل قد انفقوا اعمارهم يهجو بعضهم بعضاً فلم يهدم احد منهم احداً ، ولم يُخرج احـــد منهم احداً من زمرة الأدباء . وآية ذلك اننـــا ما نزال نكتب ويقرأ الناس . وآية ذلك ان الاستـاذ سامي داود ما زال يسمينا ادباء كباراً سواء اكان يريدنا كبـــاراً في السن او كباراً في المقام .

ما زال يرانا ادباء وما زال ينتظر آراءنا في كثير من المشكلات الادبية التي تعرض بين الشيوخ والشباب . ولعل الاستاذ سامي داود يعرف الآن طرفاً من رأيي في كتاب الشباب وفي قصّاصيهم خاصة . وانا اريد ان يطمئن وان يرضى فانا اكثر الناس قراءة لأدب الشباب اقرأه مطبوعاً واقرأه مخطوطاً واشجع اصحابه على الانتاج سراً واعلاناً والقى في ذلك قليلاً من الوفاء وكثيراً من الجحود . فأشكر للاوفياء وفاءهم واعفو للجاحدين عن جحودهم . حين اكتب لا انتظر من الذين اكتب عنهم جزاء او شكوراً ، ولا ارهب منهم غضباً او نفوراً ، وانما اكتب لأن كلمة الحق يجب ان تقال .

اما بعد فاني قد اسرفت في هذا الحديث ومن حقه ان يقف عند هذا الحد . ولكني اهدي الى الاستاذ سامي داود تحية صادقة واتمنى عليه ان يكون مثلي حريصاً على ان تشتد الخصومة بين الادباء شيوخهم وشبابهم . فالأدب جذوة يذكيها الوقود وتوشك ان تخمد اذا لم تجد هذا الوقود .

فلتذكُ جذوة الادب اذن وليسطع لهبها ، ولا بأس بأن نكون نحن الادباء وقوداً لهذه النار .

أدب الثورة وثورة الأدب

●

لم تكد ثورتنا تنشب وتملأ احداثها وظواهرهـا قلوب الناس وعقولهم في مصر وفيما حولها من البلاد العربيـة ، حتى اخذ فريق من الكتاب يتساءلون في إلحاح : « اين أدب الثورة » ؟

ثم لم تكد الثورة تبلغ من عمرها اشهراً قصاراً ، حتى اخذ هؤلاء الكتاب يظهرون اليأس وخيبة الأمل لأن ادب الثورة لم يستجب لهم حين دعوه ، ولم يهبط عليهم مـن السماء كما يهبط الغيث ، ولم تتفجر عنه ينابيع الأرض كما تتفجر عن الأرض والبترول .

ثم لم يلبثوا ان قرروا فيما بينهم وبين انفسهم ، ثم فيما بينهم وبين قرائهم ، ان الادب المصري قد اخفق لأنه لم

يردد اصداء الثورة ولم يصور حقائقها ، ولم يلائم ما تتصل به نفوس الناس وقلوبهم من هذه العواطف والخواطر التي اثارتها الاحداث ، ولا سيما بعد ان خرج فاروق من مصر ، وبعد ان ازيلت اسرته كلها وصار الامر كله الى المصريين يدبرونه بأنفسهم ، لا يتنزّل عليهم وحي من العرش ولا من سلطان المحتلين .

وما اكثر ما كانوا يقولون ، وما اكثر ما يقولون الآن ايضاً ، ان الادب المصري يعيش في واد على حين يعيش المصريون في واد آخر .

وكذلك تقرر في نفوس كثير من الناس ان ادبنا المعاصر مقصر اشد التقصير ، مخفق اعظم الاخفاق ، لأنه لم يحس بما تجيش به الصدور ولم يصبح مرآة للحياة التي يحياها الناس . ونشأ عن هذا الحكم الخاطف أن فريقاً من الناس استيأس من الأدب المعاصر وكاد يستيئس من الأدب كله ، واعرض عن قراءة الأدب وانصرف الى قراءة الصحف يجد فيها ما يعينه على قطع الوقت وتجديد النشاط ، ويجد فيها كذلك اصداء ما يملأ حياة الناس من الأحداث .

واقبل فريق من الكتاب على انشاء ادب يلائم ما يطلبه هؤلاء السادة من تصوير الثورة وحقائقها ، وابتهاج الناس بما ظهر من نتائجها .. وترقب الناس لما لم يظهر بعد من هذه النتائج . فأخرجوا لنا ادباً يحسبونه ادب

ثورة وليس هو من ادب الثورة في شيء . وانما هو كغيره من الأدب الذي انشيء قبل ان تنشب الثورة بالأوقات الطوال والقصار . ومصدر هذا الحكم باخفاق الأدب وخيبة الامل فيه انما هو هذا الخطف الذي نبهت اليه غير مرة في هذه الاحاديث ، والذي يأتي من القصور عن تعمق الاشياء وفهم الحياة الاجتماعية على وجهها ووضع الأشياء في مواضعها .

فليس من فقه الحياة في شيء ان ينجم الادب فجأة من الارض او ينتصب فجأة من السماء ، لأن الثورة شبت في الثالث والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ ، وانما نشوء الادب وتطوره من هذه الظواهر البطيئة التي لا تستجيب للناس حين يتعجلونها ولا تستأخر على إبانها ، وان تمنى الناس عليها الاناة والابطاء .

واكاد اعتقد ان القدماء من مؤرخي ادبنا العربي كانوا افقه بالحياة واحسن لها فهماً وتقديراً من هؤلاء المعاصرين الذين يخطفون احكامهم خطفاً ويظنون ان ظواهر الحياة خاضعة لسلطانهم : يدعونها فتستجيب ، ويمهلونها فتنتظر ، ويرجئونها فترجيء نفسها .

فنحن نقرأ في بعض الكتب العربية التي حاول اصحابها منذ اكثر من الف عام ان يؤرخوا الادب العربي القديم اشياء لا يكاد المعاصرون يسيغونها او يطمئنون اليها ، لأنها تجانب ما الفوا من السرعة وتخالف ما استحبوا من

هذا الاستعجال البغيض .

نقرأ مثلاً عند بعضهم ان ظهور الإسلام قد اضطر الشعر العربي الى الضعف والتهافت ، لأن العرب بهرهم القرآن وشغلتهم احداث النظم الجديدة وما استتبعت من الفتوح ، عن الفراغ لقول الشعر وتجديده والتأنق فيه كما كان الجاهليون يصنعون . والقدماء يستنبطون هذا من إعراض لبيد عن قول الشعر بعد ان اسلم ومن اشتغاله بقراءة القرآن وحفظه . ويستنبطون كذلك مما عرض لشعر حسان من الضعف في اكثر شعره الاسلامي . بعد ما كان شعره الجاهلي يمتاز بالرصانة والقوة والفحولة . كما يستنبطونه من ان بعض شعراء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يكثرون في هجاء قريش فلا يبلغون منها شيئاً ، لأنهم كانوا يعيبونها بالفكر والشرك وينذرونها بعذاب الله في الحياة الآخرة . ولم تكن قريش تحفل بشيء من هذا حين كانت تعارض الاسلام وتنصب له الحرب .

ومع ان رأي القدماء هذا لم يكن دقيقاً كل الدقة ولا صادقاً كل الصدق ، لأنه لم يقم على الاستقراء الصحيح ، فانه كان يصور حقيقة واقعة .. وهي ان الشعراء الذين ارادوا ان يجددوا انفسهم بعد ان اسلموا ، وان يلائموا بين فنهم وبين دينهم الجديد لم يوفقوا في اكثر الاحيان الى ما كانوا يريدون ، لأن الطبع لا يستكره على ما لا يحب في كثير من الاشياء .. وفي شئون

الأدب والفن بنوع خاص . ولم يخطىء ابن دريد حين يقول :

والشيخ ان قوّمته من زيغه

لم يقم التثقيف منه ما انحنى

وهؤلاء الشعراء كانوا قد جاوزوا سن التطور ، فلم يكن من اليسير ان يرجعوا ادراجهم وان يتنكروا لأنفسهم طبعاً جديداً . فكان تجديدهم تكلفاً وكان إعراض لبيد عن الشعر نوعاً من اليأس ، لأنه عرف انه لا يستطيع ان ينشىء فناً يجمع بين الملاءمة لحياته الجديدة التي ادركها شيخاً وبين الروعة التي اتيحت له فيما انشأ من الشعر قبل ان يعتنق الإسلام .

وليس ادل على ذلك من ان شعراء آخرين اسلمت ألسنتهم واستجابت ظواهر امرهم للنظام الجديد وظلت طباعهم جاهلية كما كانت فقالوا الشعر في الفنون التي ألفوها قبل ان يسلموا ولم يتعرض شعرهم لضعف او تهافت او خمود ، وانما احتفظ بقوته كاملة كدأبها حين كان اصحابها جاهليين.

فالحطيئة مثلاً لم يتغير فنه بعد اسلامه لأنه لم يحاول لفنه تغييراً ، ولأن الإسلام لم يصل الى اعماق نفسه ، فظل مسلماً في ظاهر امره وفيما كان يبدو من بعض سيرته الاجتماعية . ولكنه ظل جاهلي القلب والذوق والضمير ، يقول الشعر هاجياً ومادحاً وواصفاً كما تعوّد ان يقوله في العصر الجاهلي . وامثال الحطيئة كثيرون نستطيع ان نقرأ

شعرهم فيما حفظ لنا من شعر القدماء ، فلا نرى فيه انحرافاً عن السنة الجاهلية ولا تأثراً عميقاً بالثورة الاسلامية الخطيرة التي قلبت حياة العرب رأساً على عقب ، وغيرت امورهم كلها تغييراً لم يكن لهم ببال .

ومن اجل هذا صنع بعض الذين ارخوا الشعر العربي القديم صنيعاً اقل ما يوصف به انه ملائم للدقة والصدق وصواب الحكم اشد الملاءمة واقواها . فلم يطلقوا وصف الشعراء الاسلاميين إلا على فريق بعينه يتألف من اولئك الذين لم يدركوا الاسلام شباباً وشيوخاً ، وانما ولدوا في الاسلام ولم يعرفوا العصر الجاهلي إلا كما يعرف التاريخ .

فالشعراء الفحول كالاخطل والفرزدق وجرير اسلاميون لأنهم ولدوا بعد ان اسلمت الجزيرة العربية ، وبعد ان فاض الاسلام منها على ما حولها من الاقطار ، وعمر بن ابي ربيعة شاعر اسلامي لأنه ولد — فيما يقول الرواة — في اليوم الذي مات فيه عمر بن الخطاب رحمه الله . وقل مثل ذلك بالقياس الى عامة الشعراء الذين ولدوا ايام الخلفاء وشبوا وادركتهم الشيخوخة ايام بني امية .

هؤلاء شعراء اسلاميون لم يدركوا الجاهلية . ولم تدركهم الجاهلية ، وانما رويت لهم احداثها كما سترِوى احداث العصر الذي نعيش فيه للذين اخذوا يولدون منذ شبت الثورة . فهم قد نشأوا نشأة اسلامية . رأوا آباءهم يخضعون للنظام الجديد يؤدون الواجبات الدينية والواجبات

السياسية الجديدة ، ويقرأون القرآن ويروون الحديث ، ويتحدثون عن النبي واصحابه وخلفائه ويختلفون الى المساجد مصبحين وممسين وبين الصباح والمساء .

وهؤلاء المؤرخون عندما عرضوا للشعراء الذين ادركوا الإسلام أو ادركهم الإسلام وهم شباب أو شيوخ لم يسموهم شعراء اسلاميين انما عدهم بعضهم في صراحة شعراء جاهليين .. لأنهم تأثروا بالحياة الجاهلية التي انضجت قرائحهم وكونت اذواقهم فلم يستطيعوا لطبائعهم تغييراً .

وبعض هؤلاء كره ان يسميهم جاهليين .. لأنهم اسلموا وكثير منهم كان عميق الاسلام حسن البلاء في ذات الله فسموهم مخضرمين: أي مختلطين . عاشوا بعض اعمارهم جاهليين وبعضها الآخر مسلمين .

ومعنى هذا كله ان القدماء من مؤرخي الأدب العربي فهموا حقيقة الصلة بين الثورة والأدب خيراً مما يفهمها كثير من كتابنا .

عرفوا ان الثورة مهما تكن خطيرة ومهما تكن بالغة عميقة الاثر في حياة الافراد والجماعات ، لا تغيّر الادب فجأة ، ولا تحوّل طبيعة الفن إلا تحويلاً يسيراً اقرب الى التكلف منه الى الفطرة التي تستجيب لما حولها من حقائق الحياة في غير جهد ولا عناء .

وهناك وجوه اخرى للصلة بين الادب والثورة لا يحققها كتّابنا المتعجلون . فالأدب يمهد للثورة وينشئها لأنه

يثير نفوس الناس ويبغض اليهم بعض اطوار الحياة التي يحبونها ، ويعرض عليهم مثلاً جديدة يحببها اليهم ويزينها في قلوبهم ويطبعها في نفوس الناشئين والشباب الذين لم تتقدم بهم السن بعد .

وهو بهذا يفتح للثورة ابواب النفوس والضمائر ويمهد لها الطريق في حياة الافراد والجماعات ، يتاح له النجح ويدركه الاخفاق احياناً اخرى . فاذا اتيح له النجح لم تتغير طبيعته فجأة . وانما ظل كعهده مضطرباً بين القديم الذي هدمه وبين الجديد الذي انشأه . حتى اذا استقرت امور الثورة واصبحت طبيعة للأجيال الجديدة الناهضة كما يقال في هذه الايام ، نشأ الأدب الذي يمكن أن يضاف الى الثورة حقاً وصدقاً .

ويكفي ان تفكر في حياة الفرنسيين اثناء القرن الثامن عشر ، فسترى طائفة من الادباء والفلاسفة والمفكرين انكروا حياة العصر الذي كانوا يعيشون فيه . وحملوا الناس من حولهم على انكارها وطبعوا هذا الانكار في نفوس الناشئين والشباب الذين لم يتم نضجهم بعد . فأنشأوا جيلاً جديداً هو الذي ألهب نار الثورة وملأ بها الدنيا وشغل بها الناس ، وغيّر بها حياة فرنسا وأوروبة واجزاء اخرى كثيرة من العالم .

ولكن هؤلاء الادباء والفلاسفة والمفكرين لم يدركوا الثورة التي انشأوها ، وانما اطفأ الموت جذوة نفوسهم قبل

أن يشعلوا هم جذوة الثورة فماتوا قبل الثورة بوقت قصير أو طويل .

والذين ثاروا بالفعل وملأوا الدنيا هولاً واصلاحاً في وقت واحد ، لم ينشئوا ادباً ذا خطر . شغلوا بالعمل عن الفن وشغلوا بصنع التاريخ عن كتابته وابتكروا للادبـــاء الذين جاؤوا بعدهم موضوعات انشأوا فيها ادباً حياً رائعاً اتيح البقاء لكثير منه وذهب بعضه مع ما ذهب من آثار الناس .

وابحث ان شئت عن الأديب الفرنسي الــذي عاصر الثورة وانشأ في اثنائها ادباً جديراً بالبقاء ، فلن تجد هذا الأدب مهما تطل في البحث والتنقيب ، بل تستطيـــع ان تقرأ ما تركه رجال الثورة انفسهم من الخطب والاحاديث التي ألهبت نفوس المعاصرين ودفعتهم الى النهوض بالاعباء الثقال وتحقيق الامور العظام ، فلن تجد في هذه الخطب ما يلائم ذوقك الفني ، بل لن تجد فيهـــا ما يرضي عقلك المستأني وحكمك الذي يريد ان يتدبر قبـــل ان يصدر . لانها كانت خطباً واحاديث تلائم الظروف والاوقات التي اغرت بها ودفعت اليها، فلما تغيرت تلك الظروف وانقضت تلك الأوقات ، اصبحت تلك الخطب والاحاديث تاريخـــاً من التاريخ ، لا تصلح إلا لقراءة البـاحثين الذين يريدون أن يؤرخوا للأحداث . ولكن انظر بعد ذلك فــيما انشأ الكتاب والشعراء الفرنسيون بعـــد ان استقرت الامور في

وطنهم ، وبعد أن تأثرت حياة بلادهم بالثورة واصبحت الحرية لهم طبعاً والرقي لهم غاية لا يستطيعون عنها نكولاً فسترى الادب الحق والفن الجديد بالبقــاء ... وسترى ان ادب الثورة انما يأتي بعد الثورة لا اثناءها .

وما اشك في ان هــذا النحو من تصوير الصلة بين الادب والثورة هو الذي يلائم حقائق الاشيــاء ، ويفسر ما بين الادب والسياسة من تضامن وتعــاون وتفاعل كما يقول المعاصرون . فالادب يثور قبــل أن تثور السياسة . وثورة الادب هي التي تمهد الطريق لثورة السياسة . لانها تهيء قلوب الناس ونفوسهم وعقولهم . تبغض اليهم نظاماً قائماً ، وتحبب اليهم نظماً تحقق لهم آمالاً تمتد اليها عقولهم وتقصر عنها ايديهم ، وليست الثورة السياسية آخر الامر إلا استجابة لثورة العقول والقلوب والنفوس التي يحدثهــا الادب وتحدثها مع الادب مؤثرات اخرى ، يتصل بعضها بالحياة المادية للناس ويتصل بعضهــا بالحياة المعنوية . ويأتي بعضها من الصلة بين الامة وبين امم اخرى تحيا حياة خيراً من حياتها ، وادنى الى العدل والحرية وانصاف المظلومين من الظالمين والمساواة بين المستأثرين الذين يجدون كل شيء والمحرومين الذين لا يجدون شيئاً .

ولست اعرف ثورة سياسية بالمعنى الحديث أو القــديم للفظ الثورة ، إلا وقد سبقتها ثورة ادبية عقلية كانت هي التي اغرت الناس بها ودفعتهم اليها واخرجتهم عن اطوارهم

فلم يستطيعوا صبراً على ما يكرهون ولا ابطاء عما يريدون .

هناك اذن ثورتان ، اولاهما ثورة العقل التي يصورها الادب ، والثانية ثورة السياسة التي تعتمد على القوة فتغير نظاماً وتقيم مكانه نظاماً آخر . وهناك ادبان : ادب يسبق الثورة ويدفع اليها ، وادب يأتي بعد الثورة فيصورها اولاً ويصور آثارها في حياة الناس ؛ ويحبب اليهم هذه الآثار ويدفعهم الى الامام في ميدان الرقي والاصلاح والتجديد .

والادب في اثناء الثورة حين تضطرب نفوس الناس بالأمل والطموح ، ونفوس فريق منهم بالخوف والمحافظة ، متواضع مقتصد يمشي على استحياء — ان امكن وصف الأدب بالمشي وبالحياء ايضاً — لأن الناس مشغولون عنه بأحداث الثورة مما يقع وما ينتظر وبما تدفع اليه هذه الاحداث ، ولأن الأدب — ولا سيما في هذا العصر الحديث — انما يستمد حوله وطوله وقوته وروعته من الحرية الكاملة التي لا معقب عليها . وهذه الحرية موقوفة بطبيعة الاشياء اثناء الثورة ، سواء اراد الناس ذلك أم لم يريدوه . والادب يجاهد في سبيل الحرية ويحتمل في هذا الجهاد ألوان المكروه على اختلافها قبل ان تصبح الثورة السياسية امراً واقعاً .

وهو بجهاده وبحمله الخطوب يدفع الثورة دفعاً ، لأنه يقاوم الاستبداد والعسف ويدعو الناس الى مقاومتها —

وهو في اثناء الثورة لا يستطيع أن يقاوم الثورة لأنه يقاوم نفسه ان قاومها ، فالثورة ابنته وثمرتــه . وهي لا تقف الحرية إلا لتطلقها بعد حين يقصر أو يطول .

فالأدب الذي ينشأ أثناء الثورة إما أن يجري على طبيعته الأولى فيكون اتصالاً للادب القديم، واما ان يحاول مجاراة الثورة فيكون دعوة لها واغراء بها . وهو في هذه الحال أدب ضعيف فاتر لأن الأحـداث المادية الواقعة اقوى منه وأظهر اثراً . يراها الناس ويحسون آثارها في نفوسهم وفيما حولهم من الحياة والاحياء .

وهذا هو الذي يعلل ما أصاب شعر حسان من الضعف. كانت الثورة الاسلامية اقوى من شعر الشعراء وكان كل فن بالقياس اليها اثناء قيامها فاتراً ضئيلاً .

وهو يعلل في الوقت نفسه انصراف بعض الشعراء عن الشعر ، لأنهم لم يروا لأنفسهم فيه ارباً . وهو يعلـــل كذلك اتصال الشعر الجاهلي بأساليبه القديمة عنـــد شعراء الأعراب الذين قال الله عز وجل فيهم : « قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولو اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم » .

واقرأ ان شئت فيما يتصل بالأدب الفرنسي اثناء الثورة ما كتبه شاتوبريان في مذكراته عن المسامه بباريس حين كانت النفوس مضطربة ثائرة ، فستراه يصف اندية الأدباء في تلك الأوقات بالضعف والفتور وقلة الغناء .

ليس هناك معنى اذن لمطالبة الأدباء المصريين بانشاء أدب الثورة ، لأن أدب الثورة الحق لم يأت وقته بعد . وسيأتي وقته حين يخرج الشباب الذين تطبع الثورة نفوسهم بطابعها ، والذين يتعلمون الآن في المدارس وفي الجامعات إن شئت . أي أن هذا الأدب لن تظهر بواكيره إلا بعد أعوام نرجو ألا تكون مسرفة في الطول . ولست أشك في أن أدب الثورة هذا الذي اتحدث عنه سيكون مغايراً مغايرة شديدة لأدبنا الذي ننتجه ونعيش عليه الآن . فسيتخلص الجيل الناشيء من تعقيدات مختلفة قاومناها نحن ما وجدنا السبيل الى مقاومتها . ولكننا لم نستطع أن نعفي أنفسنا من آثارها وأعقابها . لن يحتاج الجيل الناشيء الى ما احتجنا اليه دائماً من مداورة السلطان والإحتياط من شره والاستخفاء بكثير من آرائنا ، نكتمها احياناً في نفوسنا فنشقى بكتمانها ، ونعرب عنها احياناً في كثير من الألغاز واصطناع المجاز والافتنان في التنكر والتستر والاستخفاء . لن يحتاج الجيل الناشيء الى شيء من هذا لأنه لن يجد امامه النظام الملكي المستأثر بالأمر من دون الشعب . وسيخلص الجيل الناشيء من تعقيد آخر قاومناه ما استطعنا أن نقاومه ولكنه كان يؤثر في حياتنا العقلية حتى اثناء مقاومتنا له تأثيراً بعيداً المدى . وهو تعقيد الاحتلال الأجنبي الذي كان يتغلغل في اعماق حياتنا المادية والسياسية ويتدخل في كثير من مرافقنا ويؤثر

بذلك في مصالح الأفراد والجماعات ويخالف النظام الملكي حيناً فيثقل علينا الهول . ويخالفه حيناً آخر فيأخذنا الشر من جميع اقطارنا ونضطر الى كثير من المصانعة والموادعة ونلاين حيناً ونخاشن حيناً آخر ونشقى بتفرق الأهواء واختلاف الميول والنزعات من حولنا . ونجد العناء كل العناء في التماس ما نلتمس لأنفسنا من طريق التفكير والتعبير .

لن يشقى الجيل الناشىء بهذا الاحتلال لأنه سيحيا في وطن لا يتسلط الأجنبي عليه من قريب او من بعيد . سينشأ حراً في وطن حر بأوسع معاني هذه الكلمة وأعمقها . وسيخلص من عقدة الاستعمار هذه التي شقيت بها الأجيال من قبله دهراً طويلاً .

وسيخلص الجيل الناشىء من عقد اخرى غير هاتين العقدتين . وهي عقدة النظام الاقتصادي البغيض الذي شقيت به الاجيال من قبله ، والتي قسمت الشعب إلى الاغنياء المترفين الذين ينفقون بغير حساب فيما لا يغني عنهم ولا عن غيرهم شيئاً ، والفقراء المعدمين الذين يشقون بغير حساب لأنهم لا يجدون ما يقيم الأود او يرضي حاجة الانسان الذي يستطيع ان يكون انساناً .

وكلمات المرض والفقر والجهل والاعداء الثلاثة التي كانت الحكومات تتشدق بها فيما مضى ، كلمات يسيرة حين تنطق بها الألسنة ولكنها عسيرة معقدة حين نحاول ان نحقق معانيها في نفوسنا . فهي تصور اشقى ما يمكن ان يفرض

على الناس من ضروب الحياة ، وهي تمتحن نفوسهم بألوان لا تحصى من التعقيد الذي يميت القلوب ويفلّ الحد ويلغي النشاط ويبغض العيش الى الناس .

هذا الذي لا يجد ما ينفق وله قلب ذكي وعقل راجح وقدرة على العمل الخصب والنشاط المنتج ، ولكنه لا يستطيع ان يعمل ولا ان ينشط لأنه لا يجد إلى العمل ولا الى النشاط سبيلاً ، وكيف السبيل الى العمل والنشاط اذا لم تجد من الطعام والشراب ما يمسك عليك الحياة .

وهذا الجاهل الذي لا يفرق بين الخير والشر ، ولا يميز بين ما ينفعه وما يضره ، وله فضل من قوة وحظ من أيد ، ولكنه لا يعرف كيف يوجه قوته ولا فيمّ ينفق جهده ، فهو يتخبط بين الشر اليسير والاثم المفسد لحياته ولحياة من حوله من الناس . وامض ما شئت في تصوير ما يثير المرض والفقر والجهل في حياة الناس من شر ما ينشيء في نفوسهم من عقد ، وما يبث امامهم من عقاب ، وتصور جيلاً يتاح له في يوم من الايام ما لم يتح للأجيال الماضية من صحة الاجسام وذكاء القلوب ونفاذ البصائر وسعة المعرفة ، وانظر ما عسى ان يكون من الفرق بين هذا الجيل السعيد وبين الاجيال التي سبقته من الاشقياء ، ثم وازن بين ما يمكن ان ينتجه هذا الجيل السعيد من ألوان النشاط في حياته المادية والعقلية والفنيــة وبين ما انتجته أجيــال الشقاء من قبله فسترى الفرق عظيماً خطيراً بين

إنتاج الموفورين ، وانتاج المحرومين ، وبين انتاج السعداء ، وانتاج الأشقياء .

وإذا بلغت هذه الغاية من الموازنة فقد عرفت ان ادب الثورة الذي يستحق هذه الاضافة ليس هو الأدب الذي أنتجناه او الذي ننتجه الآن ، وإنما هو الأدب الذي سينتجه ابناؤنا واحفادنا حين يتاح للثورة ان تبلغ غايتها وتحقق اغراضها ، وتضع عن المصريين إصر حياتهم تلك التي ضاقت بهم وضاقوا بها ، وتتيح لهم حياة اخرى لا يجدون فيها قهراً ولا عسفاً ، ولا يخضعون فيها لبأس او ظلم ، ولا يشقون فيها بفقر او جهل او مرض ، ثق بأني لا اخدع نفسي عن حقائق الأشياء ولا اخدعك عن هذه الحقائق ، فلست انا من السذاجة بحيث اظن ان الثورة ستتيح للأجيال المقبلة سعادة دائمة ونعيماً مقيماً ، فالسعادة الدائمة الكاملة لم تتح للناس ولن تتاح لهم في هذه الحياة الدنيا ، والنعيم المقيم مدخر للصالحين من الناس في حياتهم الثانية ، وليس معجلاً لهم في حياتهم هذه الأولى ...

ولكن الشيء الذي أثق به كل الثقة ، وأومن به اعمق الايمان هو ان الثورة ستتيح حين تبلغ غاياتها للأجيال المقبلة من قوة النفوس وصلاح الحياة ما يمكنها من طلب السعادة والنعيم قادرةً على طلبها ، ومن مقاومة البؤس والشقاء قادرةً على مقاومتها ...

وليس هذا بالشيء القليل ، وما اعظم الفرق بين ادب

يقبل عليه اصحابه وهم آمنون مطمئنون لا يسعى اليهم الخوف ولا يدبر لهم الكيد ، وادب ينتجه قوم يختلسون الفراغ له اختلاساً ويسترقون العناية به استراقاً ، ويجدون من حولهم ما هو خليق ان يبغض اليهم الأدب ويصرفهم عنه صرفاً ، يشقون في انفسهم ويشقون بشقاء من حولهم من الناس ، ولا تتاح لهم الوسائل اليسيرة للاعراب في صراحة وأمن عما يجدون من شقاوتهم وشقاء الناس .

فانتظر إذن ادب الثورة بمعناه الصحيح من الجيل الناشىء يوم يتاح له الانتاج ، واقرأ ادبنا هذا الثائر ان شئت ، واعرض عنه ان احببت ، فإنا لا نملك ان نعطيك الا ما في ايدينا ، وفي ايدينا ادب ثائر لا ادب ثورة ، وما اعظم الفرق بين الادبين !

الكنوز الضائعة

●

هي هذه التي تمتلىء بها الارض على اختلاف اقطارها ، ومنذ العصور القديمة التي فكر فيها الناس ، وعبروا عما يفكرون ، تعبيراً صالحاً للبقاء بالكلام ، او بالتصوير او غير الكلام والتصوير من هذه الفنون المختلفة التي يؤدي بها الناس ما يجدون في نفوسهم وعقولهم من ضروب العلم والشعور ومن ألوان العاطفة والطموح الى الخير والحق والجمال .

هذه كنوز تمتلىء بها الأرض ولا يكاد الانسان يحصيها ، ولكنه إن كان مثقفاً رشيداً طمحت نفسه دائماً الى ان يستقصيها ويجمعها كلها إن اتيح له جمعها ويفرغها في عقله وقلبه . وأخص ما تمتاز به العلوم والفنون انها بطبعها

شركة بين الناس يستطيع كل فرد من الأفراد ان يستمتع بها كلها او بعضها دون ان يحرم غيره من ان يتيح لنفسه بها الغبطة والسعادة والرضى كما اتاح لنفسه بها كل هذه الخصال .

فالعلم والفن والمعرفة على اختلاف موضوعاتها كنوز لا ينقص منها انقطاع الناس بها وتهالكهم عليها وازدحامهم على الإمعان فيها ، وإنما يزيدها ذلك خصباً الى خصب وثراء الى ثراء ، ولو لم يقرأ القدماء ويدرسوا لما انتج المحدثون شيئاً من علم او فن . ولو لم يظهر بعض المحدثين على آثار بعض لما ازدهر العلم ولا تألق جمال الفن ولا عظم تراث الانسانية من المعرفة .

فهذه كنوز يزيد فيها الأخذ منها وينقصها اهمال اهله والإعراض عنها ، او قل انها تحيا بالاقبال عليها وتموت بالزهد فيها . وهذه الكنوز ضائعة بالقياس الى الذين لا يعرفونها ثم لا يحرصون على اقتنائها والامعان فيها بالانتفاع والاستمتاع والاستهلاك . ولست اكتب هذا لأجدد العلم به فالناس يعرفونه منذ اقدم العصور ، وإنما أمليه لأصل منه إلى وصف هذا الشعور الذي أجده قوياً ملحاً ممضاً أحياناً كلما فرغت من قراءة كتاب رائع او اخذت في قراءة كتاب شائق . وهو شعور الضيق الذي يبلغ اللوعة والحسرة احياناً بأني اقرأ هذا الكتاب دون اطمئنان الى ان المصريين جميعاً يقرأونه كما اقرأه ويجدون من المتعة به مثل ما

اجد او اكثر مما اجد .

هو هذا الشعور بأن هذا الكتاب او هذا الفصل كنز من هذه الكنوز التي لا ينعم بها المصريون كلهم كما انعم بها . ولا اكاد اجد هذا الشعور حتى احاول ان اتعزى عنه بأن في الارض كنوزاً اخرى لا تحصى مضيّعة بالقياس الى التي لم اعرفها ولا ينتظر ان اعرفها ، لأن الانسان الذي يتاح له ان يحيط بكل ما عرف الناس من علم او فن وبكل ما ورث الناس من العلوم والفنون والآداب لم يوجد بعد وما ارى انه سيوجد في يوم من الايام .

وليس المهم ان يقرأ الانسان كل ما كتب او يحيط بكل ما انتج غيره من الناس ، وانما المهم ان يظفر الانسان بالوسائل والأدوات التي تتيح له ان يضيف في كل يوم الى علمه علماً والى ثروته العقلية والشعرية ثروة ، فان اتيح له مع ذلك ان ينتج ما ينفع الناس ويزيد في تراثهم من العلم والفن والمعرفة بوجه عام فهو عندي الانسان السعيد حقاً .

وانا انظر الى المصريين من حولي فأرى كثرتهم الضخمة وقد حيل بينها وبين أيسر الثقافة التي تمكنها من الانتفاع ببعض هذه الكنوز ، حال بينها وبين هذه الثقافة الجهل الذي فرضته عليها العهود المظلمة التي تطاولت وتطاولت حتى كأنها الليل السرمدي المقيم .

وما اذكر اني قرأت كتاباً ممتعاً او فصلاً رائعاً إلا

وددت لو اتيح لي ان اصبه في قلوب الناس من حولي وعقولهم وان اؤديه اليهم وهم ايقاظ او نيام ليجدوا من اللذة والمتاع والغنى ما اجد . ورحم الله ابا العلاء فما كان اصدقه حين قال :

ولو أني حُبيتُ الخلد فرداً
لما احببت في الخلد انفرادا

أو حين قال :

فلا نزلت عليّ ولا بأرضي
سحائب ليس تنتظم البلادا

وأشق من هذا الشعور بالحزن والحسرة شعور آخر فيه افكر في ان من حولي كثيراً من المصريين اتيحت لهم هذه الثقافة التي تمكنهم من ان يضيفوا الى ثراء عقولهم آراء جديدة في كل يوم ، ولكنهم يصرفون انفسهم عن هذا صرفاً وينفقون اوقات فراغهم فيما لا ينفع الناس من هذا اللغو الكثير الذي ينفق فيه المثقفون او اكثر المثقفين عندنا آخر النهار واول الليل .

ونحن نسأل انفسنا ما بال ادبنا لا ينمو او ما بال فننا لا يزدهر .. وما بال ثقافتنا معرضة دائماً للجمود ، تنقص ولا تزيد . ويسرع الى نارها الخمود ، تنقص وكان من حقها ان تذكو وان تملأ النفوس في مصر ومن حول مصر إشراقاً ونوراً .. ثم نحمل على الأدباء تبعة هذا كله وننسى ان نشرك معهم غيرهم من الناس في احتمال هذه

التبعة .

فلو قد اقبل الناس على القراءة والانتفاع بهذه الكنوز الكثيرة المضيعة لدعتهم القراءة الى القراءة ولأغراهم العلم بالعلم كالذي يكسب المال القليل من تجارة او صناعة فيطمع في ان يضيف اليه مثله او امثاله . ويتاح له من ذلك ما يريد بمقدار ما يبذل في سبيله من الجهد وما يلقى في سبيله من العناء .

ولكننا لا نجد في الاستزادة من المعرفة ولا نكلف نفسنا عناء لنضيف الى ثروتنا العقلية ثروة اخرى . وانما نحن نكتفي بما علمنا وربما ضقنا به وزهدنا فيه واهملناه حتى نسيناه وحتى لم يبق لأحدنا به عهد .

ونحن لا نقرأ ادباءنا الذين يعيشون بيننا ويصورون من حياتنا ما يستطيعون تصويره فكيف نقرأ غيرهم من ادباء الامم الاخرى ؟ وكيف السبيل الى ان نعرف ما انتجوا فيما مضى من الدهر وما ينتجون في هذه الأيام التي نعيش فيها ؟ وكيف السبيل الى ان نتهيأ للعلم بما قد ينتجون غداً او بعد غد ؟

نحن لا نبذل ايسر الجهد لفهم الحياة التي نحياها ، وكيف السبيل ان نحيط بيسير الحياة التي يحياها غيرنا من الناس فضلاً عن دقائقها وما يثار فيها من المشكلات التي ان لم تعرض لنا الآن فستعرض لنا من غير شك في يوم قريب او بعيد ، لأن حياتنا متصلة بحياة الشعوب الاخرى متأثرة بها مؤثرة

فيها سواء اردنا ذلك او لم نرده بعد ان ألغيت الآمـاد والأبعاد وأوشك العالم على اختلاف شعوبه وألوان الحياة فيه ان يصبح عالماً واحداً يتأثر بمؤثرات متشابهة او متحدة .

والغريب اننا نشعر بهذا الاتصال في حياتنا اليومية بل في كل ساعة من ساعات حياتنا اليومية . نشعر به حين نقرأ الصحف وحين نسمع الراديو ، وحـين نشهد السينما او التمثيل وحين نرضي حاجاتنا المادية القريبة او البعيدة ، وحين ننتقل من مكان الى مكان لإرضاء هذه الحالات ، ثم نحن على رغم هذا كله لا نجد الشعور بالحاجة الملحة الى ان نعرف من حياة العقول والقلوب والأذواق في العالم الخارجي مثل ما نعرف من آثار التجارة والصناعة والانتاج المادي فيه .

وأشد من هذا خطراً وأعظم منه نكراً اننا قد جهلنا او كدنا نجهل انفسنا ، فنحن لا نخرج فجأة من الارض ولم نهبط فجأة من السماء ، ولم نخترع في هذا العصر الحديث من لا شيء ، وانما تحدرنا من اجيال سبقتنـا . ولهذه الأجيال حياة قد اثرت في حياتنا وفي طبيعتنا ، فلنا ماض من الحق علينا لأنفسنا ان نعرفه ، وسبيلنا الى معرفته ان نقرأ ونفهم ، وندرس ونذوق ، وما اشد زهدنا في القراءة والفهم والدرس والذوق !

وسل ان شئت كثرة الذين وقفوا حياتهم على ان يعلموا اجيالنـا الناشئة القراءة والدرس والفهم والذوق مـاذا

يقرأون ، وماذا يفهمون ، وماذا يدرسون ، وماذا يذوقون بعد ان ظفروا بالأجازات التي تتيح لهم ان يعملوا ؟ لقد اقبلوا من صناعتهم كما يقبل كل انسان على صناعته يؤدون واجبهم ويحتملون في تأديته ما يحتملون من المشقة والجهد. فاذا فرغوا من اداء هذا الواجب لم ينسوا الا شيئاً واحداً ، وهو الواجب الذي ينبغي ان يؤدوه الى انفسهم . فقد يجب على المعلم ان يتعلم ، وان يكون تعلمه متصلاً ، وان يضيف الى ما عنده شيئاً كثيراً مما ليس عنده وان يجدد نفسه في كل يوم ليقبل من الغد على تلاميذه بشيء جديد يحببه اليهم ويزيد شوقهم الى الاستماع له والانتفاع بما يقول ، وهو إذا لم يفعل جدير ان يمل نفسه وان يمل غيره من التلاميذ ، وان يصبح اشبه شيء بالببغاء التي تردد ما حفظت لا تجدده ولا تغيره ولا تزيد فيه .

واكبر الظن ان كثيراً من المعلمين عندنا لو حاسبوا انفسهم حين يخلون اليها ان اتيحت لهم الخلوة اليها لاستيقظوا . انهم يملون انفسهم ويملون تلامذتهم ، ولكنهم لا يفرغون لحساب انفسهم ، يشغلهم اداء الواجب المفروض عليهم في كل يوم ، فإذا اتيح لهم الفراغ منه اسرع بعضهم الى بعض يتحدثون فيما كان وفيما هو كائن وفيما يمكن ان يكون من هذه الأحداث اليسيرة التي تلهي الناس عن انفسهم وتخيل اليهم انهم ايقاظ وهم نيام . وإذا لم يقرأ المعلم لم يحدث في نفس تلميذه الشوق الى القراءة ، ولم

تجد فيها الرغبة الى الأستزادة من المعرفة . ولذلك يصبح التعليم صناعة جامدة لا حظّ لها من الحياة الخصبة التي تنفع اصحابها وتنفع الناس من حولهم .

والعلم الذي لا يتجدد كالماء الراكد الذي لا يلبث ان يأسن ويسرع اليه الفساد . وانا اعلم ان هذا القول سيشق على كثير من الاصدقاء الذين احبهم واكبرهم ، واعلم كذلك انهم سيضيقون بما اقول وسيسألون انفسهم ويسألونني كيف السبيل إلى ان يقرأوا وقد اثقلتهم واجبات الدرس في المدرسة وخارج المدرسة ، ولكن الذي اعرفه هو ان القراءة لمن يحب القراءة شيء لا سبيل الى التخلص منه ، يحتال صاحبه في الوصول اليه والظفر به مهما يكلفه ذلك من الجهد ، ومهما يحمّله من المشقة والعناء . وليس المعلمون وحدهم هم الذين لا يقرأون ، وليس التلاميذ وحدهم هم الذين يشبهون اساتذتهم في الإعراض عن القراءة ، ولكن المثقفين جميعاً لا استثني منهم إلاّ قلة من اليسير احصاؤها لا يقرأون ولا يحبون ان يقرأوا . لا تقـــل انهم يقرأون الصحف وهي كثيرة ، ولا تقل انهم يقرأون هذا الأدب اليسير الذي يلقاهم به الباعة في الطريق ويطوفون به عليهم في القهوات . فما إلى هذه القراءة أردت ، وما يعنيني امر هذه القراءة في قليل او كثير . إنما القراءة التي اريدها واتمنى ان يكون لكل مثقف منا حظه منها في كل يوم سواء اكان هذا الحظ قليلاً او كثيراً هي هذه التي يفرغ

القارىء فيها لكتاب قيم تحتاج قراءته الى الجهد ويحتاج فهمه وذوقه الى شيء من المشقة والعناء ، والتي ينصرف عنها من يقبل عليها ساعة او بعض ساعة وقد اضاف علماً الى علم ومعرفة الى معرفة ، ووجد هذا المتاع الخصيب القيم الذي يكسبه أصحابه كسباً ويظفرون به بعد الجد في سبيله واحتمال العناء لاستخلاصه والوصول اليه .

هـــذا النوع من القراءة الذي يحتاج الى ان يخلص الانسان له نفسه ساعة من نهار او ساعة من ليل ويخلصها له من كل شاغل من شواغل الحيـــاة مهما تكن ومهما تكن أعباؤها وظروفها . هذا النوع من القراءة التي هي أشبه شيء بالرياضة ، رياضة النفس على مزاولة ما يستعصي عليها من الاشياء مزاولة ملحة حتى تبلغ منها ما تريد . هذا النوع من القراءة هو الذى أحبه وأدعو اليه واتمنى ان يروض المثقفون انفسهم عليـــه حتى يصبح لهم عادة لازمة لا يستطيعون عنها سلواً . وانا واثق اعظم الثقة بأنهم سيجدون فيها بعد ان يروضوا انفسهم عليها ، نعيماً أي نعيم ... نعيم المتعة بما يقرأون ونعيم الكسب لما يكسبون ونعيم تجديد انفسهم والشعور بالقدرة على احتمال المشقة وتكلف العسر ورياضة النفس على ما لم تألف ، ونعيم التخفف ساعة من اثقال الحياة والتخلص ساعة مما يسر فيها وما يسوء ، ونعيم الشعور آخر الأمر بأن الانسان قد خرج من هذه الحياة الآلية التي يحياها نهاره وليله الى حياة اخرى

عاملة يعطي فيها جهده ويأخذ فيها جهد غيره ويحس فيها بالقدرة على انه انسان يستطيع ان ينفع وينتفع بالمعنى الخصب القيم لهذه الكلمات .

إذا راض المثقفون انفسهم على هذا النوع من القراءة لم تصبح الحياة بالقياس اليهم عملاً يؤدى وأجراً يقبض وطعاماً يؤكل ويهضم ، ونوماً يقبل مع الليل ، ويمضي حين يسفر الصبح ، وعبثاً لا يغني عن اصحابه شيئاً ، وكلاماً يذهب مع الريح ، وانما تصبح شيئاً آخر يمتع أصحابه ويمتع بأصحابه الناس . واصبحت شيئاً آخر يثير في أصحابه نوعاً من هذا الفهم الخصب الذي لا سبيل الى ارضائه ، والذي يجد أصحابه اللذة كل اللذة حين يحسونه وحين يشعرون بالحاجة الملحة الى ارضائه ، وحين يسعون جادين ويتكلفون اليسير والعسير ليبلغوا من ارضائه ما يريدون . والقراءة الممتعة تدعو الى القراءة الممتعة ، فاذا رضت نفسك على ان تقرأ ساعة في كل يوم وألفت هذه القراءة فستشعر بالحاجة الى ان تجعل الساعة ساعتين ، وستقرأ الكتاب القيم فتحتاج الى ان تعيد قراءته لتحسن استيعاب ما فيه ، وستقرأ الكتاب فتشعر بالحاجة الى ان تقرأ غيره مما يشبهه او يخالفه ، وسيعجز مالك المقدور لك عن اسعافك من الكتب بما تريد وستلمس ما لم تستطع شراءه في المكتبات العامة والخاصة وستعجز المكتبات عن إسعافك أيضاً فتتكلف الممكن وغير الممكن لتظفر بما تحتاج اليه

من الكتب ، وستستيقن بأن حياتك قــد اصبحت شيئاً يستحق ان يحتمل وان تحتمل في سبيله ضروب المشقات ، وستلوم المؤلفين لأنهم لم يؤلفوا ، والناشرين لأنهم لم ينشروا والمترجمين لأنهم لم يترجموا ، وإذا كثر امثالهم من القارئين الملحين في القراءة المحتاجين اليها في كل يوم والذين لا يجدون مــا يقرأون فستطالبون بتيسير اسباب القراءة وستضطرون الدولة الى ان تستجيب لـكم فتعنى بالترجمة والتأليف والنشر وانشاء المكتبات وتنمية الموجود منها اكثر ممــا عنيت الى الآن ، وستنظرون فاذا الحياة من حولـكم قد تغيرت وإذا انتم قد انشأتم جواً جديداً يحيا فيه العقل ويحيا فيه القلب والذوق ، وإذا انتم قد اصبحتم مثلاً للناشئين فأحبوا من هذه الحياة الممتازة ما تحبون وجدّوا في سبيلها كما تجدون ، وعسى ان يكونوا اكثر منكم لها حباً واعظم منكم في سبيلها جداً ، وأشد منكم اليها سعياً .

وكذلك تقرب الكنوز المضيعة من مصر فتملأ عقول ابنائها وقلوبهم علماً ونوراً . ثم لن تقنعوا بالقراءة والامعان فيها بل ستحتاجون إلى ان يفضي بعضكم الى بعض بما يقرأ ، وستصنعون ذلك في احاديثكم ، وقد لا تقنعون بالأحاديث فتكتبون وتحيون الثقــافة والعلم والأدب في وطنـكم اكثر مما تحيا ، وتُغرون غيركم بأن يصنع صنيعكم ثم تنتظرون بعد ذلك فاذا أنتم لا تنفعون انفسكم وحدها ولا تنفعون مواطنيكم وحدهم ولكنـكم تنفعون اجيالاً اخرى من الناس

قريبة منكم او بعيدة عنكم ، واذا انتم لا تستهلكون فحسب ، وانما تستهلكون وتنتجون ، ولا تأخذون فحسب ، وانما تأخذون وتعطون ، وإذا انتم لستم عيالاً على الانسانية المتحضرة وانما انتم تشاركون في بناء الحضارة وتنميتها وتذكية جذوتها وإذا انتم قد رددتم وطنكم مصر الخالدة الى ايامها تلك القديمة التي كانت تعطي فيها اكثر مما تأخذ وتنفع فيها اكثر مما تنتفع ، وإذا انتم لا يستحي احدكم ان يلقى ما شاء من ابناء الأمم الراقية المتحضرة لقاء الأكفاء لا لقاء المنتفعين الذين لا ينفعون .

ما أشد حاجة المصريين الى ان يقرأوا هذا النوع من القراءة التي ادعوهم اليها حين يفرغون ، بل ما اشد حاجتهم الى ان يتكلفوا لأنفسهم الفراغ لهذه القراءة ساعة من نهار او ساعة من ليل ، وان حملهم ذلك من الأعباء اكثر مما تعودوا ان يحتملوا ، وان حرمهم ذلك لذة الاختلاف الى القهوات والاستمتاع بما تعودوا ان يستمتعوا به وان حرمهم ذلك الفراغ لما يحتاجون اليه اشد الاحتياج ويقيمون حياتهم عليه .

اني اعرف قوماً يؤثرون ان يقرأوا على ان يطعموا وعلى ان يناموا ، وان يغذوا عقولهم وقلوبهم ويوفروا لها المعرفة والمتاع على ان يغذوا اجسامهم ويوفروا لها الراحة واللذة وخير ما في الحياة المادية من ألوان الترف .

ما اكثر ما في الأرض من كنوز العلم والأدب والفن

وما أقل حظنا من هذه الكنوز ومـــا اشد حاجتنا إلى ان نأخذ منها اعظم حظ ممكن ، بل ان نأخـــذها كلها ان استطعنا إلى ذلك سبيلاً . وما اقدرنا على ذلك ان اردنا ، فهل نريد ؟ هذه هي المسألة المعقدة اشد التعقيد ، كما كان يقول بعض الممثلين . فليس من اليسير ان يستغني كثير من شيوخنا وشبابنا عن هذه الساعات الطوال او القصار التي ينفقونها كل يوم جلوساً في القهوات ، لا يصنعون شيئاً إلا المضي في هـــذا اللغو الذي لا ينفعهم ولا ينفع معهم احداً ، ولا ينفع بهم احداً ايضاً . وانما هم يجعلون انفسهم في هذه الساعات عيالاً على الوطن والمواطنين . وما حاجة الوطن والمواطنين إلى قـــوم يرضون لأنفسهم ان يضيعوا وقتاً يستطيعون ان ينفعوا به وان ينتفعوا ، وما اكثر ما نردد ان الحياة جهـــاد ولكننا على ذلك لا نجاهد انفسنا ايسر الجهاد واقومه مع ذلك واجدره ان ينفعنا وان ينفع الناس ، فنخلص للقراءة الممتعة في كل يوم ساعة من نهار او ساعة من ليل ونحن نعلم ان لو فعلنا لأيقظنا مصر بعد نوم وجعلناها وطنـاً كريماً يعيش فيه قوم كرام .

ولا تقل اني ادعو غير مجيب واتحدث الى آذان غير واعية فلا اقل من ان ادعو ولا اقل من ان اتحـــدث ، وقد صدق ابو تمام حين قال :

وركبٍ كأطراف الاسنة عرّسوا

على مثلهـــا والليل تسطو غياهبه

لأمر عليهم ان تم صـــدوره

وليس عليهم ان تســتم عواقبه

علينا اذن ان ندعو وان نلح في الدعاء ولا علينا ألا يسمع الصم ولا يجيب الكسالى .

ومن يدري لعل منا على كل حال من يسمع ومن يجيب !

بين الفصحى والعامية

●

كل شيء ممكن حتى ان يرجع الزمن ادراجه ، ويمشي الى وراء بعد ان كان يمضي الى الامام . ولا اريد بالزمن هذه المعاني التي يختلف الفلاسفة في تحقيقها وتحديدها ، فليس هذا الحديث من فلسفة الفلاسفة ولا من علم العلماء في شيء ، وإنما اريد بالزمن امور الناس التي تستغرق اوقاتهم وجهودهم وتستنفد قواهم ونشاطهم ، فتتقدم احياناً وتتأخر احياناً اخرى ، وتقدم مرة وتحجم اخرى . وما اشك في ان وقتاً من الأوقات قد مر بنا وامورنا اللغوية تمضي الى امام ، وحياتنا الأدبية تقدم غير مترددة ولا مستأنية كأنما كانت تريد ان تسبق الأحـــداث والخطوب وان تتعجل دورة الفلك لتبلغ القرن الحادي والعشرين قبل ان تبلغ نصف

القرن العشرين ، فضلاً عن ان تصل الى آخره .

في ذلك الوقت كان التعلم قليل الانتشار بالقياس الى ما اتيح له في هذه الايام من السعة والتغلغل في اعماق الشعب . وكان شيوخ الأدب الذين استأثرت بهم رحمة الله وشباب الأدب الدين اصبحوا شيوخاً في هذه الايام يكتبون باللغة العربية الفصحى ويتنافسون فيما بينهم أيهم يكون اشد لها تطويعاً واعظم لها تيسيراً واقدر على ان يسوغها من المعاني والخواطر والآراء ما لم تكن تعودت ان تسيغ دون ان يشق عليها او يرهقها من امرها عسراً او ينحرف بها عن طريقها التي رسمتها لها طبيعتها ومزاجها .

وكان اصحاب الثقافة الممتازة واصحاب الثقافة المتوسطة وأصحاب الثقافة المتواضعة واللذين لا يكادون يظفرون من الثقافة بشيء ، كل اولئك كانوا يتنافسون في القراءة ويختصمون فيما بينهم ، يرضى فريق ويسخط فريق ، ويضطرب ثالث بين السخط والرضى . وكان الزعماء السياسيون يؤثرون بعض الأدباء على بعض ، وينهون اتباعهم عن قراءة ما يكتبه الأدباء الذين كانوا يسخطون عليهم ، وربما حرموا عليهم قراءة صحف بعينها ، وربما أعلنوا اليهم انهم ينوبون عنهم في قراءة تلك الصحف . وكان الأتباع يسمعون ويصفقون فاذا تفرقوا عن زعمائهم اسرعوا الى الصحف المحظورة فاشتروها ودسوها في جيوبهم حتى إذا راحوا الى دورهم خلوا الى تلك الصحف فقرأوها

ممعنين في قراءتها غير حافلين فيما بينهم وبين أنفسهم بنهي الزعماء عن هذه القراءة ، وحظرهم لها .

وكانت تلك الصحف تنشر باللغة الفصحى ، وكان كتّابها يتنافسون في تجويد اللغة وتنميق الأسلوب ، قد اتخذوا لأنفسهم في الأدب مُثلاً رفيعة لا يعرضون عنها ليتكلفوا رضى القراء ، وإنما يسمون اليها ليغروا قراءهم بمشاركتهم في هذا السمو . وكان بعض الشباب في تلك الأوقات يحاولون ان يكتبوا باللغة العامية وان يروجوا لها ترويجاً لا ليتملقوا قراءهم بل ليبلغوا منهم مواطن الفهم والذوق والاستجابة ، ولكنهم كانوا يظفرون بعكس ما كانوا يريدون فيزور عنهم القراء وتسخر منهم طوائف المثقفين ، ويضطرون الى الرجوع عن عاميتهم الى اللغة الفصحى . وكان حافظ رحمه الله يهدر بشعره السياسي ، وكان شوقي رحمه الله يغني بشعره التمثيلي والسياسي ، وكلاهما يذهب مذهب القدماء في لفظه واسلوبه وفي وزنه وقوافيه ، وكان الذين يسمعــون للشاعرين العظيمين او يقرأون لهما يرضون ويعجبون ويحفظون شعرهمـا عن ظهر قلب لا يجدون في رصانة هذا الشعر وجزالته ولا في تقليده للقدماء ما يصرفهم عنه أو يخوفهم منه او يزهدهم فيه . وكنا نعيب الشاعرين العظيمين بامعانهما في تقليد القدماء وتقصيرهما في التجديد وغلوهما في المحافظة على مذاهب القدماء ، فكان الناس يقرأون لنا فترضى منهم قلة قليلة جداً هم اصحاب

الثقافة الرفيعة ، وتسخط منهم كثرة كثيرة جداً هم اصحاب الثقافة المتوسطة والضئيلة .

كان ذلك منذ ربع قرن او اكثر من ربع قرن . وكنت أعيب على المحافظين في اللغة والأدب تقديسهم للغة وإحاطتهم لها بهذا الاجلال الديني الذي يعصمها من التطور ويحميها من التجديد . وكنت اقول ان اللغة العربية هي لغة القرآن ما في ذلك شك ، ولكنها في الوقت نفسه لغة الذين يتكلمونها فمن الحق عليها ان تستجيب لأصحابها وان تساير تطورهم وتجاري حياتهم في ظروفها المختلفة . وهي قد فعلت في العصور الاولى ، فلم تكد تخرج من البادية العربية حتى لاءمت الحضارة الحديثة ووسعت علومها وفلسفتها وحتى تطور ادبها نفسه مع هذه الحضارة فأدى في يسر وإسماح ما لم يكن يخطر للأعراب البادين على بال من الخواطر والمعاني والآراء .

وكان الناس ينكرون عليّ هذه المقالة أشد الانكار ويرون اني قد جاوزت في الاسراف كل حد ، واني قد غلوت في التجديد حتى اخرجته عما ينبغي له من القصد والاعتدال ، ومن الرفق والأناة ، وحتى ذهبت به مذهب الثورة لا مذهب التطور والانتقال . وكنت اضحك من الدرس الاول الذي كان طلاب الأزهر الشريف يسمعونه حين يبدأون دراسة النحو . فيقرأ عليهم الشيوخ قول المؤلف رحمه الله : الحمد لله الذي جعل لغة العرب افصح

اللغات .

وكنت اقول ان لغة العرب فصيحة ما في ذلك شك ، ولكن في الارض لغات اخرى ليست اقل منهـا فصاحة وجزالة وامتيازاً . وكان المحافظون يرون هذا القول مني جموحاً واهداراً للقيم الموروثة وثورة بالسنن التي تلقـاها الأبناء عن الآباء . وكنت اتندر بمـا كان بعض القدماء يختصمون فيه من ان لغة اهل الجنة في الدار الآخرة هي اللغة العربية او اللغة السريانية ، فكان غـلاة المحافظين يضيقون مني بذلك اشد الضيق .

واذكر اني حين هممت بالسفر الى اوروبا لاتمام الدرس سألني الشيخ بخيت رحمه الله : ما الذي تريد ان تدرسه في اوروبا ؟ فقلت له متضاحكاً : اريد ان ادرس اللغة السريانية . فقال : ولمَ تدرس اللغة السريانية ؟ قلت : لأحسن الرد على الملكـين حين يسألاني في القبر لأنهما يسألان باللغة السريانية . ورويت له ما كنت احفظ من قول بعض الازهريين القدماء :

ومن غريب ما ترى العينان
ان سؤال القـبر بالسرياني
افتى بهـذا شيخنا البلقيني

فغضب الشيخ وضحك الحاضرون ، وكانت كثرتهم من المطربشين . ولقيت الشيخ بعد عودتي من اوروبا فسلمت عليـه ولم اقبّل يده ، وأراد ان يشعرني باحتقـاره لي

وازدرائه لما تعلمت في اوروبا ولما اتخذت من زي جديد فلم يكن يدعوني إلا طه افندي .

وحسبك بهذا الدعاء احتقاراً وازدراء .

كذلك كانت حالنا منذ اكثر من ربع قرن : ثقة باللغة العربية الفصحى وايماناً بقدرتها على البقاء ، ومطاولة الزمان ومغالبة الأحداث التي تجدد حياة الناس من يوم الى يوم لا من عام الى عام . وليس من شك في ان جيلنا ذاك القديم قد ظفر بالنجح كل النجح فيما كان يحاول من تجديد الأدب ورد الشباب الى اللغة بعد ان ادركتها في القرون الأخيرة اعراض تشبه اعراض الشيخوخة والهرم .

لم ينكر علينا احد في تلك الاوقات إغراباً في اللفظ أو التواء في الاسلوب أو غموضاً في المعاني . وانما كان الناس يتابعوننا راضين عنا ، مشجعين لنا يشعرون بأننا كنا نرد اليهم شيئاً عزيزاً عليهم أثيراً في نفوسهم بعد عهدهم به ، واشتد شوقهم اليه ، وهو هذا الجمال الفني الذي يأتي من سماحة اللفظ وسجاحته ومن يسر المعاني ووضوحها ومن صفاء الأساليب ونقائها . لم يكن المازني رحمه الله يتحرج من احياء تلك الاساليب القديمة التي كان يجدها عند عبد القاهر الجرجاني وعند الذين سبقوه من أصحاب النقد والبيان ، وكان الناس يقرأون له ويعجبون به ويستزيدونه من فنه ذاك الجديد القديم .

ولم يكن مصطفى عبد الرازق رحمه الله يتحرج من

اصطناع الأناة المستأنية في انتاجه الادبي . فكان يفرغ الوقت الطويل لكتابة المقال القصير يحرر معانيه ويجـــود ألفاظه ويصفي أسلوبه تصفية حتّى كنا نشبه آثاره الأدبية بذلك الحلي الذي يتأنق فيه صناعه ويخرجونه روعة للناظرين لا سبيل الى التعليق عليه بعيب ظاهر او خفي .

وكان الناس يتحدثون عن هذا الكاتب او ذاك فيقولون انه يذهب مذهب الجاحظ او مذهب ابن المقفع يرون ذلك ثناء عليه واطراء له . ولم نكن نرضى بهذا الاطراء وذلك الثناء لأننا لم نكن نحيي تلك الأساليب فحسب وإنما كنا نحييها ونغنيها ونؤدي بها معاني وآراء وخواطر لم تكن تخطر للجاحظ وابن المقفع على بال .

كنا نترجم فيها شعر الشعراء ونثر الكتّاب من اعلام الأدب في الغرب لا نجد في ذلك مشقة ولا حرجاً . وكنا نؤدي بها من ذات أنفسنا ما يلائم العصر الذي نعيش فيه من شؤون هذه الحياة التي لا تشبه من قريب ولا من بعيد حياة الكتّاب القدماء في البصرة والكوفة وبغداد .

وكنا نغيظ حافظاً وشوقي وغيرهمـــا من الشعراء حين نتحدث بأن النثر العربي هو الذي ارتقى حقاً في هـــذا العصر الحديث لأنه ابتكر اشياء لا عهد للقدماء بها دون ان يخل بفصاحة اللغة ورصانتها ودون ان ينحرف عن أصولها المقررة أو طبيعتها الخالدة ، على حين لم يستطع الشعر إلا ان يحيي مذاهب العبـــاسيين متأثراً لهم ومتأثراً بهم

أيضاً .

وكنت أغلو في مضايقة الشاعرين العظيمين ، فأرد بعض قصائدهما إلى نماذجها القديمة من شعر البحتري وأبي تمام والمتنبي – وكانا يضيقان بذلك أشد الضيق ويحاولان التجديد والابتكار ويوفقان منها الى شيء كبير .

فأين نحن الآن من تلك الحيـــاة التي كنا نحياها منذ ربع قرن والتي لم اروِ من أمرها إلا أطرافاً قصاراً والتي تشهد بها نصوص مايزال الناس يقرأونها ويكثرون من قراءتها ويستعينون بكثير منهـــا على احتمال الحيـــاة التي نحيونها الآن ؟ وليس من شك في ان اسباباً مختلفة كثيرة قد دعت الى ما نحن فيه الآن من هذا الاضطراب الادبي الخطير الذي يظهر في صور متناقضة أشد التناقض . فعقول شبابنا خصبة وقلوبهم ذكية وبصائرهم ناقدة لا ينكر ذلك إلا المكابرون . وفيهم من اجل هذه الخصال قدرة رائعة على الانتاج الفني ولهم من أجل هذه الخصال انتاج يعصم من اليأس ويفتح ابواباً لآمال عراض ، لا ينكر ذلك الا المكابرون ايضاً .

ولكن أدباء الشباب هؤلاء أشقياء بفنهم . وقراؤهم ليسوا أقل منهم شقاء لسبب يسير جداً وهو ان وسيلة الاداء تعوزهم اعوازاً مروعاً حقـاً . فآثار كثير منهم أشبه شيء بالجمال البارع الساحر الذي يعرض في الازياء الرثة المهلهلة التي تشوه براعته وتفسد سحره وتعلق القلوب تعليقاً مؤلماً

بين الاقبال عليه لأصالته وصدقه ، والانصراف عنه لرثاثة صوره وغثاثة ألفاظه . وادباؤنا الشبان يحسون ذلك من أنفسهم ومن قرائهم احساساً دقيقاً ، ويضيقون به ضيقاً شديداً ولكنهم لا يحاولون له طباً ولا علاجاً .. وانما يمعنون فيه امعان المستيئس ويلهجون به لهج المكابر المعاند الذي يعجزه الحسن فيهيم بالقبح ويفوته الكمال فيستمسك بالنقص ويتخذه مذهباً ومنهاجاً .

ثم هم لا يكتفون بما يتورطون فيه من العناد في غير موضع للعناد والمراء في غير موضع للمراء ، ولكنهم يتكلفون الغض من الذين سبقوهم ، ثم الخروج على ما ألف الناس من صور البيان وايثار الفصاحة على الركاكة والرقي على الاسفاف . فاذا لم يغن عنهم هذا كله شيئاً ثاروا باللغة نفسها ونصبوا لها حرباً اقل ما توصف به انها عقيم لا تغني عنهم شيئاً ولا تنيلهم خيراً قليلاً او كثيراً . فليس من الحق في شيء ان اللغة العربية الفصحى قد ماتت أو أشرفت على الموت ، بل ليس من الحق ان اللغة العربية الفصحى قد أدركها ضعف أو فتور أو قصور . وآية ذلك ان الناس يعربون بها عن ذات انفسهم حين يكتبون ما يريدون ان يكتبوا في الموضوعات المختلفة لا يجدون في ذلك حرجاً ، ولا يحتملون فيه عناء ، يؤلفون الكتب ويترجمون ما يؤلف غيرهم من الاجانب في اقطار الشرق والغرب ، وينشرون الصحف والمجلات ، والناس يقرأون ما يؤلف من

الكتب وما يترجم كما يقرأون ما تنشره الصحف والمجلات لا يجدون بذلك بأساً ولا يشكون منه جهداً . وآية ذلك ايضاً ان الناس ينشرون الكتب القديمة التي كتبت بالعربية الفصحى في عصورها المختلفة فيقرأها اصحاب الثقافة العميقة الواسعة وأصحاب الثقافة المتوسطة الضيقة ، وأكثرهم لا يقرأها مكرهاً على قراءتها ، واكثرهم كذلك لا يقرأها بالمجان وانما ينفق في قراءتها الوقت والمال والجهد عن حب لها ورغبة فيها ، وحرص عليها . وليس هذا شأن اللغة التي ماتت او اوشكت ان تموت . وليس هذا شأن اللغة التي ادركها الضعف او الفتور او القصور وانما هو شأن اللغة التي ما زالت حية قادرة على الحياة قوية قادرة على مغالبة الأحداث والخطوب التي تغير حياة الناس من يوم الى يوم .

وأدباؤنا الشبان يتورطون في خطأ أيّ خطأ حين يظنون ان اللغة العربية الفصحى لا يمكن ان تصح وأن تستقيم الا إذا اتخذت ذاك الشكل القديم الذي يألفونه في شعر القدماء ونثرهم اثناء القرون الثلاثة او الأربعة الأولى للهجرة . وهم حين يتورطون في هذا الخطأ يجحدون التطور وينسون حقائقه الاولى . فلغة القرن الاول للهجرة لم تكن مطابقة كل المطابقة للغةالجاهليين ، ولغة ابي نواس وأصحابه لم تكن مطابقة كل المطابقة للغة الفرزدق وجرير ، ولغة المتنبي ومعاصريه لم تكن هي لغة ابي نواس ولداته واترابه ، واللغة التي أتحدث اليهم بها الآن والتي يتحدث

اليهم بها غيري من الكتاب ليست هي اللغة التي كان يتحدث بها كتاب القرن الثالث الى قرائهم . ومعنى هذا كله ان حياة اللغة شيء وجمودها واستعصاءها على التطور شيء آخر . وأصحابنا هؤلاء من ادباء الشباب يتورطون في خطأ آخر ليس اقل من هذا الخطأ نكراً . فهم قد قرأوا في بعض الكتب ان اللغة اللاتينية قد كانت حية قوية منتشرة في غرب اوروبا ثم ماتت ونشأت عنها لغات مختلفة في بلاد كثيرة من أوروبا الغربية هذه . وما اسرع ما يثبون من هذا الذي قرأوه الى ان اللغة العربية الفصحى لغة قديمة قد نشأت عنها لهجات عامية فهي إذن قد ماتت وقامت اللهجات العامية مقامها . وقد قلت ألف مرّة ومرة أني لا أشفق على شبابنا من شيء كما أشفق عليهم من التفكير السريع والاحكام الخاطفة . فاللغة اللاتينية لم تمت فجأة ، واللغات الحديثة لم تقم مقامها فجأة ، واللغة اللاتينية لم تمت لأن الشبان من ابنائها قضوا عليها الموت في يوم من الأيام ، وقرروا ان تقوم اللهجات العامية مقامها ، وإنما ماتت اللغة اللاتينية في بطء بطيء جداً بعد خطوب طوال ليس هنا موضع الحديث عنها . وقد تعرضت اللغة العربية الفصحى لخطوب طوال ثقال ايضاً حفظتها كتب التاريخ ولكنها انتصرت الى الآن على هذه الخطوب فلم تمت ولم يدركها فتور او قصور ، وانما قاومت وغالبت وأتيح لها الغلب والانتصار ، فظلت حية قوية متطورة

وظلت اللهجات العامية ضعيفة ضئيلة لا تصلح للأداء الأدبي قليلاً او كثيراً . وآية ذلك اننا لا نعرف اثراً ادبياً رائعاً خالداً ، كتب في لهجة من هذه اللهجات الى الآن . وليس يكفي ان نقرر ان لغة من اللغات قد ماتت لتموت ، وليس يكفي ان نقضي الموت على لغة من اللغات ليصبح قضاؤنا ضربة لازمة ولتموت هذه اللغة لاننا اردنا لها الموت .

كل هذا عبث من العبث ، واضطراب فيما لا ينفع ولا يفيد ولا يغني عن الناس شيئاً ، واستجابة للكسل الذي يثبط الهمم ويفل الحديد ويميت القلوب . وخير من هذا كله ان نستقبل امور اللغة العربية الفصحى ومشكلاتها كما نستقبل غيرها من الامور والمشكلات ، فنلتمس لها ما يلائمها من الحلول ولا نستيئس من الظفر بهذه الحلول .

وللغة العربية الفصحى مشكلات خطيرة ليس في ذلك شك . وقد تنبهنا لهذه المشكلات منذ اواخر القرن الماضي ، ولكننا لم نجد الشجاعة الى الآن لحلها في غير تردد ولا تلكؤ ، وانما صانع منا الصانعون ، وداور منا المداورون ، وتركنا الامور تمضي كما تستطيع فعرضنا لغتنا وادبنا لشر عظيم .

ولست اذكر الآن من هـــذه المشكلات الا اثنتين ، كلتاهما خطيرة اشد الخطورة . فأما اولاهما فهي الكتابة العربية التي طالب الناس باصلاحهـــا منذ اواخر القرن الماضي فيما اذكر دون ان يظفروا بشيء . والثانية هي علم النحو الذي حاول الناس اصلاحـــه منذ اوائل القرن فلم

يظفروا بشيء أيضاً .

والاصل الذي يجب ان ينتبه اليه الناس هو ان الكتابة كانت فيما مضى كما كان النحو مقصورة على قلة قليلة من الناس فأصبحت بحكم النظم الحديثة مفروضة على الشعوب كلها . كانت أرستقراطية فأصبحت ديموقراطية إن صح هذا التعبير . وإذا كانت الارستقراطية تستتبع الصعوبة والعسر والضيق لأنها تصور الاستئثار والاحتكار واقـامة الحواجز والمصاعب دون ما يستأثر به السادة الممتـازون ، فان الديموقراطية تستتبع السهولة واليسر والاسماح وازالة المصاعب وتذليل العقاب . واذا اردت ان تطاع فاطلب ما يستطاع . ونحن نريد ان يكون الشعب كله كاتباً قارئـاً فلنيسر له الكتابة والقراءة حتى يبلغ حاجته منها في سعة ودعـة ، وفي يسر ولين .

ونحن نكتب الآن كما كنا نكتب منذ اكثر من ألف سنة حين كانت الكتابة امتيازاً تستأثر به قلة من الناس . فاذا ألغيت هذا الامتياز فألغ ما كان يقتضيه من ضروب المصاعب والعقاب ، ويسر الكتابة والقراءة ليستطيع الناس جميعاً ان يكتبوا ويقرأوا دون ان يضيعوا من الجهد والوقت ما لا يملكون .

ومن الحمق الاحمق والجهالة الجاهلة حقاً ان تطلب الى عـامة الشعب ان تحسن الفهم لتحسن الكتابة والقراءة . فالأصل ان يكتب النـاس ويقرأوا أولاً وان يفهموا بعد

ذلك ، وقل مثل هذا بالقياس الى النحو فنحن نعلّم صبيتنا وشبابنا أصول اللغــة العربية وخصائصها كما كانت تعلّم منذ اثني عشر قرناً في البصرة والكوفة وبغداد ، وقــد تغيرت الحياة وتغيرت العقول وأصبح النحو القديم تاريخاً يدرسه الاخصائيون ولم يبق بدّ من نحو ميسر ، قريب لتفهمه هذه الملايين الكثيرة من التلاميذ .

والصبية والشباب يتعلمون اللغــات الاوروبية ، فلا يجدون مشقة ولا عسراً في فهم النحو لهــذه اللغات ، لأن نحوهــا قد تطور حتّى لاءم الحياة الجديدة والعقل الجديد .

وأغرب من هذا ان اللغة اللاتينية الميتة تدرس للصبية والشباب في اوروبا ، ولا يجد الصبية والشباب مشقة ولا عسراً في فهم النحو اللاتيني لأنه قد يُسر حتّى لاءم الحياة الجديدة والعقل الجديد . وقل مثل ذلك بالقياس الى اللغة اليونانية القديمة . فاعجب للغات ميتة يُدرس نحوها الآن في يسر أيّ يسر ، وللغة حيــة هي لغتنا العربية يدرس نحوها في عسر عسير ، ولا ينتهي بتلاميذه الا الى جهله وبغضه وبغض اللغة العربية كلها من أجله .

وأنا مطمئن كل الاطمئنان الى ان اصلاح الكتــابة العربية وتيسير النحو العربــي كفيلان باراحة الجيل الناشىء مــن شبابنا من هذا العنــاء الثقيل الذي ينوء بالكتاب المعاصرين من شبابنا الادباء الذين تعلموا اللغة العربية في

أساليب لا تلائم عقولهم وامزجتهم فلم يحسنوها ولم يطمئنوا اليها ، واضطرهم ذلك آخر الأمر الى ما يشقون به ويشقى به معهم قراؤهم من هذا الانتاج الادبي الذي يجمع بين الجمال والقبح والجودة والرداءة في وقت واحد ، ومن هذه الشكوى التي لا تنقضي من صعوبة اللغة الفصحى واستعصائها ، ومن هذه المطالبة الممضة بالالتجاء الى اللهجات العامية واقامتها مقام اللغة العربية الفصحى التي تشقى بأساتذتها ومعلميها .

وأحب آخر الأمر ان ألفت أدباءنا الذين يطالبون بالالتجاء الى اللهجات العامية الى شيء خطير ما أرى انهم قد فكروا فيه فأحسنوا التفكير وهو ان العالم العربي الآن وكثيراً من اهل العالم الشرقي كله يفهم اللغة العربية الفصحى ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه وللتواصل الصحيح القوي بين أقطاره المتباعدة .

فلنحذر ان نشجع الكتابة باللهجات العامية فيمضي كل قطر في لهجته وتمعن هذه اللهجات في التباعد والتدابر ويأتي يوم يحتاج فيه المصري الى ان يترجم الى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين ، ويحتاج أهل سوريا ولبنان والعراق الى مثل ما يحتاج اليه المصريون من ترجمة الكتب المصرية الى لهجاتهم كما يترجم الفرنسيون عن الايطاليين والاسبانيين ، وكما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين .

ولنسأل انفسنا آخر الامر ايهما خير ان تكون للعالم

العربي كله لغة واحدة هي اللغة الفصحى يفهمها أهل مراكش كما يفهمها أهل العراق ؟ ام تكون لهذا العالم لغات بعدد الاقطار التي يأتلف منها ، وان يترجم بعضه عن بعض كما يترجم بعض الاوروبيين عن بعض ؟ أما أنا فأوثر وحدة اللغة وأثق الثقة كلها بأن لها النصر آخر الأمر ، وأرى غير متردد ان وحدة اللغة هذه حقيقة بأن يجاهد في سبيلها المؤمنون بها وبأن يضحوا في سبيلها بكل ما يملكون .

مشكلة

●

لفتني اليها صديق كريم في كتاب تفضل بكتابته الي بعد ان قرأ الحديث الذي نشرته لي « الجمهورية » في الاسبوع الماضي عن الفصحى والعامية ، واعترف بأني لم أكد أفرغ من قراءة ذلك الكتاب حتى استيقنت ان ذلك الصديق قد صور المشكلة فأحسن تصويرها ، وان هذا الحوار الطويل الذي أسرف الناس فيه حتى ملوا وأملوا حول الفصحى والعامية ليس الا دوراناً حول المشكلة دون تعمق لها او احاطة بها فضلاً عن حلها والتغلب عليها . وقد كان يقال لنا حين كنـــا طلاباً في الازهر الشريف ان الحكم على الشيء فرع من تصوره ، وكان يراد بهذا الكلام ان الذين يريدون القول في أمر من الامور يجب ان يحسنوا العلم به

والفهم لدقائقه قبل ان يقولوا فيه وقبل ان يحكموا عليه .

وكنا نتندر في تلك الايام بشيخ من شيوخنا رحمه الله كان يقول في كل شيء دون ان نفهم عنه شيئاً . وكان رحمه الله يتمدح فيقول انه يستطيع ان يتكلم ساعتين دون ان نفهم عنه شيئاً ودون ان يفهم هو عن نفسه شيئاً وكان يرى ذلك نعمة أسبغها الله عليه وفضلاً اختصه الله به والله يؤتي فضله من يشاء .. وليس من شك في ان شيخنا رحمه الله كان يقول فيكثر القول في الأشياء التي لا يحسن فهمها وكان كلما أحس منا قصوراً وعجزاً عن اتباعه أغرق في القول وتأنق في التعبير وعابنا بالغباء ، ودعانا بأسماء الحيوان لا يتردد في شيء من ذلك ولا يصطنع فيه تعطفاً ولا احتشاماً . فاذا تحدث الينا فيما يحسن من العلم لم يحتج الى اطالة او الى افتتان في التعبير ولم نحتج نحن الى سؤاله أو استعادته ، ولم نتعرض لنكون حمراً أو ثيرة أو خنازير وبتفخيم الخاء . ومعنى هذا كله ان من فهم شيئاً حق الفهم استطاع ان يعرب عنه حق الاعراب اذا احسن لغته وملك اداته ، ولا خير في فهم لا يؤدي عنه اللسان ، ولا خير في لسان لا يؤدي عن القلب والعقل فيحسن الاداء . ولم يخطىء الشاعر القديم حين قال :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

فلم يبقَ الا صورة اللحم والدم

والشيء المحقق هو ان الذين يضيقون باللغة الفصحى وينفرون منهـا ويفزعون الى ما يسمونه اللغة العـامية لا يعرفون اللغة العربية الفصحى حق معرفتها قبل كل شيء لانهم لم يتعلموها كما ينبغي ان يتعلموها . شقت عليهم في المدرسة ولم يحسن اساتذتهم تحبيبها اليهم فاتخذوا دروسها وسيلة الى النفوذ من الامتحان لا وسيلة الى التعبيـر عن ذات نفوسهم . وانقطعت الصلة بينها وبين قلوبهم وعقولهم فلم يعرفوا الا لغة الحديث هذه التي يديرون بها ألسنتهم حين يلقون اصحابهم وحين يتحدثون الى الآباء والامهات والاخوان والاخوات . وربما نشأ عن هذا شيء خطير جداً وهو ان قصورهم عن العلم باللغة قد اضطرهم الى القصور عن فهم كثير من العلم الذي كان يلقى اليهم في المدارس والمعاهد والجامعات . فهذا العلم كان يكتب لهم باللغة الفصحى فيما يقرأون من الكتب ويلقى اليهم بلغة مختلطة من الفصحى والعامية ، فيفهمون قليلاً ويعجزون عن فهم الكثير ، ويحفظون ما في الكتب والمذكرات عـن ظهر قلب ليعيدوه حين يدعون الى الامتحان ولينسوه بعد ان يفرغوا من الامتحان . فهم يمرون بالمدرسة مراً فيحفظون منها شيئاً ويجهلون منها ومما يلقى فيها اشياء . فاذا ظفروا بالاجازة المدرسية او الدرجة الجامعية رأوا أنفسهم علماء بحكم القـانون وبشهادة الدولة ، ولم ير الناس عندهم علماً أو شيئاً يشبه العلم لأنهم لم يتعلموا كما تعلم الناس ولم يفهموا كما ينبغي للناس ان يفهموا

وآية ذلك ان العلم في بلادنا لا يكاد يثمر مع ان ذكاء القلوب ونفاذ البصائر وقدرة العقول على الفهم والبحث والاستقصاء كل ذلك لا ينقصنا ، وانما الذي ينقصنا هو تمرين القلوب والبصائر والعقول على الشعور والفهم والبحث والاستقصاء.

والأمر بالقياس الى اللغة الفصحى لا يعدو ان يكون كما هو بالقياس الى أي لون من ألوان المعرفة أمر العلم والجهل . نحسن العلم فنحسن التعبير ونخطىء العلم فيخطئنا التعبير ... وإذا أتيح للتعليم ما ينبغي له من الاصلاح ففهم التلاميذ والطلاب عن أساتذتهم حق الفهم ، وامتزج العلم بعقولهم وقلوبهم وأصبح جزءاً من نفوسهم لا شيئاً يستعار اليوم لينطرح غداً،أتيح للمتعلمين ان يعربوا عما عرفوا من العلم وأتيح لهم كذلك ان ينتخبوا فيما عرفوا من العلم وأتيح للعلم ان يتوطن في مصر كما يتوطن فيها أبناؤها وان يستقر فيها استقرار المواطن ولا يلمّ بها إلمام الغريب .

وما يقال بالقياس الى العلم يقال بالقياس الى الأدب وبالقياس الى الفن وبالقياس والى ما شاء الله من ألوان الثقافة وضروب النشاط العقلي على اختلافه .. فلأمر ما نفر الفن من مصر على حظ مصر في عصورها القديمة من اتقان الفنون والتفوق فيها ..

ولأمر ما ظلت الموسيقى في مصر كما يقول ذلك الصديق الكريم الذي كتب اليّ ، في طور السجع والجناس والطباق متكلفة لا تصور شيئاً ولا تدل على شيء .

ومن خصائص الادب أنه لا يخضع لما تخضع له ألوان المعرفة الاخرى من هذه القيود التي تفرض في المدارس والمعاهد والجامعات . فأنت لا تستطيع اصطناع مهنة الطب أو الهندسة إلا اذا اذنت لك الدولة في ذلك بعد أعوام معينة تقتضيها في الدرس النظري والعقلي ، وبعد امتحانات معينة تجوزها في يسر او في عسر . ولكنك لا تحتاج الى اذن للدولة لتكون أديباً وإنما يكفي أن تحسن تناول القلم واجراءه على القرطاس بما يمكن ان يقرأه الناس لترى نفسك اديباً ان شئت ، وليراك الناس أديباً ان أعجبهم ما تذيع فيهم من فنون القول . وقد أتيحت المطبعة واتيحت الصحافة في هذا العصر الحديث فأصبح من الممكن لكل كاتب ان ينشر ما يكتب في كتاب او في صحيفة ، فاذا رأى كلامه مطبوعاً في كتاب او منشوراً في صحيفة ظن انه اديب . فاذا احس رضى الناس عما يكتب استيقن انه من قادة الرأي . واذا احس إعراضهم عما يكتب لم يشك في انه مظلوم مغبون لا يستطيع الناس ان يفهموا عنه او يقدروا انتاجه الرفيع ، واذا احس سخطهم على ما يكتب لم يتردد في الثقة بأنه قد سبق العصر الذي كان ينبغي ان يعيش فيه وبأن ادبه قد جاء قبل إبانه وبأن الأجيال المقبلة ستقدره خيراً مما قدرته الأجيال المعاصرة وستفهم عنه خيراً مما يفهم عنه المعاصرون .

ولست ادري أيجرب الادباء ما اجرب من هذه

الصور الكثيرة التي تصبحني وتمسيني في كل يوم والتي يعرضها عليّ اصحابها ليعرفوا رأيي فيها وحكمي عليها وهم واثقون قبل عرضها عليّ انها جيدة كل الجودة ومتقنة كل الاتقان . وهم يرضون عني كل الرضا اذا شجعتهم ، واثنيت عليهم . ولكنه رضى موقوت لا يلبث ان يستحيل الى سخط واتهام بالحسد والجحود والعقوق ايضاً ، اذا لم امض في الثناء والتشجيع . وهم يسخطون عليّ اشد السخط اذا رددت اليهم آثارهم متلطفاً ولم أمنحهم من الثناء والتشجيع ما كانوا ينتظرون . يرون ذلك اثرة وبخلاً واشفاقاً من منافستهم لي وتفوقهم عليّ .

وكذلك يكثر الكاتبون عن علم وعن غير علم وينشرون من الكلام ما يقرأ وما لا يقرأ ، ولا سبيل الى ان تتقي هذا ، وتصد الناس عنه . فالصحف محتاجة لأن تفيض أنهارها وما اكثر ما تفيض الأنهار بالغث والسمين . واذا رأى صاحب الكلام الغث ان كلامه قد نشر الى جانب الكلام القيم لم يفرق بين هذا وذاك ولم يشك في انه أحسن وأجاد . ولم يزده هذا الا غروراً وامتلاءً بنفسه ثقة بأنه يستطيع ان يخوض كل شيء وان يقضي على كل شيء . وويل للذين لا يذعنون لقضائه حين يقضي ولا يؤمنون بقوله حين يقول .

والصحف لا تستطيع ان تطالب كتابها بالتجويد الفني لأن نظامها يعجلها ويعجلهم عن ذلك . وليس المهم بالقياس

الى الصحف أن تنشر الادب الشائق الرائق فحسب وانما الذي يعنيها قبل كل شيء ان تنشر ما يفهمه الناس منها على اختلاف طبقاتهم ، وهي لا تحفل بترقية الذوق ولا بتهذيب الطبع الا قليلاً وانمـــا تحفل باذاعة الانباء واثارة الميل الى الاستطلاع . فهي أشد حاجة الى ما يبلغ ذلك من نفوس قرائها منها الى ما يمتع عقولهم وأذواقهم ويصلح قلوبهم ويهذب طباعهم . ومن الصحف ما لا يعنيها ذلك قليلاً ولا كثيراً . والذي تقوله في الصحف تستطيع ان تقوله في الاذاعة التي تتجه الى الكثرة لا الى القلة والى الكافة لا الى الصفوة . وكذلك تختلط القيم أشد الاختلاط ولا يفرق القراء او كثرتهم على أقل تقدير بين الاديب والكاتب الصحفي الذي لا حظ له من عناية بالأدب او مشاركة فيه .

والناس يتناقلون الأخبار والأحاديث بينهم باللغة التي يتكلمونها لا يتأنقون في ذلك ولا يحتفلون له . فلمَ لا تلقي الصحف اليهم أنباءها وأحاديثها بهذه اللغة التي يتكلمونها ؟ ذلك أيسر على كتابها حين يكتبون وأيسر على قرائها حين يقرأون . فأما التأنق والاحتفال بصناعة الفارغين للأدب . وليس العصر الذي نعيش فيه عصر فراغ للأدب او عكوف عليه او أناة في انتـــاجه ، واذا كثر نشر الكلام الذي يكتب في يسر ويفهم في يسر ولا يحتـــاج كاتبه الى أناة في كتابته لأن الصحيفة تعجله عن الاناة ولا يحتاج قارئه

الى الاناة في قراءته لأن اعباء الحياة تعجله عن الاناة ، اذا كثر نشر هذا الكلام السهل وكثرت معه القراءة السهلة ألف الناس هذه السهولة وضاقوا بالمشقة وكرهوا الجهد واحتمال العناء ، وأصبح الكسل لهم طبيعة وزهدوا في الفن وما يكلف اصحابه من انفاق الوقت والقوة واحتمال المشقة الشاقة والعناء المرهق . ومـــاذا يصنع الطالب والتلميذ بين دروس تلقى اليه إلقاء مهملاً وصحف تلقي اليه الاخبار والاحاديث إلقاء مهملاً واذاعــــة تصبحه بالكلام الكثير المختلف الذي يلقى اليه إلقاء مهملاً ؟ لمَ لا تصبح حياته كلها اهمالاً في التفكير ، واهمالاً في التعبير ، واهمالاً في البحث والاستقصاء ، واهمالاً في الحكم على الاشياء وفي تقدير الاشياء بينه وبين نفسه ؟

ويزيد في خطورة هذه الظواهر كلها ان الحياة العقلية جديدة بالقياس الى هذه الفكرة التي اخذت تشارك فيها فئة معينة وانتصر التعليم واستيقظ الضمير العام بينها . فعلمنا الحديث وادبنا الحديث وثقافتنا الحديثة كل ذلك لا يعتمد على سنة موروثة ولا عادات يتلقاها الأبناء من آبائهم . وانما هو شيء طارىء بعد ان لم يكن ، وهو طـــارىء بالقياس الى فريق من الناس دون فريق .

فالمتعلم غريب بين الذين لم يتعلموا ، والأبنـــاء الذين يختلفون الى المدارس والمعاهد والجامعات غرباء حـــين يروحون الى بيوتهم ويتحدثون الى آبائهم وامهاتهم بل هم

غرباء حين ينصرفون عن مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم .

وهم بحكم هذه الغربة معرضون لكثير من الشر ، معرضون لهذا الجهل الذي يغمرهم ويأخذهم من جميع اقطارهم والاستسلام أيسر من المقاومة والكسل أيسر من العناء . فما لهم لا يعيشون في بيئاتهم اذن ، وما لهم لا يحيون حياتين مختلفتين إحداهما عسيرة يحيونها في معاهد العلم والاخرى يسيرة يحيونها في الشوارع والأندية والملاعب والدور ؟ وكذلك يكون حظ الجهل من حياة الشباب اكثر من حظ العلم . وأثر الجهل في نفوسهم اشد من اثر العلم والأدب والفن .. أشياء يتكلفها الشباب تكلفاً ولا تستجيب لها طباعهم وعقولهم وقلوبهم الا قليلاً . والنتيجة الطبيعية لهذا كله لو استقامت العقول وصح تقديرنا للأشياء وحكمنا عليها ان نقاوم الجهل وتأثيره في نفوس الشباب ما استطعنا الى مقاومته سبيلاً وان نكره الى شبابنا هذه السهولة التي يألفونها والتي تغريهم بالكسل وترغبهم فيه ، وتحبب اليهم الجد وتزينه في قلوبهم وتغريهم بصعاب الأمور وتدعوهم الى الدخول من الأبواب الضيقة لا من الأبواب الواسعة التي لا تكلف الداخلين منها مشقة ولا جهداً والذي اعرفه ويعرفه كثير من الناس ان في الارض بلاداً اخرى كثيرة غير بلادنا يحيا فيها الشباب حياة تدفعهم دفعاً الى الاستزادة من العلم والمعرفة في كل لحظة من لحظات النهار والليل وتدفعهم دفعاً الى محاولة الجهد واحتمال المشقة وعدم

الاستسلام لهذا الكسل الذي يميت القلوب ويخمد جذوة العقول . وهم من اجل ذلك لا يضيقون بلغاتهم لأن العلم بها يدعوهم الى شيء من الجهد الكثير او القليل . وهم من اجل ذلك لا يفرضون لغة الشارع على ادبائهم وشعرائهم وانما يرفعون انفسهم بين حين وحين ساعة او ساعات في كل يوم من حياة الشارع هذه الى حياة الكتاب والشعراء في كتبهم ودواوينهم والى حياة العلماء في كتبهم ومعاملهم والى حياة الفنانين مستمتعين بما ينتجون من ضروب الفن الجميل على اختلافها . لا يمنعهم ذلك من النهوض بأعباء الحياة اليومية بل يشجعهم على احتمال هذه الاعباء ، يقبلون عليها ويشقون بها مطمئنين الى انهم سيتخففون منها آخر النهار بقراءة الشعر او النثر وبالاستماع الى آيات الموسيقى وسيتخففون منها يوم الراحة بالاختلاف الى المتاحف يستمتعون بما فيها من روائع الفن القديم والحديث وبالتنزه في الحدائق والرياض ينعمون فيها بجمال الطبيعة وسحرها . وهم بذلك يحيون حياة الانسان الجدير بهذا الاسم يؤدون للجسم حقه ولملكاتهم العقلية والشعورية حقها . في تلك البـلاد يحاول بعض الكتاب ان يكتبوا بلغـة الشارع فلا يتاح لهم الا الاخفاق لأن الناس ينفقون اكثر وقتهم في التحدث بلغة الشارع والاستماع لها ويريدون ان يستريحوا منها إلى لغة الكتاب والشعر والتصوير والموسيقى والى لغة الطبيعة التي لا تتحدث الي وحدها وانما تتحدث الى نفوسهم بغير واسطة

ما أشد حاجتنا الى ان نفهم حياتنا التي نحياها حتى فهمها ونعلم اننا اشبه بالغريق الذي يقاوم النهر لأنه ان استسلم له ادركه الموت . ونحن نسبح في بحر لا في نهر من الجهل والغفلة ومن الابتذال والاسفاف . فمن الحق علينا لأنفسنا ولوطننا وللأجيال المقبلة من ابنائنا واحفادنا ان نقاوم هذه الامواج الجاهلة التي توشك ان تطغى علينا وتضطر نفوسنا الى الموت وتتركنا أجساماً تحيا حياة الانعام لا حياة الناس .

وما أشد حاجتنا الى ان نبذل أقصى ما نستطيع من الجهد لتصبح حياتنا العقلية كلها تعلماً لا تجهيلاً .

التمثيل

●

وهذه خصومة جديدة لست أدري أتقصر أم تطول ، بل لست أدري أيعنى بها الشباب من ادبائنا كما عنوا بالخصومة حول الادب أيكون في سبيل الحياة ام تكون الحياة في سبيله ، وحول صورة الادب أتكون هذا المزاج الذي يمتع القلب والعقل والذوق ويغني النفس بما يثير فيها من الشعور بالجمال والطموح اليه ام تكون ذلك الكلام اليوناني الذي لا يقرأ ولا يفهم لان اصحابه لم يحسنوا الفهم عن الفيلسوف الايطالي العظيم بندتو كروتشه ولم يحسنوا التعبير عما لم يحسنوا فهمه . فقالوا كلاماً يقرأه الناس فيظنون انهم يقرأون تلك الكلمات التي تأتلف منها العزائم او الطلسمات والتي يفهمها الجن ولا يجد الناس الى

فهمها سبيلاً .

اما انا فأعنى بهذه الخصومة الجديدة عناية خاصة لأنها ممتعة في نفسها اولاً ولأنها تنفع الشباب الذين لم يتورطوا بعد في قراءات غريبة يفهمونها او لا يفهمونها ولكنهم في اول حياتهم الأدبية يلتمسون طريقهم ويلتمسون نفوسهم ايضاً ، ويتهيـــأون ليظهروا في اثر هذا الجيل من ادبائنا الجدد .

وهذه الخصومة الجديدة اثارها الأستاذ الصديق عزيز أباظة منذ أيام أو أثرتها انا منذ عام ونصف عام ، والفضل في إثارتها راجع الى شاعرنا الكبير على كل حال . فقد قدمت الى القراء منذ حين غـــير قصير قصته الرائعة : « غروب الأندلس » وقلت في تلك المقدمة اني لا انشط للتمثيل الذي يعرض على الناس شعراً في هذه الأيام ، لأن التمثيل قد شب عن طوق الشعر وتحرر من قيوده وأوزانه وآثر الحرية الحرة والطلاقة الطليقة اللتين تتاحان في النثر اكثر ما تتاحان في التعبير .

وشاعرنا الكبير صبور حسن الأناة متّئـــد في كل ما يعمل ومتّئد في كل مـــا يقول ، الى سماحة في الخلق ورجاحة في الحكم وإيثار للعافية وازورار عن المراء . وهو من أجل ذلك تفضل فتقبّل المقدمة بقبول حسن وصدّر بها الطبعة الأولى لقصته الممتعة . ولكنه مع ذلك لم يرضَ رأيي في الشعر التمثيلي الحديث فصبر من هذا الرأي على ما

كره وانتظر حتى سكت عنه الغضب ، ثم اقبل في الاسبوع الماضي على رأيي ذاك يجادلني فيه ويريد ان يصرفني عنه ، ولكنه مع الأسف الشديد او مع السرور الشديد لم يبلغ شيئاً . فهو لم يستطع ان يقنعني بأن الشعر عامة والشعر العربي خاصة يلائم التمثيل في هذه الايام ، وايسر ما ينبغي ان نفكر فيه حين نعرض لهذا الموضوع هو هذه القصص التمثيلية التي لا تكاد تحصى والتي تشغل ملاعب التمثيل في اوروبا وامريكا في هذه الأيام والتي تتجدد تجدداً مطرداً من عام الى عام كما تقفو امواج النهر الجاري ما يسبقها من الأمواج وكما تقفوها امواج يسعى بعضها في إثر بعض ما دام النهر جارياً فيما رسم له من طريق .

ثم نستقصي هذه القصص وكتابها لنرى لأيهم تكون الكثرة الكثيرة أللشعر ، أم للنثر ؟

فان تكن للشعر فقد أخطأت انا واصاب الشاعر الكبير . وأؤكد له اني ابتهج بخطئي ان اكن مخطئاً اكثر مما يبتهج هو باصابته إن يكن مصيباً . ذلك لأني اؤثر الشعر على النثر ، واود لو اتيح لي ان تكون قراءتي كلها شعراً ، بل ان تكون حياتي كلها شعراً لأن الشعر الجيد جمال خالص يجد الانسان فيه نفسه وقلبه وعقله وذوقه في غير مشقة ولا جهد ، وفي غير كدر ولا رفق ، وفي غير غرور ولا كبرياء . ولأن الشعر يخلق لقارئه عالماً كله صفو ، وكله سمو وكله ارتفاع عن النقائص وتنزّه عن الصغائر وكله

يسر واسماح .

وما أرى ان احداً يكره ان تكون حياته كلها شعراً ، ولكن الناس يريدون والاقدار تقضي لهم ما تريد هي ، لا ما يريدون هم .

والاقدار قد قضت على الناس في هذه الايام ان يكون حظهم من الشعر قليلاً او أقل جداً من القليل ، ومن يدري لعلها قضت عليهم ان تقدم لهم هذه الحياة الغليظة الجافية الخشنة المحفوفة بالمكاره لتمتحن بها قلوبهم وتمحص بها قلوبهم وتهيء بها الاخيار منهم لحياة كلها شعر ، وكلها روعة وجمال ويسر وإسماح وصفاء ونقاء في الجنة التي ادخرها الله لعباده الصالحين . فأما في هذه الدنيا التي نعيش فيها منذ استأثر العلم بعقول الناس وابتكر لهم ما ابتكر في حياتهم المادية والمعنوية جميعاً ، فنحن مكرهون ان نقنع بالنثر الذي اتيح لنا والذي يلائم هذه الحياة التي نحياها ويؤدي عنا اغراضنا فيها كما يستطيع ان يؤديها عنا .

والشعر ليس نادراً في التمثيل وحده ، ولكنه نادر في الادب كله ، والشعر لا يتاح لكل من استطاع ان يشعر او يفكر او يحس ان عنده شيئاً يستطيع ان يقوله للناس وإنما يتاح لقلة قليلة جداً ما الافذاذ المختارين الذين يختصهم الله بمواهب ممتازة يأتيهما امتيازها من انها نادرة ليست شائعة ولا ميسرة ولا مكتسبة بالمحاولة والمطاولة والمعاناة وحدها ، وانما تحتاج الى المحاولة والمطاولة والمعاناة

بعد ان توهب لبعض الطباع الخاصة التي يؤثرها الله بموهبة الشعر إيثاراً . وآية ذلك ان كل أديب قد حاول الشعر في أول امره طموحاً منه الى هذا المثل الأعلى .

ثم ردّ عنه أكثر الأدباء حين استبان لهم انهم اقصر باعاً وأضيق ذراعاً من ان يبلغوه لأن الشعر شيء لا يكتسبه الناس اكتساباً وإنما يتلقونه فضلاً من الله الذي يؤتي فضله من يشاء من عباده ...

ومهما يكن من شيء فاني أدعو شاعرنا الكبير الى ان يستقصي معي ما يعرض على الناس من التمثيل في العالم الحديث لنرى أتكون كثرته شعراً ام نثراً . وما اشك في أنه ان فعل سيعدل عما زعم في مقاله الأخير من أن أسماء الشعراء الممثلين ليست أقل كثيراً من أسماء الكتاب الممثلين ، وسيؤمن إيماناً لا يبلغه شك من أي ناحية من نواحيه بأن التمثيل قد انصرف عن الشعر منذ عهد بعيد . وبأنه يستطيع ان يعد العشرات والمئات من الكتاب الممثلين الذين يقدمون الى القراء والنظارة عشرات ومئات من القصص التي كتبت نثراً دون ان يحصي عشرة واحدة من الشعراء الذين يقدمون الى الناس قصصاً تمثيلية قد نظمت شعراً في هذا العصر الذي نعيش فيه .

ويستطيع الاستاذ ان يذهب الى المدن الكبرى التي تكثر فيها الملاعب ويزدهر فيها التمثيل وأنا زعيم بأنه لن يجد خمس قصص شعرية تمثل الآن في العالم كله ، على حين

أنه سيجد مئات من القصص النثرية تعرض على الناس في كل ليلة فيها الجيد وفيها الرديء وفيها ما هو بين ذلك ولكنها كلها قد صبت في النثر صباً ولم تصغ في الشعر. وفي باريس مثلاً عشرات من ملاعب التمثيل الجادة والهازلة وكلها تعرض على النـــاس الآن تمثيلاً منثوراً ، إلا ان بعضها يعرض قصص الفحول من الشعراء القدماء كشكسبير وكورني وراسين ومن إليهم .

وكم أحب ان يراجـــع الاستاذ نفسه فيما زعم من أمر الشاعر العظيم إليوت فتمثيله المنثور اكثر من تمثيله الشعري فيما أعلم ، وهو بعد ذلك شاعر يعنى بالشعر الخالص اكثر مما يعنى بالشعر التمثيلي . وقد يعرض له التمثيل من حين الى حين فيعمد اليه ناثراً اكثر مما يعمد اليه شاعراً . وفي فرنسا شاعرها العظيم الذي تؤمن له بالتفوق والنبوغ،وتؤمن له بالتفوق والنبوغ بلاد أخرى غير فرنسا وهو كلوديل وتمثيله مع ذلك على كثرته وروعته وتفوقه ليس شعراً وليس نثراً بالمعنى المألوف وانما هو شيء بين ذلك تحرر من الشعر ومن قيوده ولم يهبط الى النثر الذي يصطنعه الناس عامة ، وانما اتخذ لنفسه لوناً خاصاً من النثر لا يكاد احد يشاركه فيه .

وقل مثل ذلك بالقياس الى البلاد الاخرى التي يزدهر فيها التمثيل . وما من شك في ان النثر قد انتصر على الشعر في هذه الموقعة التي اثيرت بينهما وهي موقعة التمثيل ، وقد كان الأمر بينهما كذلك في جميع العصور وفي جميع البيئات

وبالقياس الى كثير من فنون القول لا بالقياس الى التمثيل وحده ، فالعرب مثلاً في جاهليتهم لم يعرفوا من فنون الكلام المنثور الا احاديثهم اليومية وامثالهم السائرة وخطباً قصاراً كانت تلقى في بعض المقامات ذهبت عنا ولم يبق لنا منها شيء . كانت كثرتهم تجهل الكتابة وكان الذين يحسنون الكتابة يصطنعونها في معاملاتهم المادية ولا يحسنون التعبير بهـا عما يريدون حتى في أيسر معاملاتهم . وفي العصر الاسلامي الأول كانت حياتهم العقلية كلها شعراً وعرفوا النثر في شؤون العلوم الدينية وفي شؤون السياسة حين كانوا يختصمون ، وفي شؤون الوعظ حين كان القصاص يذكرون الناس بأيام الله . ثم جعل النثر يقوى شيئاً فشيئاً حتى بلغ أشده في القرن الثاني وإذا هو لا يكتفي بميادينه المقسومة له من حياة الناس في العلم والفلسفة والرسائل السياسية وغير السياسية ولكنه يطمع الى ان ينازع الشعر في بعض فنونه التي كانت خاصة به مقصورة عليه ، واذا هو ينـازع الشعر في المـدح وينازعه في الهجاء وينازعه في الوصف وينازعه في الرثاء ويقهره في بعض هـذه الفنون مما اظن أنه استطـاع ان يبلغ من الهجاء ما بلغه الجاحظ مثلاً منه في رسالة التربيع والتدوير . ولم يعرف العرب التمثيل لأن التمثيل اليوناني كان وثني النزعة فقد كانت الفلسفة اليونانية ايضاً منحرفة عما ألف المسلمون والمسيحيون من امور الدين ، واولئك وهؤلاء قد عرفوهـا حق معرفتها

ولكن السبب يسير جداً وهو ان العرب لم يجدوا التمثيل عند الذين عاصروهم من الروم ، فقد أعرضت المسيحية عن التمثيل ولم تكن آيات التمثيل اليوناني تعرض على النظارة أو تقرأ في الكتب حين اتصل المسلمون بالروم . ومن أجل هذا حاول العرب ان يترجموا كتاب الشعر لأرسطاطاليس فلم يستطيعوا ان يفهموه على وجهه لأنهم لم يعرفوا من أمر التراجيديا والكوميديا شيئاً ذا بال . وحاول ابن سينا ان يلخص كتاب الشعر فلم يصنع شيئاً مع انه قد وفّق إلى تلخيص الخطابة توفيقاً حسناً . وليس لذلك سبب إلا ان العرب ومن عاصرهم من اليونان كانوا يتحدثون عن التمثيل كما يتحدث الناس عما لا يحققون .

وأمر العرب في هذا كله كأمر غيرهم من الأمم القديمة . كانت حياتها العقلية كلها شعراً أول الأمر ، ثم نشأ فيها النثر فغلب الشعر شيئاً فشيئاً على فنون القول كلهـا ، وحصر الشعر في فن واحد من الفنون وهو الغناء . فقد كان التاريخ مثلاً أو الحديث عما مضى من امور الناس يكون شعراً قصصياً ، ثم غلب النثر على هذا الفن قليلاً قليلاً حتى أقصي الشعر عنه إقصاء ، بل كان تسجيل العلم نفسه يكون شعراً ، واذكر إن شئت قصيدة الأعمال والأيام للشاعر اليوناني القديم اسيودوس . ثم جعـل تسجيل العلم يكون نثراً قليلاً قليلاً حتى استأثر النثر به كله ، وأصبح نظم العلم شعراً شيئاً تعتمد اليه الأمم المتحضرة عن إرادة

وتكلف ورغبة في تيسير الحفظ والاستظهار على الطلاب لا طبيعة سائغة ميسرة .

وكذلك استأثر النثر بالحيـاة العقلية الانسانية ولم يبق للشعر إلا اللون الغنـائي من هذه الحياة ، على ان النثر كثيراً ما يزاحمه في هذا اللون أيضاً .. حتى اضطر الشعر في العصور الحديثة إلى ان يتحرر أحياناً من قيوده التقليدية فيطرح القافية وييسر الوزن ويبعد عن أصله الموروث ويدنو من النثر دنواً شديداً .

ومن هنا نشأ ما يسميه الناس شعراً منثوراً وما يسمونه شعراً حراً ، وما يسميه بعضهم شعراً أبيض . كل هذا جاء من تغلب النثر على الشعر ومن طموح النـاس الى الحرية الحرة التي لا تحب القيود حتى في الأشياء التي ألفت فيها القيود . فاستحالة التمثيل من الشعر الى النثر ليست شيئاً غريباً في الظواهر الأدبية لا بالقياس الى أمه بعينها ، بل بالقياس الى الأمم كلها .

وقد كان التمثيل الأوروبـي في أول أمره أيام النهضة شعراً ، لأن الأوروبيين ذهبـوا به مذهب القدماء من اليونانيين واللاتينيين فنظمـوه شعراً ، كما كان أولئك يفعلون ، بل تخيروا أكثر الموضوعات التي نظمـوا فيها الشعر التمثيلي بين الموضوعات التي كان القدماء ينظمون فيها شعرهم ، فعرضوا لأساطير اليونان والرومان ولبعض الأنباء التاريخية اليونانيـة والرومانية ، وقلما كانوا يعرضون لغير

هذه الأساطير والانباء من الموضوعات .

وتحرر أصحاب الكوميديا من هذا كله ، كما كان القدمـــاء من اليونان والرومان يتحررون منه .. فاشتقوا موضوعاتهم من حياة الناس الذين كانوا يعاصرونهم كما فعل موليير في اكثر قصصه ، وكما فعل أرستوفان من قبله عند اليونان ، ولكن القرن الثامن عشر لم يكد يظل الأدب الاوروبي حتى جعل التمثيل يتحرر من هذه القيود كلها . فعمد الى النثر مكان الشعر عند الكثير من الممثلين وترك الموضوعات القديمة الى الموضوعات الحديثـــة ، وما زال يمضي في طريقه هذه ثائراً على مذهب القدماء حتى انتهى الى حيث نراه الآن ، لا يلم بالشعر الا قليلاً وإذا ألمّ به لم يستأثر بالنظارة الا إن يكون شعراً ممتازاً حقاً ، كما فعل ادمون روستان في أواخر القرن الماضي وفي أوائل هذا القرن . وكما يحاول بعض الشعراء الآن ان يفعلوا بين حين وحين .

فالتمثيل الشعري الآن طرفة نادرة يطرف بعض الشعراء الممتازين بها الناس وقتاً بعد وقت ، ولا يمنعهم ذلك من ان يعمدوا الى النثر في بعض القصص لأن النثر قد أصبح اللغة الطبيعية للتمثيل منذ وقت قصير .

وقـــد عرف العرب فنّ التمثيل بآخرة حين اتصلوا بالأوروبيين ورأوا ملاعبهم وشهدوا تمثيلهم وقرأوا أدبهم التمثيلي على اختلاف ألوانه ، فحاول بعضهم ان يدخل هذا

الفن في الأدب العربي مقلدين اول الأمر ثم مبتكرين بعد ذلك في ظروف قليلة جـداً . فنقلوا كثيراً من القصص الفرنسية والانجليزية نقلاً مقارباً اول الأمر ونقلاً دقيقاً في بعض الأحيان . وأخذوا يعرضون هذه القصص على النظارة من الشرقيين وأتيح لهم شيء من النجح . فألف الناس الملاعب وجعلوا يختلفون اليها وجعل الممثلون يستهوونهم بالشعر والغناء واشياء اخرى غير الشعر والغناء . والناس يستجيبون لهم مستمتعين بما يعرض عليهم . وبعض الشباب يشغفهم هذا الفن ويستأثر بقلوبهم وأهوائهم ، ثم يستهوي ملكاتهم . وما أرى ان أديبينا العظيمين الاستاذ محمود تيمور والاستاذ توفيق الحكيم قد أحبا هذا الفن وحاولا ان ينتجا فيه إلا متأثرين بما كانا يشهدان من هذا التمثيل في آخر الصبا وأول الشباب . ثم قرآ وتثقفا وتعمقا هذا الفن .وأتيح لها بعد ذلك ما أتيح من الابداع والامتاع .

وثورتنا بالانجليز في أعقاب الحرب العـالمية الأولى هي التي أذكت جذوة التمثيل في مصر مـا في ذلك شك . فهي قد أذكت شعورنا بأنفسنا وغضبنا لكرامتنا ومطالبتنا بحقوقنـا وذودنا عن حريتنا وكشفت عن كنوز كانت مخبوءة في أعماق ضمائرنا ، وفرضت على كل واحد منا ان يعطي خير ما عنده لنفرض انفسنا على خصمنا ولنشعر العالم بآلامنا وآمالنـا وسموّنا الى حقنا في الحياة الحرة

الكريمة وهي قد حولت شوقي من القصر إلى الشعب وأمعنت محافظ في الاقبال على الشعب يؤثره بخلاصة شعره من دون الأغنياء والموسرين. وهي قد اضطرت شوقي إلى ان يشارك في الحياة الجديدة بلون جديد لفنه الشعري العظيم. اكبرت رأيه في نفسه واكبرت رأيه في أمته وقوة ايمانه بمواطنيه وسمت به إلى ان يذهب مذهب الشعراء الكبـــار في الأمم الكبرى فحاول ان يكون له تمثيـــل كتمثيل شكسبير وكتمثيل كورني وراسين، وكتمثيل فيكتور هوجـــو. فوضع قصصه التمثيلي المأثور.

ولكن شوقي كان صاحب غنـــاء لا صاحب تمثيل، وكان مبتدئاً في هذا الفن التمثيلي فلم يتح له من الاتقان الا ما اتيح للمبتدئين الناهين. وكان تمثيله غناء وقد غنى فيه المغنون بالفعـــل، وعاش جيل من معاصريه مستمتعاً بغناء عبد الوهاب ومنيرة المهدية لبيته المشهور:

انا أنطونيو وأنطونيو انا ...

واظهر ما يلاحظ في تمثيل شوقي انه قصد بفنه الى موضوعات مصرية يرفع بها من شأن وطنه ويميط بها عنه الأذى كما فعـــل في كليوبترة وفي قمبيز، وقصد به الى موضوعات عربية يصور بها مجداً عربياً مؤثلاً ثابت الأسس ينعم الناس في ظله بالسلم والحب والغناء جميعاً آمنين في استمتاعهم بهذا كله لا يصرفهم عنـــه خوف او قلق. فأنشأ قصة المجنون. وكان الناس يطربون لغناء شوقي في

قصصه ذاك اكثر ممـــا يعجبون او يخلبون بتمثيله . وربما خضع شوقي لتأثير بعض الشعراء الاوروبيين الذين كان يحاكيهم خضوعاً ظاهراً نلمسه بأيدينا اذا حاولنا ان نحلل قصصه التمثيلي ذاك .

والشيء المحقق هو ان شوقي احدث حدثاً ادبياً سيحفظه التاريخ حين طوّع الشعر العربي للتمثيل . ولكن التاريـخ سيحفظ هذا الحدث وحده دون ان يحفظ شوقي فنـــاً تمثيلياً ممتازاً . وسيظل شوقي دائماً شاعر غناء لا شاعر تمثيل .

وذهب شاعرنا الكبير عزيز اباظة مذهب شوقي نفسه لم ينحرف عنه قليلاً او كثيراً إلا بمقدار ما يكون بين شاعرين من اختلاف المزاج وافتراق الطبيعة وتفاوت الاهواء . فشاعرنا عزيز اباظة مغنٍّ سواء اراد ذلك او لم يرده ، وحظه من اتقان التمثيل الخالص محدود جداً . ويؤمن بذلك من يقرأ شعره ومن يشهد قصصه في ملاعب التمثيل . فقراؤه ونظارته يطربون لجزالة لفظـــه ودقة معانيه ورقّة اسلوبه وحسن تأتيه لما يريد ، اكثر مما يطربون لما يحسن من تدبير الحركة ولما يتقن من اجزاء الحوار . وشعر عزيز اباظة كشعر شوقي ، يشغلنا بجماله الخالص عن اشخاصه ، فنحن حين نقرأ او نشهد قصة العباسة لا نحفل بالعباسة نفسها ، ولا بالرشيد ولا بجعفر ، وإنما نحفل بالشعر الذي يجريه الشاعر على ألسنتهم . وقل مثل ذلك بالقياس إلى قصصه الأخرى ومنها غروب الأندلس . فن غنائي رائع ما في ذلك شك وتمثيل ساذج يسير ما في ذلك

شك ايضاً . ولمّ لا نقــول الحق ونقرر في صراحــة ان التمثيل عند شاعرينا الكبيرين شوقي وعزيز وسيلة الى الغنـــاء ، على انه عند الشعراء المجيدين من الاوروبيين الممتازين غاية يتخذ الغناء احياناً وسيلة اليه . فليس شكسبير ولا راسين مغنيين في تمثيلها وانما هما ممثلان اولاً يغنيان في مواطن الغناء على حين يغني شوقي وعزيز دائماً ولا يمثلان إلاّ قليلاً .

ولا على الشاعرين العظيمين المصريين ان يفوتهما التمثيل ، فالتمثيل آخر الامر اقل خطراً من الغناء واهون منه شأنـاً . قد استأثر به النثر في هذه الايام ولم يستطع هذا النثر ان يغلب على الغناء ولا ان يشارك فيه مشاركة ذات بال .

وإذا قلت ان النثر قد غلب على التمثيل فأنا لا اريد ان اقرر حقيقة واقعــة . ولا اريد ولا ينبغي لي ان اريد اصدار حكم يجب ان يخضع له الفن ، فليس لأحد من الناس ان يصدر مثل هــذا الحكم لأن الفن بطبعه اقوى قوةً واعزّ من ان يخضع لأحكام الناس مهما يكونوا ومهما تكن أحكامهم ، وانما الشاعر ينبوع صفو يعطينــا ماءه النمير سواء أردنا ذاك ام لم نرده ، ولا على الينبوع ان نقول في هذا الماء الصفو ما نقول فلن يغير قولنــا ولن تغير آراؤنا من طبيعته ولا من طبيعة ما يعطينا . هو حر فيما يعطي ، ونحن احرار فيما نصنع بما يهدي الينا . هو يصدر عن طبيعته في الاعطاء ونحن نصدر عن طبيعتنا

في الانتفاع والاستمتاع .

فليفض علينا شاعرنا الكبير من فنه ما تسمح به طبيعته وليخلّ بيننا وبين ما نرى في شعره من رأي وما نصدر فيه من حكم ، فهو الممتع دائماً ونحن المدعوون الى مائدته الكريمة ، وأي بأس عليه من ان نرضى او نسخط حين نستمتع بما يقدم الينا من الألوان . أترى الشمس تحفل بنا ان رضينا نورها او سخطنا عليه .

لا بأس اذن على شاعرنا الكبير من ان يقول فنرضى نحن او نسخط ، ونعرف نحن او ننكر ؛ ولنذكر قول رؤبة لبعض اللغويين حين اخذ يجادله في بعض رجزه : علينا نقول وعليكم تعربون .

اسراف

●

لا اريد الاسراف في المال . فلست من المال وأصحابه في شيء ، ولا اريد الأسراف في السياسة ، فما احب ان اكون من السياسة واصحابها في شيء ، وانما اريد الاسراف في تقدير الادب والحكم عليه . وفي تقدير الادباء والحكم عليهم . وفي اقحام العلوم المختلفة في الدرس الادبي بغير حساب . وكان يقال فيما مضى من الزمان إن النحو في الكلام كالملح في الطعام ، كثير منه يخرج الكلام عن طوره ويفسده وقليل منه ينزل بالكلام عن قدره ويفسده ايضاً . وكان الفلاسفة من اصحاب ارسطاطاليس يقولون ان الفضيلة وسط بين رذيلتين تأتي احداهما من التقصير وتأتي الاخرى من الافراط . وقد حفظنا منذ الصبا ان خير

الامور اوساطها . والاسراف شر في كل شيء ، ولكنه اشد ما يكون نكراً حين يمسّ الادب ودراساته فيخرجه عن ملاءمة الذوق ويحول بينه وبين اخص ما يمتاز به من تحقيق المتعة الفنية للقلب والعقل جميعاً . اقول هذا كله بعد ان فرغت من قراءة كتاب عن نفسية ابي نواس لأستاذ نابه ممتاز لا شك في نباهته وامتيازه هو الاستاذ الدكتور محمد النويهي استاذ الادب العربي بكلية الخرطوم الجامعيــة . واحب ان اقرّر قبل كل شيء ان الكتاب يصوّر جهداً عنيفاً حقاً في البحث والدرس والاستقصاء والتأمل المتمهل المستأني الذي يطيل الوقوف عند القصيدة من قصائد ابـي نواس بل عند البيت الواحد من كل قصيدة حتّى يستخرج من القصيدة اخلص خلاصتها ويستخرج من البيت روحه الخفية لا في لطف ورفق وحسن تأتٍ كما كان يفعل ابو نواس حين قال :

ما زلت استل روح الدن في لطف
واستقي دمه من جــوف مجروح
حتّى انثنيت ولي روحان في جسدي
والدن منطرح جسماً بــلا روح

بل في قسوة قــاسية وعنف عنيف اشبه شيء بمــا تصنع الآلات القويــة التي تهصر الاشياء هصراً وتعصرها عصراً وتستخرج خلاصتها في غير رفق ولا مهل ولا أناة . ثم هو لم يكتف بهــذا الدرس العميق العنيف لشعر ابـي

نواس البائس وإنما صنع هذا الصنيع نفسه بفلسفة فرويد وبكثير من الدراسات العلمية التي قام بها جماعة من العلماء بخصائص الشعوب البدائية قديمها وحديثهما ولكثير من الدراسات الدينية بعضها يمس الديانات السماوية وبعضها يمس ديانات أخرى قديمة وحديثة . ثم هو لم يتكلف بهذا كله ولكنه جمع ما استخلصه من كل هذه العصارات المختلفة ، عصارة أبي نواس وعصارة فرويد وعصارات الدراسات المختلفة لأجيال الناس وعاداتهم ودياناتهم فخلطها خلطاً ومخضها مخضاً واستخرج منها كائناً غريباً عرضه علينا في كتابه هذا وسماه أبا نواس . ومن حق الاستاذ ان نعرف له هذا الجهد ونقدر له ما احتمل من مشقة وعناء ونسجل له البراعة والمهارة والفطنة والذكاء ، ونحمد له آخر الأمر انه ليس من الذين يبيعون وقتهم في هذه الحياة الفارغة التي لا تغني عنهم ولا عن غيرهم شيئاً وإنما هو صاحب جد متصل ونشاط خصب وعكوف دائم على الدرس والبحث والانتاج ، وإخلاص صادق في كل ما يحاول من ذلك وحرص مؤكد على ان ينفع الناس بما يصل اليه من نتائج البحث وما يخرج لهم من هذه الكتب التي يتبع بعضها بعضاً والتي لا يمكن ان يوصف شيء منها بالعجلة او بقلة النضج . ولكن من حقنا نحن بعد ذلك ان نتحفظ أشد التحفظ حين نريد الحكم على منهجه في الدرس الأدبي لهذا الشاعر الشقي العظيم أبي نواس . وأول ما يدعونا اليه هذا

التحفظ هو ان أبا نواس شاعر قديم ودراسة الشعراء القدماء لا تحتمل كل هذا التشخيص الذي حاوله الأستاذ لأنا لانعرف من حقائق حياتهم إلا اقلها وأيسرها . ونحن إن سألنا التاريخ لم يكد ينبئنا من حياة أبي نواس بشيء ذي بال . إنما هي أطراف حفظها الرواة . وعسى ان يكونوا قد أضافوا اليها من احاديث الناس ومن عند انفسهم ما ليس بينه وبينها سبب . فالشعراء النابهون يكثر عنهم حديث الناس وتخترع لهم الأساطير قبل ان يموتوا ثم تنمو هذه الأساطير بعد موتهم إلى غير حد ، ولا سيما حين يكون هؤلاء الشعراء من أصحاب اللهو والعبث والمجون الذين يسرفون على انفسهم من ذلك كله في الفعل ثم يقولون اكثر مما يفعلون ، والذين وصفهم القرآن الكريم أصدق وصف وأقومه في قول الله عزّ وجلّ « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر انهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون » .

فإذا اردنا ان ندرس حياة هؤلاء الشعراء فالخير كل الخير ان نحتاط ونتحفظ ونتجنب الجزم الذي يحتاج الى استقصاء لا سبيل اليه . فكيف بالاستاذ الدكتور النويهي حين اراد ان يطبق نظريات فرويد على أبي نواس ، فزعم لنا انه ضاق بأمه لأنها لم تفرغ له وتمنحه من حبها وعطفها وحنانها كل ما كان يريد لأنها شغلت عنه بالقوت بعد ان مات أبوه وكسبت القوت بنفسها ولابنها من

وجه نقي او وجه آثم اشد الاثم . وكان هذا الحرمان الذي فرض على ابي نواس حين انصرفت عنه أمه إلى الغمل اخطر الآثار في حياته ، فكره النساء جميعاً لأنه كره امه وكره امه لأنه اراد عندها اشياء لم يبلغها فأصابت نفسه هذه العقدة التي يسميها فرويد وأصحابه عقدة أوديب . ثم لم يقف امر ابي نواس عند هذا الحد فيما يرى الأستاذ ولكن انصرافه عن النساء دفعه إلى ألوان آثمة بغيضة من الحب أمعن فيها اشد الامعان واستهتر بها اعظم الاستهتار وقال فيها ما قال من شعره الكثير . ثم كان انصرافه عن أمه وضيقه بها وامعانه في حبه الآثم ذلك مصدراً لهيامه بالخمر واستهتاره بمعاقرتها في غير تحفظ ولا احتياط وفي غير تأثم ايضاً . وكذلك يستقيم للأستاذ تفسير رائع خلاب لحياة أبي نواس وشعره على احدث المذاهب العلمية في التحليل النفسي . وهو مذهب لا عيب فيه إلا انه متكلف من اصله لا يقوم على اساس متين من تاريخ أبي نواس او من شعره ، وإنما يقوم على اساس من الفرض الذي عمد اليه المؤلف ليكون مبتكراً مجدداً اسرف على نفسه واسرف على ابي نواس واسرف على قرائه آخر الأمر .

والعلماء المعاصرون لم يطمئنوا بعدُ كل الاطمئنان الى نظريات فرويد ولا الى ما نشأ عنها من فنون التحليل النفسي الذي اصبح بدعاً شائعاً في اوروبا وهام به الامريكيون هياماً شديداً فكيف وانا لست مطمئناً إلى

ان اصحاب فرويد واصحاب التحليل النفسي يرضون عما صنع الأستاذ بنظرياتهم حين حاول ان يطبقها على شاعر قديم لم نكد نعلم عن دقائق حياته الواقعية شيئاً ذا خطر . ويزيد امر ابي نواس تعقيـــداً حبه للخمر وتهالكه عليها وتفسير الاستاذ لهذا التهالك وذلك الحب . فقد اكثر ابو نواس من تشبيه الخمر بالعروس ومن تشبيه سعيه اليها بخطبة الخاطب ومن تشبيه ثمنها بالمهر . فما ايسر ما رأى الاستاذ في هذا ان الشاعر قد احب الخمر حباً جنسياً ، وما اسرع ما ألغى التشبيه والمجاز والاستعارة في شعر ابي نواس كله وجعل كل ما تصرف به من ألوان القول وأساليب البيان حقائق تصور حياته الواقعة تصويراً دقيقاً . وابو نواس يهيم بالخمر هياماً يوشك ان يكون عبادة فمـــا اسرع ما يراه الاستاذ عبادة بالفعل . وكان ابو نواس كغيره من امثاله الشعراء يلتمس لذته في كثير من الأحيان في بعض الأديرة ، فوصف القسس والرهبان والبيع والاديرة في كثير من الثناء والتقريظ ، فما اسرع ما يجد الاستاذ في هذا كلفاً ظاهراً او خفياً بأشكال العبادة المسيحية عند أبي نواس . وقد أحس ابو نواس الندم بين حين وحين فقـــال شعراً رائعاً في الزهد ، يصدق فيه مرةً ويتكلف فناً من فنون الشعر مرة اخرى . فما اسرع ما يرى الاستاذ ان الشاعر كان مؤمناً اصدق الايمان وأقواه . وكذلك يستوي للأستاذ من أبي نواس رجل فتن بأمه ثم قرف عنها حين فتن

بحبه ذاك الآثم ثم أحب الخمر حتى رأى شربها ديناً ثم فتن بها فتنة جنسية ثم كلف بأشكال العبادة المسيحية ثم كان مع هذا كله مسلماً صادق الاسلام .

وأمر أبي نواس أيسر من هذا جداً واقوى من هذا جداً وأروع من هذا جداً لو درسه الاستاذ على انه شاعر ممتاز من شعراء الحب والخمر والمجون ، ولو عني بأدبه وفنه وروعة شعره اكثر مما عني بشخصه الذي لا نعرف من أمره إلاّ قليلاً . وشخص أبي نواس بعد ذلك كشخص من شئت من الناس أقبل على الحياة فامتحن فيها بألوان الخير والشر ، ثم صار الى الله كما يصير الناس كلهم الى الله يعذبهم ان شاء ويتوب عليهم ان شاء . فما اكثر الذين يمكن ان تطبق عليهم نظريات فرويد في كثير من الثقة والدقة والفائدة ايضاً . فليعمد الاستاذ الى من حوله من المعاصرين فيحلل نفوسهم كما يحب ويهوى . فأما ابو نواس وامثاله الادباء فنحن في حاجة الى ان نتذوق ادبهم ونستسيغه فنستمتع بما فيه من روعة وجمال اكثر من حاجتنا الى تحليل نفوسهم من غير علم بها ولا دليل عليها . واني لأنصح للأستاذ ان يعود الى ابي نواس فيدرسه درس الأديب الناقد ويدع التحليل النفسي لأصحابه الهائمين به الغارقين فيه .

بؤس ابي نواس

●

رحم الله ابا نواس وغفر لـــه ، فلسنا نملك إلاّ ان نستنزل عليه رحمة الله في الآخرة بعد ان صبت عليه نقمة الناس في الدنيا .

فما اعرف من شعرائنا القدماء من كثّر القول فيـــه واختلف الحكم عليه وذهب الناس في امره المذاهب مثل ابـي نواس .

أعجب به النقاد القدماء والمحدثون اشد الاعجاب ، وسخطوا عليه اعظم السخط ، ورضي عنه النساك والفقهاء حينـاً وضاقوا به احيانـاً .

ولها بالحديث عنه خاصة الناس وعامتهم وذهبوا في اللهو بحديثه مذاهب الجد والهزل .

ثم لم يكفهم ذلك فأضافوا اليه من الاقوال والأعمال ما لم يقل ولم يفعل . ثم لم يكفهم ذلك فاخترعوا له صورة شعبية ليس بينه وبينها صلة ، واخترعت الخاصة له صورة اخرى مثقفة مهذبة كانت شراً من الصورة الشعبية .

وقد اخترعت هذه الصورة المثقفة المهذبة بعد موت أبي نواس بوقت قصير وعسى ان تكون اخترعت في حياته ، اخترعها المعجبون به والساخطون عليه . اولئك غلوا فيه فحملوا ما لم يحمل وهؤلاء أسرفوا عليه فأضافوا اليه منكر القول والعمل ما لم يخطر له على بال .

ولست ادري ماذا كان يصنع ابو نواس لو أتيح له ان يُنشر بعد موته ويسمع او يقرأ ما يروى عنه ومسا يُحمل عليه وما يكتب فيه . والشيء المحقق هو انه لو عاد الى هذه الدنيا ورأى الصورة التي اخترعت له والاحاديث التي تقال عنه لأنكر نفسه اشد الانكار .

وقد صوّر الاستاذ العقاد شيئاً من ذلك في كتابه الذي أصدره منذ ايام ثم لم يكفه ما صور من ذلك فأضاف هو ايضاً صورة جديدة الى ابي نواس ما أرى انه يعرفها لو اتيح له ان يظهر عليها .

وقد تحدثت في العام الماضي عن هذه العناية المتجددة بأبي نواس في هذا العصر الذي نعيش فيه ، فعللت ذلك تعليلاً مقارباً بما يمكن ان يكون من الشبه بين ما يجـد الناس بعد الثورة من الشعور بالتحرر والسخط على كثير

من التقاليد الموروثة .

فقد اصدر الاستاذ عبد الرحمن صدقي كتابين عن ابي نواس في اوقات متقاربة ، ثم أصدر الدكتور النويهي كتاباً عن ابي نواس في الصيف الماضي ، ونشر ديوان ابي نواس في الصيف الماضي في طبعة مصرية جديدة .

وهذا الاستاذ العقاد يصدر عن ابي نواس هذا الكتاب الاخير .

واكبر الظن ان ابا نواس سيرى لنفسه صورة مقاربة فيما كتب عنه الاستاذ عبد الرحمن صدقي لأنه ذهب في كتابته عنه مذهب القدماء فلم يتكثر عليه ولم يذهب في تصويره المذاهب وان كان قد جدد درسه وفهم شعره الى حد ما .

واكبر الظن كذلك ان أبا نواس سينكر بعض ما حمل عليه من شعر غيره في الطبعة المصرية الجديدة وما اكثر ما حمل عليه فيما مضى من الدهر .

ولكن الشيء الذي ليس فيه شك هو ان الحساب الذي سيكون بينه وبين الدكتور النويهي سيكون حساباً منكراً عسيراً ، وان الحساب الذي سيكون بينه وبين الاستاذ العقاد سيكون شاقاً ثقيلاً .

وما رأيك في ان الدكتور النويهي قد ذهب بأبي نواس مذاهب لم تخطر له ولا لأحد من الذين عاصروه او جاؤوا بعده ولم تخطر لأحد من الذين درسوه في العصر

الحديث ؟ فقد زعم ان نفسه قد ادركها ما يسميه الباحثون المحدثون من اصحاب التحليل النفسي عقـــدة أوديب ، فأحب امه وكلف بها كلفاً بلغ الهيام وحيل بينه وبين غايات هذا الحب ، فأدركه ما ادركه من هذه العلة التي افسدت عليه أمره كله وحوّلته عن الجـــادة إلى الطريق الملتوية في الحب .

ثم لم يقف عند ذلك بل ذهب في وصفه للخمر وغلوه في هذا الوصف مذهباً ليس أقل التواء من مذهبه الأول . فزعم انه قد عبد الخمر واتخذ عبادة الخمر ديناً وافتنّ في ذلك كله افتناناً فيه طرافة وروعة . ولكنه لا يمس الشاعر البائس من قريب ولا من بعيد .

وتبعة هذا الاسراف الذي كلف صاحبـــه من المشقة والجهد شيئاً عظيماً لا يحملها ابو نواس لانه لم يعرف من هذه الآثام التي حملت عليه قليلاً او كثيراً .

ولا يحملها شعر ابي نواس لانه لم يصور من هـــذه الآفات التي أضيفت اليه شيئاً . وإنما تحمل هذه التبعة على علماء التحليل النفسي الذين استكشفوا علمهم هذا الجديد فأغروا به المتفننين له الذين يتحفظون فيه ويجورون به عن القصد احياناً ثم يغرون به القـــادرين عليه والعاجزين عنه فيضلون به كثيراً من الناس .

ويحمل هذه التبعة الدكتور النويهي نفسه لأنه التـــوى بقراءة الشعر عن الطريق السّواء ففهمـــه على غير وجهه

وحمل عليه من الأثقال ما لا يطيق وأضاع روعته وجماله وأذهب بهجتـــه ورواءه وجعله اشبه بما يعرض للمحموم من الهذيان .

وأنت تستطيـــع ان تقرأ شعر ابـي نواس ما صح له منه وما اخترع عليه فلن تجـــد فيه ما يشير الى هاتين الآفتين من قريب او بعيد . وإنما هو شعر كشعر الذين عاصروا أبا نواس قد طرق الموضوعات التي طرقوها وذهب المذاهب التي ذهبوها وامتاز بما اتيـح له من هذه الخصال الفنية التي اسبغتها عليه شخصية ابـي نواس ونبوغه الفني لا اكثر من ذلك ولا اقل .

ومن أيسر الأشياء ان يذهب البـــاحث بشعر بشار ومطيع وحماد عجرد والخليـع وغيرهم من الذين عاصروا ابا نواس او جاءوا بعده مذهب الدكتور النويهي فينتهي بهم جميعاً إلى انهم قد ادركتهم عقدة أوديب ، هـــذه التي ابتكرها علماء التحليل النفسي في هذا العصر الحديث ، فكانوا جميعـــاً يحبون امهاتهم ويكلفون بهن ثم لا يبلغون بحبهم غايته فيدفعون إلى مـــا دفعوا اليـــه من الانحراف والشذوذ .

وكل هؤلاء قد وصفوا الخمر وغلوا في وصفها وقالوا فيها ما لم يسبقوا اليه ، فجائز ان يقال فيهم مثل ما قال الدكتور النويهي في ابـي نواس انهم عبدوا الخمر واتخذوا عبادتها ديناً . والاسراف في هذا كله واضح اشد الوضوح .

ولست ادري ماذا كان يصنع علماء التحليل النفسي لو ان اليونان لم يلقوا اليهم بأسطورة اوديب هذا الذي خدعته الأقدار فاتخذ امه له زوجاً ، ثم عاقب نفسه وعاقب امه نفسها ذلك العقاب المعروف ؟

بل لست ادري ماذا كان يصنع علماء التحليل النفسي لو ان الشاعر اليوناني سوفوكليس لم ينشىء قصته تلك التي ازدحم عليها الشعراء من بعده على اختلاف العصور والشعوب فأنشأوا ما انشأوا من القصص الكثيرة التي تختلف براعة وروعة وجمالاً ؟

أكانوا يهتدون الى هذه الآفة ويزعمون انها آفة شائعة يمتحن بها كثير من الناس ؟

واغرب ما في هذا الامر ان قصة اوديب هذه اسطورة لا يحققها تاريخ ولا يهتدي اليها بحث. وعسى ان لا يكون لها اصل من واقع الحيـــاة اليونانية القديمة . ولكن للفن أعاجيبه وللعلم أعاجيبه ايضاً .

وما اريد ان اجادل علماء التحليل النفسي في شيء من امرهم ، فلست املك وسائل هذا الجدل ولا اقدر عليها ولا احب ان اقحم نفسي فيما ليس لي به علم .

ولكن الشيء الذي استطيع ان اقطع به هـــو ان الادباء الذين يقحمون انفسهم على هذا العلم دون تعمق له او تخصص فيه يسرفون على انفسهم ويجنون على الادب والفن وعلى الناس ايضاً سيئات لا تكاد تحصى .

ذلك ان العلماء لهم مذاهبهم في البحث يخطئون فيها ويصيبون . وهم يعتمدون في بحثهم على التجارب فتستقيم لهم حيناً وتخطئهم احياناً .

اما الادباء فيذهبون في ذلك مذهب التقليد والمحاكاة لا مذهب الاستكشاف والاجتهاد . وما اعرف شيئاً لا يصلح فيه التقليد عن غيره خبرة ولا فقه كالعلم .

واذا كان من العسير على الادباء ان يجروا آراءهم هذه التقليدية على الاحياء الذين يرونهم ويستطيعون ان يقولوا لهم ويسمعوا منهم ويراقبوهم من قرب او من بعد لأنهم لا يملكون اداة هذا البحث ولا يحسنون التصرف بها ان أتيحت لهم فكيف بهم حين يجرون هذه الآراء على الموتى الذين بعد بهم العهد ولم يبق لنا منهم الا الاحاديث ؟

وكم يكون طريفاً ان يمد المقلدون لأصحاب التحليل النفسي الى التراث الأدبي والفني العربي والانساني بمثل هذا التحليل ، اذن لا تكون احاديثهم الا ألواناً من الاعاجيب التي لا تنقضي ولا يستطيع العقل ان يحيط بها . فكيف كان سقراط ؟ وكيف كان ارسطاطاليس ؟ وكيف كان افلاطون ؟ وان آفة من هذه الآفات الكثيرة التي يستكشفها المحللون النفسيون انتجت فلسفة هؤلاء الفلاسفة وغيرهم من قدماء الفلاسفة ومحدثيهم ؟

لماذا تحدى سقراط الموت وتحدى معه الأثينيين ؟ ووقف موقفه ذاك الرائع الذي يصوره لنا افلاطون ابرع

تصوير وأجمله ؟

ولماذا ذهب افلاطون في ابواب الفلسفة هذه المذاهب الرائعة التي التقت فيها الفلسفة العليا والشعر الذي بلغ اقصى ما يمكن ان يبلغ من الجمال ؟

ولماذا امعن ارسطاطاليس في فلسفته تلك الخصبة المفصلة التي عاشت عليها الانسانية العاقلة ولم تفرغ بعد من الانتفاع بها ؟

وما الذي دفع مسلم بن الوليد إلى العناية باللفظ والانحراف عما ألف الشعراء ؟

واي آفة نفسية دفعت ابا تمام إلى الانحراف عن عمود الشعر كما كان الاقدمون يقولون والاسراف في هذه الاستعارات الغريبة والمعاني الدقيقة ؟

ولماذا اسرف المتنبي على نفسه في الثورة الجامحة شاباً ، وفي السخط على الحياة والاحياء بعد ذلك ، وفي الحرص على الحياة ومنافعها آخر الامر ؟

ولماذا تشاءم أبو العلاء وسار هذه السيرة التي لم يسبقه اليها احد من المسلمين ، ونظم هذا الشعر الذي لم يشاركه فيه شاعر وفيلسوف ؟

على ان امر ابي العلاء هين ، فقد فسره بعض مؤرخي الآداب العربية في اول هذا القرن تفسيراً لا يخلو من فكاهة ، فزعم أن تشاؤم ابي العلاء لم يأته من علة نفسية ولا من عقدة من هذه العقد التي استكشفها فرويد واصحابه ،

لأن امزها لم يكن قد وصل الينا بعد .

وإنما جاء تشاؤمه من علة في المعدة هي عسر الهضم وبجاءه عسر الهضم من التزامه اكل العدس دهراً طويلاً ، فأفسد هذا كله عليه رأيه في الحياة والاحياء واتاح لنا فلسفته الخالدة الرائعة .

وكذلك فتن ذلك المـــؤرخ الحديث للآداب بالتفسير الطبي لتشاؤم ابـي العلاء ، كما فتن استاذنا الشاب الدكتور النويهي بالتحليل النفسي في تفسير المجون لأبـي نواس .

اما كتاب الاستاذ العقاد فالأمر فيه مختلف اشد الاختلاف ، فهو قبل كل شيء لم يتكلف من الشطط ما تكلف الدكتور النويهي ، ولم يكد ينأى عن مذهب بعينه من مذاهب الدرس الأدبـي وهو التماس الشاعر في شعره .

ثم هو لم يحمل على ابـي نواس من الغرائب والأعاجيب ما لا يستطيع ابو نواس ان يحتمل .

فالمذهب الذي ذهب اليه الاستاذ العقاد في كتابه قديم جديد في وقت واحد .

كان القدماء يسمونه الاعتداد بالنفس وما زال المحدثون يسمونه كذلك ايضاً ، ثم اخذ بعض الادباء الاوروبيين يسمونه النرجسية .

ذهبوا في ذلك مذهب التجديد والاغراب .. ذكروا قصة النرجس في الأسطورة اليونانيـــة القديمة فاستعاروها

للمعجبين بأنفسهم من الكتّاب والشعراء .

وفي الوقت نفسه ذهب علماء التحليل النفسي هذا المذهب فاستعاروا من قصة النرجس تلك تسميتهم الاعتداد بالنفس والاسراف في الاعجاب بها حتى يبلغ هذا الاسراف ان يكون مرضاً .

واذا صدقتني الذاكرة فقد كان اندريه جيد يذكر النرجسية في بعض رسائله منذ اواخر القرن الماضي . ولعل بعض الشباب من اصدقائه الادباء في ذلك الوقت قد وصفوه بها لأنه كان في كتبه الأولى مشغولاً بنفسه لا يكاد يتحدث الا عنها .

وقد ذكر الاستاذ العقاد النرجسية بالقياس الى اوسكار وايلد . وهو من اصحاب اندريه جيد في شبابه ايضاً .

فالأدباء الأوروبيون قد ذكروا النرجسية واكثروا من ذكرها منذ اواخر القرن الماضي وما زالوا يذكرونهـا الى الآن .

فالاستاذ العقاد اذن لم يبعـد عن مذاهب الادباء في حديث النرجسية ، ولكنه غلا فيما اعتقد غلواً شديداً في تعمقها على مذهب المحللين النفسيين .

فذكر من مذاهبهم وتجاربهم فنونـاً توشك ان تلحق كتابه بكتب العلماء ، لولا انه ليس له معمل ولا مستشفى يجري فيها التجارب كما يجريها العلماء ، وليس امامه مرضى احياء يجري عليهم هذه التجارب كما يجريها العلماء .

فهو ينقل لنا علمهم نقلاً ولا يشاركهم فيه مشاركة صحيحة ولا يجتهد فيه اجتهادهم ولا يستطيع ان يبني مذهبه على مثل ما يبنون عليه مذاهبهم من التجربة والاستقراء.

وانما هو يقرأهم ويفهمهم وينبئنا بأحاديثهم ويقربها لنا تقريباً لا يخلو من المشقة والعنف، وان كان هو قد ألف ان يشق على نفسه ويعنف بها في البحث وفي النقل ايضاً.

ثم هو يسرف على نفسه وعلى ابي نواس حين يجري احكام النرجسية على الشاعر القديم، كما يجريها المحللون النفسيون على من يفحصونهم من الاحياء.

والذين قرأوا كتاب الاستاذ العقاد قد وجدوا فيه تفصيلاً كثيراً عسيراً لأمر الغدد وتأثيرها في الحياة النفسية للناس حين تختلف وحين تأتلف وحين تلتئم وحين يجور بعضها على بعض.

وهذا كله كلام له قيمته وخطره حين يؤخذ المريض فيفحص فحصاً طبياً دقيقاً، وتجري على غدده التجارب المختلفة ويمتحن تأثير الغدد في مزاجه حين يسكن وحين ينشط وحين يعمل وحين يقول.

فأما ذلك البائس المسكين ابو نواس الذي لم يبق لنا منه الا شعره وفيه كثير مما حمل عليه، والا احاديثه وفيها كثير مما اخترع وليس له اصل، فالاستاذ لا يعرف من جسمه الا ما نقلته الكتب من هذه الأوصاف العامة الغامضة التي لا تكاد تحقق منه شيئاً.

وهو لم يمتحن غدد ابي نواس ولا سبيل له الى ان يمتحنها لأنها ذهبت فيا ذهب من شخصه . فاجراء الرأي فيه على مذهب المحللين النفسيين لا يخلو من شطط لأننا لا نستطيع ان نحلل من ابي نواس إلا كلامـه وكلام الناس فيه .

وفرق بين تحليل الغدد والاجسام كلهـا وبين تحليل الكلام الذي قاله الشاعر والكلام الذي قاله الرواة .

فتحليل الغدد والاجسام قد يصل بنا إلى بعض الحق ، فأما تحليل الكلام فهو ينتهي بنا إلى الظن وقد ينتهي بنا إلى الترجيـح .

ولست ادري أيقع كلام الاستاذ العقاد على الشخص الحق لأبـي نواس أم يقع على شخصه الذي اخترعته الخاصة له في اثناء حياته والذي نما وعظم امره بعد موته ؟

أم يقع على هذه الأشخاص الوهمية التي شاعت له في كثير من البيئات الشعبية على اختلاف العصور وعلى اختلاف البلاد والاوطان ايضاً ؟

وقد قرأ الاستاذ العقاد كتاب ابن منظور وكتاب ابن هفان ، وقرأ اخبـار ابـي نواس في كتب الأدب على اختلافها ، وهو من غير شك يقطع مثلي بأن لأبـي نواس في هذه الكتب على اختلافها شخصين متباينين .

احدهما شخص قال هذا الشعر الذي نستطيع مع بعض الجهد ان نستخلصه ونحققه . والذي يصوّر إسرافـاً في

المجون واغراقاً في العبث كما يصور اغراقاً في الجد ايضاً ، اوفي مذاهب الجد على اختلافها في المدح والوصف والرثاء والزهد والصيد ، ونحن نستطيع ان نعتمد على هذا الشعر في استخلاص شخص ابي نواس منه على نحو مقارب ، لابقراءة البيت او البيتين .. بل بقراءة الشعر كله او ما يصل إلينا منه ..

وقد فعل الاستاذ العقاد هذا ما في ذلك شك .

وقد فعلته انا ايضاً . ولكنه ينتهي الى ان ابا نواس قد غلا في الاعتداد بنفسه حتى لم ير غيرهـا او لم يعد يرى غيرها ، ففتن بنفسه كما فتن النرجس بصورته في الاسطورة القديمة .

ورأيت انا ان ابا نواس لم يعتد بنفسه اكثر مما اعتد شعراء كثيرون في امم كثيرة بأنفسهم .

فصاحب الفن معتدّ بنفسه دائماً إلى حد ما .

واعتداده بنفسه هـذا شرط اساسي للتجويد الفني ، لانه لو لم يعتدّ بنفسه وفنه لم يحفل بالشعر ولم يتأنق فيه ولم يحسن الحكم عليه .

ولست أعرف شاعراً خليقاً باسم الشاعر إلا وله في نفسه رأي يخالف رأي غيره فيه .

والاستاذ العقاد نفسه شاعر وما اظنه إلا قد عرف من نفسه شيئاً من هذا الاعتداد ، فلولا رضاه عن شعره لما نشره ولا عرضه على الناس ليقرأوه فيعجبوا بروعته ويحمدوا

قائله وينتفعوا بما فيه من حكمة وفن .

ولأمر ما تفاخر الشعراء واستبقوا في الشعر ورضي بعضهم عن بعض وسخط بعضهم على بعض . وما أعرف شاعراً الا وله من نفسه مرآة ينظر فيها فيطيل النظر قبل ان يظهر للناس ، وهو لا يظهر لهم الا بعد ان يرضى عما تعكس عليه هذه المرآة .

وقد كان اعتداد بشار بنفسه اكثر جداً من اعتداد ابي نواس .

فاذا كان ابو نواس نرجسياً فلست ادري ماذا يكون بشار ؟

اما المتنبي فقد تجاوز في الاعتـداد بنفسه الحد الذي وقفت عنده كثرة الشعراء ، وهو الذي يقول في اول شبابه وآخر صباه ، أي في الوقت الذي تظهر فيه النرجسية وتؤتي أول ثمرها :

أيّ مكان ارتقي ! أيّ عظيم اتقي !
وكل ما قـد خلق الله ومـا لم يخلقِ
محتقر في همـتي كشعرة في مفرقي

وهو الذي يقول حين شارف الخمسين :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبـي
وأسمعت كلماتي مـن به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراهـا ويختصم

وهو الذي يقول في القصيدة نفسها :

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وما عرف ان ابا نواس او بشاراً او مسلماً او أبا تمام قالوا شيئاً يقرب من هذا .

وكان ابو العلاء في شبابه معتداً بنفسه ان صح هذا المذهب حين يقول :

وإني إن كنت الأخير زمانه
لآت بمـا لم تستطعه الاوائل

وما اعرف ان ابا العلاء نسي نفسه قط ، فقد كان يذكر دائماً بآفته تلك في اول عهده ، وبأدبه وفلسفته حين تقدمت به السن .

ومـا أظن ان ابا العلاء كان نرجسياً او مسرفاً في الاعتداد بنفسه ، فالنظرية في نفسها لا تستقيم حين تجري على من سبقنا بهم الموت وعلى الشعراء خاصة .

ففي كل شاعر نصيب من الغرور ، وتجويد الكلام نفسه يغري الشعراء باظهار هذا الاعتداد ، لا لأنه من حقائق نفوسهم دائماً ، بل لأن الكلام يواتيهم فلا يقدرون على دفعه .

ويخيّل اليّ ان الاستاذ يسرف ايضاً في أمر النسب وتأثيره في نرجسية ابي نواس ان كان ابو نواس نرجسياً . فشعراء الموالي كلهم كانوا يهتمون للنسب ويكثرون

القول فيه ، وقد سخر ابو نواس بالنسب والنسابين في هذين البيتين اللذين اهملها الاستاذ العقاد ، واللذين يقولها للنسابة المعاصر له وهو الكلبي :

ابا منذر ما بال انساب مذحج
مغلّقة دوني وأنـــت صديقي
فان تعزُني يأتك ثنائي ومدحتي
وإن ناب لا يسدّد عليّ طريقي

فالرجل الذي يعبث بالنسب والنسابين إلى هـــذا الحد لا يحفـــل في حقيقة الأمر بأن يكون نسبه في العرب او في العجم وفي عدنان او في قحطان ، وكان ابو نواس شعوبياً كما كانت كثرة الموالي في عصره وقبـــل عصره ومنذ العهد الأول لبني امية . والاستاذ العقاد يعرف من هذا مثل ما اعرف . يعرف من امر ابـي نواس الأعمى واسماعيل بن يسار ، ويعرف من أمر القدماء والمحدثين من الموالي ما يصور إغراقهم في التنكر للعرب والسخط عليهم .

هذا كله هو الشخص الحق لأبـي نواس .. فأمـــا الشخص الآخر فهو شخص اخترع كما قلت في حياة ابـي نواس نفسه ، ونرى له في كتـــاب ابـي هفان صوراً لا تخلو من جمال وفيها قبـح كثير ايضاً .

فقد اتخـــذ ابو نواس رمزاً للاستهتار والازدراء بكل شيء وإهدار كل قيمة ، وجعل الذين يريدون ان يعربوا

عن ذات انفسهم وعما في صدورهم من هذا الازدراء ، يقولون ما يخطر لهم ثم يضيفونه إلى هذا الشخص الرمزي الذي سموه ابا نواس . وليس ابو نواس بدعاً في هذا . فمن قبله اتخذ سقراط رمزاً للاغراق في الفلسفة حتى تبلغ السخف كما صوره ارستوفـــان في قصة السحاب ، وحتى ذهب بعض المحدثين إلى ان سقراط لم يكن إلا رمزاً . هزل به أصحاب الهزل وجدّ به أصحاب الجد .

وما من شك في ان التحليل النفسي لسقراط هـــذا الرمزي ينتج لنا الأعاجيب ، كما أن التحليل النفسي لأبـي نواس الرمزي ينتج لنا كثيراً من الأعاجيب . وقد أنتج لنا النرجسية في كتاب الاستاذ العقاد ، وأنتج لنا في العام الماضي ذلك الرجل الذي أصابته عقدة أوديب .

ومن يدري لعله ينتج لنا فنونـــاً من الأعاجيب إذا مضينا في إجراء التحليل النفسي عليه .

وبعد ، فاني أحمد للاستاد العقاد تصريحه بأنه لم يرد إلى النقد الأدبـي بكتابه هذا ، ولا إلى الدراسة الفنية لهذا الشاعر العظيم المظلوم .

ولعله ان يفرغ لهذه الدراسة الفنية في كتاب جديد ، وما اشك في انه ان فعل فسيمتعنا امتاعاً ألفناه منه دائماً .

جد ابي نواس

•

كنت اكتب عن ابي نواس منذ اكثر من ربع قرن ، فضاق كثير من المحافظين بما كنت أكتب عنه وعن اصحابه وبما كنت أصور من حياتهم تلك التي أسرفوا بها على انفسهم وعلى الناس ، لكثرة ما أمعنوا فيه من العبث واللهو ومن الدعابة والفكاهة ومن الاستهتار بالاثم والمجون .

ضاقوا بذلك وأشفقوا منه على اخلاق الشباب في ذلك الوقت ، وظنوه جديراً ان يغري الشباب بالخلاعة ويجنح بهم الى ما يفسد المروءة ، ويفل الحد ، ويصرف عن الجد والعمل والارتفاع عن الصغائر والعناية بالمهم من الامر ، حتى اضطررت في تلك الايام البعيدة إلى أن أبين لأولئك المحافظين ان ابا نواس على لهوه وعبثه ومجونه كان رجلاً

عظيم الخطر في عصره الذي عاش فيه يسمع لأصحاب الجد من العلماء ويروي عن اصحاب الجد من العلماء ايضاً . فقد اختلف الى رجال الحديث فسمع منهم ما شاء الله ان يسمع . واختلف اليه رجال الحديث فسمعوا منه ما شاء الله ان يسمعوا كذلك . وكان الشافعي رحمه الله احد الذين لقوه من هؤلاء ورووا عنه الحديث كما رووا عنه الشعر . واختلف ابو نواس الى الفقهاء فسمع منهم وقال لهم ، وجالس أصحاب الكلام ، وشاركهم في علمهم بالالهيات ومقالاتهم في اصول الدين ، وكان بينه وبين المعتزلة وابي اسحاق النظّام منهم خاصة خصومات وخطوب . ثم جلس الى علماء اللغة ورواة الشعر ونظر في النحـــو فأحسن النظر واكثر الرواية للقدماء . واثر هذا كله في فنه الشعري حتى قال كثير من أئمة اللغة : لولا اغراق ابي نواس في المجون واستهتاره بالاثم لاستشهدنا بشعره عن صحة اللغة والنحو جميعاً ، ثم هو بعد ذلك قد اتصل برجال السياسة على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم فلقي الخلفاء والأمراء من العباسين واشتد اتصاله بالرشيد والامين منهم خاصة ولقي الوزراء والكتّاب ورجال القصر على اختلافهم .

وعرف هذه الطبقات كلها من الناس وظفر عنـــدها بالاكبار والاجلال كما تعرّض عندها لشيء من السخط غير قليل . فقـــد كره البرامكة وكرهه البرامكة ، ونال جوائز الرشيد وذاق سجنـــه ، ونادم الامين وذاق سجنه

كذلك ، ورحل بشعره الى امراء الأقاليم في شرق الدولة وغربها فمدح امراء العراق ومدح اميراً من امراء مصر ؛ فلم يكن اذن بالرجل الذي فرغ للأثم والمجون والعبث بل لم يستغرق الأثم والمجون والعبث اكثر وقته ، وانما كان للجد من حياته نصيب أي نصيب .

ولكن الناس في عصره وفي العصور التي جاءت بعد عصره شغفوا بعبثه اكثر مما شغفوا بجده وصرامته . وليس كل الناس كالشافعي رحمه الله يلقى ابا نواس فيأخذ منه خير جده ويعرض عما اسرف فيه على نفسه وعلى الناس .

والناس ابداً شغوفون بما يسرهم ويلهيهم ، معنيون بما يفكههم ويسري عنهم ، مدفوعون الى الاغراق في ذلك والتزيد منه والاضافة اليه والمبالغة والاسراف فيما يضيفون ، فهم قد تكثّروا على ابي نواس فحملوه من الكلام ما لم يقل وحملوه من الاعمال ما لم يعمل ، واخترعوا اشياء يكفي ان ننظر فيها لنسخر منها ثم نقف عندها بعد ذلك ، لا لأنها تصور لنا ابا نواس ، بل لأنها تصور ناحية من نواحي النفس الانسانية وهي ناحية الاغراق والغلو واتخاذ الأحاديث المخترعة وسيلة لا إلى التسلية والتسرية فحسب بل إلى ما هو ابعد مدى من التسرية والتسلية ، الى شيء من التعبير عن ذات الانفس والتستر بالاسماء المعروفة عما يضطرب فيها من الخواطر والمعاني والعواطف التي يتحرج الانسان من ان يجهر بها او يضيفها إلى نفسه .

فكثير من الناس تمنوا فيما بينهم وبين انفسهم ألواناً من الاثم وفنوناً من اللهو لم يتح لهم ان يقارفوها ، ولكن نفوسهم تعلقت بها وغلت في مداعبتها فسروا عنها بهذه الاحاديث التي اخترعوها من عند انفسهم وأضافوا إلى ابي نواس وغيره من معاصريه اولئك الماجنين العابثين .

وانظر الى ما رواه بعض الرواة عن ابي نواس حين وفد على الخصيب في مصر ، فقد زعموا فيما زعموا انه احب فتى من فتيان القبط ، والتمس عنده الرضى فاشترط عليه .ذلك الفتى ان يتنصّر ، ففعل وشارك النصارى في عبادتهم وحفلاتهم ، كرهه من اجل ذلك المتشددون في الدين من أهل مصر فلهج به بعضهم وتعرض لهجائه .

وهذا سخف من السخف ما في ذلك شك . فلم يأت ابو نواس الى مصر تاجراً ولا عابثاً ولا مبتغياً للذة السياحية وانما وفد على أمير من امرائها ليمدحه ويأخذ جوائزه ، وكان ضيفاً عند هذا الأمير ، فلو قد انحرف عن الدين هذا الانحراف الخطير وخرج منه ليدخل في دين آخر لما وجد الأمير بداً من ان يجري فيه حكم الاسلام ويعاقبه عقوبة من كفر بعد ايمان .

ولكن ابا نواس قال كثيراً من الشعر العابث الماجن حين كان بمصر كما كان يقول ذلك حين كان ببغداد او بالبصرة او بغيرها من مدن العراق والحجاز فتكثّر بعض حاسديه ورووا عنه هذا الأثم العظيم ، واكبر الظن ان

الحسد هو الذي حملهم على رواية ما رووا ، وان ابا نواس ظفر عند الخصيب بما لم يظفروا به ، ونال منه ما لم يطمعوا فيه فضاقوا بمكانه ، وقالوا فيه ما قالوا . وما اكثر ما سعى الوشاة بأبي نواس عند الرشيد والامين وعند وزرائهما واتهموه بالزندقة فلم يبلغوا مما ارادوا شيئاً لأنهم لم يستطيعوا ان يقيموا البينة على ما زعموا ، ولأن الرشيد والأمين كانا لا يتشددان في طلب الزنادقة واخذ الناس بالشبهات كما فعل المهدي فأراق كثيراً من الدماء بغير حقها .

كان الحديث عن ابي نواس اذن في رأي المحافظين منذ ربع قرن او اكثر من ربع قرن خطراً على الاخلاق يخشى منه على الشباب ان يتورطوا فيما لا ينبغي ان يتورطوا فيه : فأما الآن فقد تعقد أمر ابي نواس تعقداً شديداً حقاً . ففيه او في الحديث عنه خطر على الأخلاق عند بعض الذين لا يهتمون بالمحافظة ولا يحبون ان يهتموا بها ، بل يكرهون ذلك اشد الكره وينفرون منه اعظم النفور لأن حياتهم الفنية والأدبية كلها تأباه إباء شديداً .

فالاستاذ سلامة موسى مثلاً ليس محافظاً ولم يعرف بالمحافظة في يوم من الايام ، وانما كان في طليعة المجددين ولقي كثيراً من العنت في سبيل هذا التجديد ، وهو مع ذلك يشفق من ابي نواس على اخلاق الشباب وعقولهم لأنه فيما يرى الاستاذ سلامة موسى قد استنفد شعره في المجون وفي هذا المجون المنحرف عما يلائم الطبيعة وما ألف

الناس من امورها . ثم يحاول الاستاذ ان يعلل شذوذ أبي نواس هـذا فيرده الى الانفصال في عصره بين الرجل والمرأة . وواضح ان أيسر ما يقال في هذا الرأي ان صاحبه لم يقرأ شعر ابي نواس لأن ابا نواس لم يستنفد شعره في المجون ، وانما قال في فنون الجد اكثر ممـا قال في فنون الهزل ، كما لاحظ الاستاذ العقاد ذلك منذ ايام ، لأنه قرأ شعر ابي نواس قراءة المستوعب المستقصي . فلأبي نواس في الزهد شعر حسده عليه ابو العتاهية وغيره من اصحاب الزهد ، ولأبي نواس في الصيد شعر ما أحسب ان احداً من الشعراء سبقه اليه ولحقه فيه ، ولأبي نواس بعد ذلك شعره في المدح وشعره في الوصف وشعره في الغزل النقيّ الملائم للطبيعة ، وما ألف النـاس من أمرها . وله كذلك شعره في الهجـاء الذي لا إثم فيه ولا انحراف ، وابو نواس يشارك القدماء والمعاصرين له والذين جاءوا بعده في وصف الخمر والمضي في التغني بها إلى ابعد الحدود .

وكل هذه الفنون من جد ابي نواس ودعابته ليست خطراً على الشباب ، لا تفسد اخلاقهم ولا عقولهم ، وليس يكفي ان يقرأ الشاب وصف الخمر ليفتن بها او يعكف عليها ، وما اكثر الذين يعكفون على الخمر وهم يجهلون قول ابي نواس وغيره فيها من الشعراء اشد الجهل وأبعده مدى ، ولعلهم لا يحفظون فيهـا بيتاً واحداً قديمـاً او

حديثاً شرقياً او غربياً . والناس يقرأون الغزل منذ كان الغزل ، فلا يدفعهم ذلك الى الهيام بالحب او الفتون بالنساء . والناس يقرأون المدح فلا يتكلفون ان يمدحوا ، ويقرأون الهجاء فلا يتكلفون ان يهجوا ، ويقرأون الزهد فلا يزهدون ، وما اكثر ما قرأ الناس القرآن وسمعوه فلم يصبحوا نساكاً ولم يخلصوا نفوسهم للدين . وما اكثر ما قرأ المسيحيون الانجيل فلم يصبحوا قسيسين ولا رهباناً .

والناس يتغنون بشعر الصوفية من المسلمين والمسيحيين ، ويستمتعون بهذا الشعر دون ان يتصوفوا او يجردوا انفسهم من الحياة المادية وأثقالها وأوضارها .

واخرى لم يوفق فيها الاستاذ سلامة موسى وهي تفسيره شذوذ ابي نواس بما يسميه بالانفصال بين الجنسين . فلم يكن ابو نواس شاذاً في عصره منفرداً بهذا الشذوذ ، وانما كان واحداً من كثيرين لا يبلغهم الاحصاء في القرن الثاني والثالث على اقل تقدير . ولم يكن الانفصال بين الجنسين من الخطورة بحيث يظن الاستاذ في ذلك العصر ، فما كان ايسر اللقاء بينهما في ظروف الجد والهزل جميعاً . واذا كان الحرائر في ذلك الوقت ، او بعض الحرائر يتشددن في الحجاب او يشدد عليهن فيه ، فقد كانت هناك اجيال من الاماء وأنصاف الحرائر لا يرين في لقاء الرجال حرجاً ولا يلقين فيه جناحاً .

وربما كان هذا الشذوذ ظاهرة من ظواهر تلك الحضارة

المختلطة التي التقى فيها العرب بأجيال من الناس لم يكن لهم بهم عهد فيما مضى من ايامهم والذي تحررت فيه الأمم المغلوبة من السلطان العربي الخالص وظفرت فيه بالمساواة في الحقوق السياسية والاجتماعيـــة فأسكرها الظفر وابطرها ما أتيح لها من الحرية ، وابطر الأغنياء والمترفين خاصة ما اتيح لهم من الترف والنعيم فتجاوزوا كثيراً من الحدود التي لم يكونوا يستطيعون ان يتجاوزوها جهرة حين كان السلطان عربياً خالصاً . وليس ادل على ذلك من انك تقرأ شعر الفحول من شعراء العرب ايام بني امية فلا تراهم يجهرون بوصف الخمر ويتجاوزون الحدود في ذكرها ، لا نستثني منهم الا الشعراء الذين لم يتخذوا الاسلام ديناً والذين لم يعرض لهم المسلمون فيما كان دينهم يبيح لهم من شرب الخمر ووصفها . فالأخطل مثلاً يشرب الخمر ويصفها وينشد وصفهـــا بين يدي الخلفاء والأمراء لا يتحرج من ذلك ولا يرى الخلفاء والأمراء عليه بأساً فيه لأنـــه كان مسيحياً ، تبيح له مسيحيته ان يشرب الخمر ويصفها .

فأما الفرزدق وجرير وامثالها فما اشك في انهم كانوا يشربون الخمر سراً حين يتاح لهم شربها . فأمـــا وصفها والافراط فيه والجهر به فشيء لم يكن يرخص لها به . وهذا الشذوذ الذي نلاحظه عند ابي نواس واصحابه من الشعراء والكتاب من الوزراء وبعض رجال السياسة لم يظهر الا بعد هذه الثورة التي حررت الأمم المغلوبة وسوت بينها وبين العرب

في الحقوق السياسية والاجتماعية . فأما قبل ذلك فلا اعرف ان شاعراً عربياً جاهلياً او اسلامياً انحرف عما ألف الناس في سيرته او قوله ، ولا نعرف ان خليفة او اميراً او رجلاً من رجال السياسة والحكم ورط في شيء من هذا الاثم او دفع اليه ... هي إذن آفــة طرأت بعد الثورة العباسية لا قبلها . وقد بدأت دلائل الاستهتار بشرب الخمر ووصفها تظهر في اواخر العصر الاموي حين استهتر الوليد ابن يزيد اثناء ولايته للعهد واثناء خلافته القصيرة باللهو وجهر بالمجون ، وتغنى بذلك في شعره خارجاً عما ألف بنو امية وعما ألف العرب من الجد والوقار . وقد ادى الوليد ثمن هذا الاستهتار وكان دمه هو الثمن .

فأما الشذوذ الذي نراه عند ابي نواس ومعاصريه فلم يظهر ولم يجهر به احد إلا بعد ان قامت دولة بني العباس وتغلب العنصر الاجنبي على كثير من امور السلطان .

وظاهرة اخرى ليس من ملاحظتهـــا بد وهي ان الشعراء الذين استهتروا بالمجون واللهو وجهروا بالخلاعة والاثم كانوا جميعاً من غير العرب . كانوا من الفرس او من اشباه الفرس ، من اولئك الموالي الذين اتقنوا اللغة العربية وبرعوا فيها وتفوقوا في فنون الادب العربي على العرب انفسهم . ولم يكونوا سكارى بهـــذا الظفر الذي اتيح لهم حين سوى بينهم وبين العرب فحسب ، بل كانوا سكارى بتفوقهم على العرب في أخص ما امتازوا به وهو

الشعر . وماذا تقول في عصر ينبه فيه بشار وابو نواس وابو العتاهية ومسلم بن الوليد ؟ فاذا ظهر بين هؤلاء شاعر ينتمي للعرب فنسبه مغمور وعروبته مطعون فيها .

فقد كان هذا الشذوذ إذن دخيلاً في الحيـــاة العربية لأسباب كثيرة اشرت الى بعضها ولا أطيل باستقصائها الآن واخص ما امتاز به هذا العصر هو هـــذا التحرر الذي يتجاوز به اصحابه حدود الحرية المألوفة . فبشار مثلاً لم يكن شاذاً كأبـي نواس واصحابه ولكنه كان مستهتراً بالعبث والمجون مغرقاً في شرب الخمر ووصفها مستخفاً بالحرمات حتّى خيفت منه الفتنة على النساء . وهو في الاستهتار بالغزل المؤنث كأبـي نواس واصحابه في الاستهتار بالغزل الشاذ والمذكر كما كان القدماء يقولون .

ونتيجة هذا كله تقتضينا ان نرد هذا الغلو في المجون والاستهتار باللذات لا الى اسباب تتصل بأشخاص الشعراء والماجنين المستهترين ، فهم لم ينفردوا بشيء من ذلك ، ولا الى اسباب تتصل بالسياسة قبل كل شيء ، أو تتصل بهذه الحرية التي اتيحت لأمم سبقت العرب الى الحضارة والى الحضارة المترفة التي بلغت قبل انتصار العرب درجة من الضعف والتهالك والانحطاط لم تعرفها في ايامها الاولى . فلما انتصر العرب وفرضوا سلطانهم ونظامهم الديني الصارم على هذه الأمم المتحضرة التي ضعفت سياستها وادرك اخلاقها ونظمها

الاجتماعية الفساد والانحلال خضعت هـذه الامم للسلطان الجديد وأسرّت غيظها وبغضها وأسرّت مع الغيظ والبغض فساد اخلاقها وانحلال نظمها الاجتماعية . حتى اذا كانت الثورة العباسية وانتصر المغلوبون تحققت المساواة بينهم وبين الغالبين وانطوى العرب على انفسهم واستقر كثير منهم في الجزيرة العربية والامصار الاسلامية مغلوبين بعد ان كانوا غالبين ومقهورين بعد ان كانوا قاهرين ، أظهرت هذه الأمم ما أسرّت واعلنت ما اخفت وجهرت بما كانت تجمجم به ولا تكاد تبين عنه من بغض العرب والخروج على ما جاءوا به من نظام وسياسة ودين ايضاً .

وكذلك ظهرت الشعوبية وظهرت معها عقدها الكثيرة والتواءاتها المختلفة واستأنفت الأمم المغلوبة حياتها تلك المنحلة التي مازجها الفساد . وهذا هو الذي يفسر شعوبية بشار ومعاصريه واستهتارهم بالخروج على النظام والانحراف عن الدين ، يجهرون بذلك ولا يخفونه ويتعرضون بذلك لسخط السلطان وبطشه ، ويفسر كل ما نراه عند ابي نواس وحماد عجرد ومطيع ومسلم والرقاشي وامثالهم من الشعراء والكتاب ومن الوزراء ورجال السياسة ، وقد احتـاجت هـذه الثورة الجامحة الى وقت قصير لتثوب الى شيء من الرشد وتؤوب من جموحها الذي جار بها عن القصد وتصير الى شيء من الاستقرار والالتئام والانسجام ، ان صح هذا التعبير – بين القديم والجديد او بين ما جاء به

العرب وما كان مخبوءاً في نفوس هذه الامم من الخير والشر جميعاً . وكان القرن الثالث او اكثره على الاقل هو العهد الذي تحقق فيه هذا الاستقرار .

مهما يكن من شيء فقد كان ابو نواس شاعراً كغيره من الشعراء الذين عاصروه اتيح له التفوق والامتياز فكلف به الناس وافتنوا في فهمه وتفسيره وحملوا عليه ما حملوه واضافوا اليه ما اضافوا وجعلوا منه شخصية اشبه بشخصيات الاساطير منها بشيء آخر ، فليس شعر ابي نواس اشد خطراً على اخلاق الشباب اذن من شعر بشار او شعر مطيع لو اتيح لشعر بشار وشعر مطيع او يحفظا ويشيعا كما حفظ شعر ابي نواس واشيع . وليس شذوذ ابي نواس بدعاً من شذوذ امثاله من المترفين في ذلك العصر وفي غيره من العصور . وينبغي ان يرد الشذوذ الى الاسراف في الترف والى الاسباب الاجتماعية التي تأتي من ضعف الاخلاق وانحلال النظم اكثر من رده الى الأسباب التي تتصل بالافراد . ثم اصبح ابو نواس بعد ذلك خطراً على التفكير العالمي نفسه لهذه الاسباب التي اشرت اليها من جهة ولما بينته في الحديث السابق من جهة اخرى ولأننا بعد ذلك ألفنا ان ندرس الشعراء والأدباء فنبحث عن اشخاصهم وربما ألهانا ذلك عن ألوان اخرى من البحث هي اعظم خطراً من اشخاص الشعراء وهي ظروف البيئة التي يعيشون فيها .

فالشاعر او الكاتب لا يستمد ادبه من شخصه وحده ، ولو استطعت لقلت انه لا يستمد شخصيتـــه من شخصه وحده ، وانما يستمد اكثر فنه واكثر شخصيته من اشياء اخرى ليس له حيلة فيها ، وليس لطبيعته ومزاجه وفرديته فيها كل ما نظن من التأثير . واكاد اقول مع القائلين ان الفرد نفسه ظاهرة اجتماعية ، فهو لم يأت من لا شيء وانما جاء من اسرته اولاً ولم يكد يرى النور حتى تلقته الحياة الاجتماعية فصورته في صورتها وصاغته على مثالها واخضعته لمؤثراتها التي لا تحصى ، فعنصر الفردية فيه ضئيل لا يكاد يحس إلا ان يمتاز هـــذا الفرد ، وامتياز نفسه يرده في كثير من الاحيان الى الحياة الاجتماعية التي انشأته .

وكل هذا يظهر في وضوح وجلاء ان التفسير النفسي لأبـي نواس وغير ابـي نواس من القدماء الذين لم يبق لنا منهم الا فنونهم فيه كثير من الشطط وهو ان الظن والفرض اقرب منه الى اليقين والتحقيق .

وانظر مثلاً الى هذه القصة التي يرويها القدماء عن ابـي نواس حين جلس مع جماعة من اصحابه واخلوا في بعض لهوهم ، فذكر اصحابه وانحرافهم بهـــذا اللهو عن الدين واسرافهم عن انفسهم ، وابو نواس ساكت لا يقول شيئاً فلما سألوه عن سكوته انشد هذين البيتين :

يا ناظراً في الدين ما الامر

لاقـــدر صحّ ولا جبرُ

ما صح عندي من جميع الذي
تذكر الا المـوت والقـبر

فضاق اصحابه بهذا الشعر ولاموه عليه اشد اللوم واعنفه وانذروه بالقطيعة فأظهر الندم وقال :

أية نارٍ قـدح القادح وأيّ جد بلـغ المـازح
لله در الشيب من واعـظ وناصح لو قبل النـاصح
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضـح
فاسمُ بعينيـك الى نسوة مهورهـن العمل الصالـح
لا يجتلي الحوراء من خدرها الا امرؤ ميزانه راجـح
من اتقى الله فذاك الذي سيق اليه المتجر الرابـح
شمر فما في الدين اغلوطة ورح لما انت له رائـح

فأول شيء ألاحظه في هذه القصة هذا الانتقال المفاجىء بين هذين الفنين من الشعر . فأبو نواس في البيتين الاولين يائس من العبث والنشور لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ، ولم يصح عنده من امر الدين شيء بل لم يصح عنده من عاقبة الحياة الا الموت والقبر . ثم هو في الأبيات الاخرى مؤمن ممعن في الايمان يلوم المتهاون في امر دينه ويحبب اليه الطاعة والتقوى ، ويقطع بالثواب والعقاب ويذكر الجنة والحور العين والطريق الى الظفر بنعيم الآخرة ثم يجزم في البيت الأخير بأن الدين صحيح كله :

شمرْ فما في الدين اغلوطة
ورح لمـا انت له رائح

واكبر الظن آن الشعر صحيح قاله ابو نواس ولكن القصة صنعت وتكلفها صانعوها تكلفاً ليظهروا ان مجون ابي نواس كان يدفعه الى الشطط وانه كان يرجع الى نفسه فيردها الى القصد والاعتدال ، واكبر ظني ان أبا نواس قال البيتين الاولين في ساعة من ساعات لهوه وعبثه او في ساعة من ساعات ضيقه وسأمه . وقال الابيات الاخرى في ساعة من ساعات رجوعه الى نفسه وشعوره بالحاجة الى شيء من الندم والتوبة والاعتذار .

واكاد أقطع ان شعر ابي نواس كله انما كان شعراً تمليه عليه حياته كما كان يحياها ، تضعف نفسه وتنقاد لأهوائه فيلهو ويسرف في اللهو ويزينه لنفسه وللناس ثم يثوب الى رشده ويكره من نفسه ضعفها وتقصيرها وقصورها عن الجد فيندم وييأس ويزين الندم والتوبة لنفسه وللناس . وربما قال الشعر في المجون واللهو لمجرد الاستجابة للفن . فأتقن ما اراد ان يقول وصدق الناس ما قال من ذلك . ثم ربما قال الشعر في الزهد مستجيباً للفن ايضاً لا لنزعة دينية خاصة ولا لرغبة في التوبة ولا لطمع في الثواب بل لانه شاعر ليس غير .

وصدق الله العظيم حين وصف الشعراء بأنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون . والعبرة التي أستخلصتها من شعر ابي نواس حين درسته ايام الشباب ، وما زلت استخلصها منه الى الآن هي ان شعر ابي

نواس ان صور شيئاً فانما يصور استخفافاً بالحياة وسخطاً عليها وجنوحاً الى التشاؤم يذهب بتشاؤمه مذهب الاستمتاع بالحياة ما اتيح له الاستمتاع لأنها أهون عليه من ان يأخذها على انها جد .

والناس يذهبون في التشاؤم كما تعلم مذهبين : مذهب الاستخفاف والاستهانة والاستعانة على الحياة بما فيها من الطيبات . ومذهب البغض والخوف والضيق والاستعانة على الحياة بالزهد فيها والانصراف عنها والارتفاع عن نقائصها . فأبو نواس عندي متشائم ولكن تشاؤمه باسم ، وابو العلاء متشائم ولكن تشاؤمه عابس . او قل ابو نواس متشائم يقيم تشاؤمه على الاستخفاف والعبث ، وابو العلاء متشائم يقيم تشاؤمه على الجد والحذر ، وكلاهما يحيا حياة كما ينبغي ان يحياها الناس وكلاهما يسرف على نفسه وعلى الناس في الهزل او الجد وخير الامور اوساطها .

فهرست

للمــؤلف

مرآة الضمير الحديث

بيـن بيـن

خصام ونقد

نقد واصلاح

أحاديث

رحلة الربيع والصيف

من لغو الصيف

من لغو الصيف الى جد الشتاء

من ادب التمثيل الغربي

من بعيد

جنة الحيوان

خواطر

كلمات

المعذبون في الأرض

القدر لفولتير (ترجمة)

أوديب – ثيسيوس لأندره جيد (ترجمة)

من تاريخ الادب العربي (ثلاثة مجلدات)

الثمن : ٥٠٠ ق. ل. او ما يعادلها .